جا عين شمس

حية التربية

قسم التاريخ

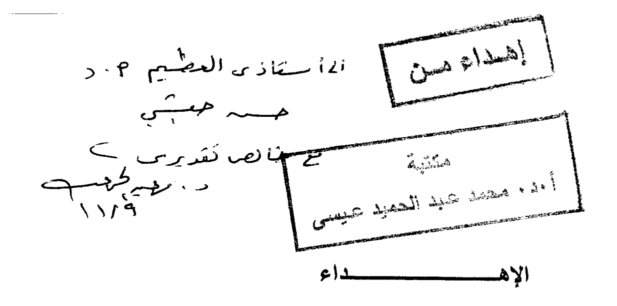
مذكرات في تاريخ العرب والإسلام

دكتور

محمد عبد الحميد عيسى

أستاذ التاريخ الإ ى بتربية عين شمس

١٩٩٩



الإهـــــــداء

إلـــى روح والـــــدي رحمهمـــــــا الله

ســـــائلا المـــولـــى سبحانـــه وتعالـــى

لهمـــــا ولنـــا ولأهلنـــا جميعـــــا

المغفـــــرة و حســـن الجـــزاء

مقدمة الكتاب

تاريخ العرب والإسلام مصطلح جديد يتضمن مفهوما واسعا جدا من الصعب عرضه في كتاب واحد مهما بلغت ضخامته لأن تاريخ العرب قد يعنى كل تاريخ هذه الأمة المحددة الصفات والسمات والمعروفة لدى المؤرخين بالأمة العربية ، والقاطنة كل أرض العرب في القارتين الآسيوية والأفريقية كما يعنى تاريخ كل العرب مسلمهم ومسيحهم ويهوديهم ، ويعنى أيضا تاريخ هذه الأمة قديما وحديثا دون تحديد لفترة زمنية معينة .

اما باقي المصطلح ، تاريخ الإسلام فهو فضفاض إلى درجة كبيرة على ما هو الحال في نصف المصطلح الأول " العرب " وقد يعنى تاريخ الأمة الإسلامية بكاملها في المشرق والمغرب ، ومنذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا ، لأن الإسلام لا يزال حيا نابضا يحرك مئات الملايين المؤمنين به في كافة أطراف المعمورة .

هذه هى خطورة وضع مسميات أو مصطلحات عامة ، فضفاضة غير محددة . وربما نلتمس العذر لمن وضع تلك المسميات بأنه أراد تقديم ثقافة موجزة إلى طلاب غير متخصصين في التاريخ ، وأنه رأى الخير في أن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، ولا ريب في فائدة ما يقدم إلى الطلاب ولو كان مختصرا و موجزا .

ومن هنا أثرت كتابة هذه الصفحات لكي يسترشد بها طلابي في دراستهم الجامعية ، وكل أملي منها أن أثير في نفوسهم شوق التعرف على تاريخ الأمة العربية ، وعلى تاريخ ظهور الإسلام وانتشاره لعل بعضهم يرجع إلى ما أشير من مصادر ومراجع لإرواء ظمأ ، أو إشباع رغبة .

ولا يخفى على كل لبيب أن مثل هذه الكتابات العامة تخلو في كثير من جوانبها مما يجب أن تتمتع به المؤلفات الجامعية والتي يجب أن تتميز بالتحليل والشرح والتعمق في النقاط ، وإبراز الآراء المتعارضة والمتوافقة والرجوع إلى المصادر والمراجع وذلك كله يتعارض مع ما يجب أن يكتب تحت ذلك المصطلح الواسع والفضفاض .

وسأحاول جهدي أن أشق طريقا وسطا بين هذين المحظورين سائلا المولى سبحانه وتعالى التوفيق ، فإن أصبت فمن توفيق الله وإن أخطأت فإن حسبي أنني اجتهدت . وعلى الله قصد السبيل .

د . / محمد عبد الحميد عيسى
رئيس قسم التاريخ بكلية التربية – جامعة عين شمس
الألف مسكن : إبريل ١٩٩٩ م



الباب الأول

مصادر كتابة تاريخ العرب والإسلام
جغرافية بلاد العرب
السكان في بلاد العرب
حضارة جنوب الجزيرة العربية
حضارة شمال الجزيرة العربية
حضارة وسط شبه الجزيرة العربية
أحوال العرب قبيل الإسلام



تعتمد الكتابة التاريخية على مجموعة متنوعة من المصادر تتوافر أحيانا فى مجالاتها السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والفكرية وغيرها ، وتشح فى أحيان أخرى مما يجعل من الصعب على الباحثين رسم تلك الصورة التى يجب تصميمها وإيضاحها للأجيال الحاضرة لكي يتفهموا ويحيطوا علما بما كانت عليه الأمم السابقة .

وبما انه لا غنى للإنسان عن دراسة ماضيه باعتباره كائنا اجتماعيا ، وبما أنه من الضروري بالنسبة له أن يعرف تاريخ تطوره ، وتاريخ أعماله وآثاره ، فيدرس العوامل التى أدت إلى قيام المجتمعات ، ونشأة الدول ، والعوامل التى أدت إلى أن تقع بينها الحروب والغزوات ، وأن تحاول أمة إبادة أمة أو القضاء عليها أو إضعافها ، وما خلفه ذلك الصراع الطويل من آثار إيجابية أو سلبية .

وبما أنه لا غنى أيضا عن تتبع حركة الحياة الاجتماعية ، وانتقال الإنسان من عصور البداوة إلى قفزات التطور العلمي الذي أصبح يقاس بالدقائق والساعات .

وحيث أنه من الضروري أن يتعرف الإنسان على نشأة كل الأشياء المرتبطة بحياته وتطورها منذ فجر المعرفة الإنسانية وحتى يومنا هذا مثلا بدأ من الاعتماد على ما خلقه لنا ذلك الماضي من مصادر .

وتاريخ العرب والإسلام من الموضوعات الأساسية التى نسعى لتعريف طلابنا به آيا كانت مشاربهم الثقافية أو تخصصاتهم العلمية ، لأن ذلك التاريخ هو الذاكرة التى تساعد أبنائنا على الحفاظ على كينونتهم ، وعلى توازنهم ، ولأن ذلك التاريخ يساعدهم على تفسير كثير من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك من ظواهر الحياة المعاصرة التى يتعرضون لها .

ويمكن تقسيم مصادر تاريخ العرب والإسلام على النحو التالي :

أولا :- المصادر غير المكتوبة ، وهى كل ما وصل إلينا من مخلفات الشعوب العربية سواء كانت مصنوعة من الحجر أو المعدن ، وما حفره فى الصخر أو إقامة من منازل أو معابد الأسواق أو سدود أو مقابر وكل ما يرتبط بحياته من أدوات مختلفة الاستعمال وغير ذلك من الشواهد التى يمكن أن تساعدنا على التعرف على نمط الحياة وشكلها .

ويهتم علماء الآثار بهذا النوع من المصادر ، وهى شاغلهم الأول ونطلق عليها فى استعمالنا العادي كلمة " الآثار " .

والآثار هى التاريخ ألحي لأهلها ، وهى الشاهد الصادق من حضارة أصحابها ، وتكشف عن المستوى الحقيقي من ناحية البداءة والتقدم ، الفقر والغنى ، الجهل أو العلم ، الأصالة أو التقليد ، التأثير والتأثر ، وتعطينا صورة أقرب ما تكون عن واقعهم الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والديني وحياتهم السياسية ، وأزياءهم وأذواقهم ولغتهم وغير ذلك .

ثانيا :- المصادر المكتوبة وأقصد بها كل ما جاءنا مكتوب مهما كان شكل الكتابة ، أي ما سجله الإنسان عن نفسه منذ عرف الخط والكتابة وهذه المصادر من الأهمية بمكان مهما أختلف شكلها أو اللغة سجلت بها والمصادر التاريخية المكتبة كثيرة ومتنوعة فمثلا:

أ- المصادر الدينية كالتوراة بما تتضمنه من أسفار وقصص ليست كلها منزلة من السماء ، وليست كلها من رسالات الأنبياء ، وإذا كان بعضه له قداسته ، فإن بعضها الأخر تضمن أخبارا أضافها الأحبار والرواة ، وصورت هذه المصادر فى عبارات مقتضبة من سفر التكوين ، وسفر حزقيال ، وسفر المزايد ، وسفر عاموس ، وسفر دانيال .

ومن التلمود علاقات العبرانيين ببعض قبائل ودويلات عرب شبه الجزيرة ومعلوماتهم عنهم وعن مناطقهم تصويرا بعضه مقبول وأغلبه مفتعل، وحاولت أن ترتب أنساب القبائل التى عرفها العبرانيون ترتيبا قليلة مقبول وكثيره مفتعل ومن ثم علينا الحرص الشديد فيما جاءتنا به الكتابات اليهودية القديمة .

ومن المصادر الدينية الهامة ، القرآن الكريم ، والذي هو أساس التشريع الإسلامي والمصدر الأول لتاريخ العرب في عصر الجاهلية ، وأصدق المصادر المدونة على الإطلاق لأنه تنزيل من الله سبحانه وتعالى ، ولا شك في صحة نصه ففيه ذكر لكثير من مظاهر حياة العرب السياسية والاقتصادية وعاداتهم الاجتماعية وثقافتهم الدينية ، والكثير من أخبار قبائلهم وشعوبهم والمصير التي آلت إليه بعض جماعتهم وما تعرض له أصحاب الأخدود أو ما جرى بين الفرس والروم .

وعلى الرغم من هذا فإن عددا من المستشرقين لا يعتبرون الكتب المقدسة من المصادر التاريخية التي يعول عليها باعتبارها كتب عبرة أخلاقية ، كما أنها ليست كتب تاريخ على وجه الدقة والتحديد ، وإن كان هذا لا يقدح في صحة ما جاء في القرآن الكريم وأن ما جاء في هذا النص لا يرقى إليه الشك للتأكيد على وقوع بعض الأحداث في الجاهلية مثل حادثة أصحاب الأخدود ، وحادثة سيل العرم ، وقصة أصحاب الفيل ، ثم أنه مرآة صادقة للحياة في الجاهلية ، يصور الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية أيضا أصدق تصوير .

والحديث النبوي الشريف مصدر أساسي لتاريخ العرب والإسلام بسبب دقة النقل والتشدد الكبير في روايته والتي استخدمت الرواية والإسناد حتى نصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو السلف الأول من الصحابة وهو وإن كان مصدرا فقهيا في المقام الأول إلا أنه يعد مصدرا تاريخيا أساسيا لما يحويه من إشارات ، ولما فيه من أخبار وخاصة من عصر ما قبل الإسلام وعصر النبي صلى الله عليه وسلم ، بل وأكثر من ذلك وهو مصدر مهم عن القرن الأول الهجري .

ب- المصادر غير الدينية ويمكن تقسيمها إلى نوعين أيضـا ، كتابـات غير العرب والكتابات العربية.

١) الكتابات التاريخية اليونانية واللاتينية والسوريانية وهـى علـى مـا فيها من أخطاء تاريخية فإنها تتضمن معلومات يمكن الاستفادة منها عن تـاريخ العرب قبل الإسلام ، كما ان بها بعض المعلومـات عـن جغرافيـة هـذه البـلاد وتأتي معظم معلومات هذه المصادر من الرحالة والتجار و المحـاربين اليونـان والرومان ، وخاصة من شاركوا في حملة أيليوس جايوس الرومانية على بـلاد اليمن . يضـاف الـى ذلـك أن كتابـات الجغرافيين اليونـان و الرومـان تضمنت الكثير من المعلومات التي تفيد في هذا المجال .

٢) المصادر الدينية المسيحية وتشتمل علـى الكثير مـن أخبـار البـلاد العربية وعلاقتها باليونان والفرس ، وهى بحكم حداثتها النسبية فـإن معلوماتـها أكثر دقة وأقرب إلى الصحة ، كما أنها كانت على صلـة وثيقـة بـالأحداث التـى تعرض لها النصارى فى بلاد العرب وخاصة فى اليمن .

٣) المؤلفات العربية ، وخاصة فـى مجـال سيرة رسـول الله صلـى الله عليه وسلم حيث أهتم المسلمون بكتابة كل ما تعلق بالرسول عليه السلام سـواء مـا كـان مرتبطـا بنسبه ونسب آبـاءه وأجداده حتـى أصولـه الأولـى وأشـهر المؤلفات فى هذا المجال الكتاب الذي كتبه أبو عبد الله محمد بن اسحق المتوفى ١٥٠هـ / ٧٦٧ م ووصلنا عن طريق الاختصار الـذي قـام بـه أبـو محمـد عبـد الملك بن هشام المتوفى ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م والذي أصبـح يعـرف فـى المصـادر الإسلامية منسوبا إلى هذا الرجل فأطلق عليه السيرة النبوية لأبن هشام .

جـانب أخـر مـن حيـاة المسـلمين لقـى اهتمامـا فـى الرصـد والتسـجيل والكتابة والتأليف ألا وهو مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفتوحـات الإسلامية التى وقعت على عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية .

ولعل أقدم المؤلفـات فـى هـذا المجـال هـو كتـاب الواقـدي المعـروف بالتاريخ والمغازي والمبعث ، وللرجل مؤلفات كثيرة حتى قيل أن ما خلفـه مـن كتب يملأ ستمائة قمطر كبير .

ومن أهم المؤلفات الإسلامية الكثيرة فى هذا المجال فتوح مصر لأبن عبد الحكيم و فتوح البلدان للبلاذري .

وهناك جانب آخر أبدع المؤرخون المسلمون الكتابة فيه ، آلا وهو الخاص بالأنساب وطبقات العرب لتلك الناحية من أهمية دينية وتاريخية ، حضرت مؤلفات كثيرة فى هذا المجال منها " الطبقات الكبرى " لأبن سعد و " أنساب الأشراف " للبلاذرى ، ونسب قريش وغير ذلك من المؤلفات .

ومن الطبيعي أننا لا نعدم مؤلفين مؤرخين مسلمين منذ العصور الباكرة للإسلام منهم إبان بن عثمان بن عفان رضى الله عنهما المتوفى ١٠٥ هـ ، وعروة بن الزبير بن العوام رضى الله عنهما المتوفى ٩٢ هـ ، وشر جيل بن سعد الأنصاري المتوفى ١٢٣ هـ . وتلت هؤلاء وغيرهم طبقة أخرى أكثر أتساعا منهم عبد الله بن محمد بن حزم الأنصاري المتوفى ١٣٥ هـ ، وعاصم بن عمر بن قتادة الظفري المتوفى ١٢٠ هـ وأبن شهاب الزهري تلميذ عروة بن الزبير المتوفى ١٢٤ هـ .

وجاءت طبقة ثالثة أثرت الكتابات التاريخية ومنها موسى بن عقبة ١٤١هـ ومحمد بن اسحق صاحب سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومحمد بن عمر الواقدى الذي يعتبره أ . د . السيد عبد العزيز سالم الثاني بعد أبن إسحاق في اتساع علمه بالمغازي والسيرة والتاريخ ، بل فاق أبن إسحاق في دقة المادة والأسلوب مع زيادة الاهتمام بتحقيق تواريخ الأحداث ، وتوضيح الإطار الجغرافي المتصل بالمواقع ، وأنه كان أعلم الناس بأهل الإسلام .

ومن أشهر المؤلفات الإسلامية التى قدمت التى قدمت لنا مادة علمية رائعة مؤلفات أبى مخنف المتوفى ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م وينقل عن معظم مؤرخي الإسلام القدامى ، وأن عابه تحمسه الكبير للشيعة مما يلقى ظلالا على رواياته. ومنهم المنذر بن هشام الكلبي الإخباري المتوفى ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، ويعد كتابه عن " الأصنام " أهم مصدر تاريخي عن الحياة الدينية للعرب قبل الإسلام . ومنهم كتاب " الأخبار الطوال " لأبى حنيفة الديتورى المتوفى ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م ثم التاريخ الكبير لليعقوبى الإخباري المتوفى ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م وبه نبذ مهمة جدا عن تاريخ الجاهلية وأبرز شعرائها وأهم أسواقها ، وكذلك ملخصات لتاريخ الأمم السابقة على الإسلام .

ونصل إلى الكتاب المعروف " تاريخ الأمم والملوك " للعالم الجليل محمد بن جرير الطبري المتوفى ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م ، والذي تضمن أخبار تتصل بتاريخ البشر منذ بداية الخلق حتى تاريخ وفاته ، وأعتمد فيه ترتيب السنين منهجا للكتابة.

ومن المؤلفات الأندلسية الهامة كتاب " العقد الفريد " لأبن عبد ربه المتوفى ٣٢٧ هـ / ٩٣١ ، والمقتبس لأبن حيان ، ومؤلفات المراكشيين وأبن الخطيب إلى أن نصل إلى تاريخ بن خلدون المعروف " بالعبر وديوان المبتدأ والخبر " وفيه أخبار العرب والشعوب الأخرى ، وبخاصة سكان شمال أفريقيا.

جانب آخر أبدع فيه الكتاب المسلمون ويعتبر مصدرا أساسيا للكتابات التاريخية آلا وهو مجال الجغرافية حيث احتوت هذه المؤلفات مع كثير من المعلومات التاريخية الخاصة بالفتوحات ، ومصادر الدخل ، والجزية ، والخراج وغير ذلك مما يساعد على التعرف على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للعالم الإسلامي .

ونتوقف عند المصادر الأدبية وهى عند العرب من الكثرة بحيث لا تحصى ، ولقد قيل قديما " الشعر ديوان العرب " ومن هنا كان الشعر وخاصة فى العصر الجاهلي مصدرا أساسيا وهاما لإعطائنا صورة عن ذلك العصر فهو يصور أحوال العرب البيئية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ويبين لنا طباعهم وأخلاقهم ، وعاداتهم ودياناتهم ، وأيامهم ، وهو بصورة مجملة القاموس الذي يرجع إليه للتعرف على كثير مما يرتبط بتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده .

بلاد العرب

الموقع - الأقسام - المناخ - السكان

يقصد التعبير الجغرافي "بلاد العرب "المنطقة التي سكنها ذلك الجنس البشري المنحدر من أصل سامي والذي عرف عبر التاريخ باسم "العرب " ويطلق عليها المؤرخون والجغرافيون اسم "جزيرة العرب "ولا يعني ذلك عدم معرفتهم معني المصطلح الجغرافي "الجزيرة" ، إنما جاء ذلك أما تجاوزا باعتبار شبه الجزيرة جزيرة أو لأنهم استطاعوا أن يربطوا بين مياه الخليج العربي والمحيط الهندي ،والبحر الأحمر ومياه النيل ودجلة والفرات حتى أطاحوا أرض العرب بالماء من جميع الجهات .

تقع بلاد العرب في الجنوب الغربي لقارة آسيا وتكتنفها الحدود الطبيعية من جميع الجهات ،فالشرق يحدده الخليج العربي ،والغرب البحر الأحمر والجنوب المحيط الهندي وبحر العرب أما الشمال فانه يحدد ببادية الشام وتشتمل هذه المنطقة حاليا على عدد من الوحدات السياسية أكبرها وأهمها المملكة العربية السعودية،ثم اليمن والكويت ودولة الإمارات المتحدة،وقطر والبحرين وسلطنة عمان.

تنقسم المنطقة من الناحية التضاريسية إلى أقسام رئيسية اختلف الجغرافيون في تحديدها بالضبط، فهناك من جعلها ثلاثة أجزاء هي :

١- بلاد العرب الصخرية،وتشتمل على المثلث الواقع بين خليجي البحر الأحمر والمنطقة التي تليه إلى الشمال والشمال الشرقي.
٢- بلاد العرب الصحراوية وتضم المنطقة التي تقع فيها بادية الشام وما يمتد جنوبها من داخل شبه الجزيرة العربية.
٣- بلاد العرب السعيدة وتضم باقي أجزاء شبه الجزيرة العربية.

وهناك من الجغرافيين المحدثين من يميل إلى تقسيمها بحسب قربها أو بعدها من البحر،وعلي هذا الاعتبار قسموها إلى قسمين كبيرين هما :

١- بلاد العرب المتصلة بالبحر وتشمل الحجاز وعسيرا واليمن وحضرموت وعمان والاحساء .
٢- بلاد العرب الداخلية وهذه تشمل نجدا والصحاري الداخلية.

ويذهب أغلب الجغرافيين العرب إلى تقسيمها إلى خمسة أقسام رئيسية:

تهامة - نجد - الحجاز -اليمن - العروض

تهامة :

هي الإقليم الساحلي الممتد بحذاء البحر الأحمر انطلاقا من اليمن في الجنوب إلى أقصي الشمال ومن جبال السراة شرقا إلى البحر الأحمر غربا ونظرا لطول الإقليم فانه يحمل عدة أسماء مثل "تهامة الحجاز"في الحجاز "و تهامة عسير" في العسير ، أما العرض فيختلف باختلاف موقع الجبال من البحر حيث يضيق حين تقترب من البحر والعكس بالعكس،ونظرا لانخفاض أرض تهامة فإنها تسمي أحيانا بالغور، أما التسمية"بتهامة" فترجع إلى شدة

حرها وركود هوائها وتقع هذه الأراضي حاليا في دولتـــي اليمـــن والمملكـــة العربية السعودية .

الحجاز:

يحتل إقليم الحجاز مكانة تاريخية ودينية ثابتة في قلـــوب المســـلمين باعتباره موطن الدين الإسلامي ،ومهد النبوة وسمي حجازا لحجزه مـــا بيـــن اليمامة والعروض وفيما ين اليمن ونجد فصارت نجد ما بين الحجـــاز إلـــى الشام .ويقال سمي حجازا لأنه احتجز بالجبال،ويقال أنه سمي حجـــازا لأنـــه حجز بين تهامة ونجد.وقال الخليل سمي حجازا لأنه فصل بين الغور وبيـــن الشام وبين تهامة ونجد ويضم إقليم الحجاز عدة مدن أهمها مدينة رســـول الله صلي الله عليه وسلم وبها مقبرة ومدافن كبار الصحابة ومكـــة وبـــها البيـــت الحرام ، والطائف وخيبر وفدك وتيماء وتبوك ووادي القرى. وفي هذا الإقليم قامت دولة الإسلام أول عيد رسول الله. وجرت به أحداث كبري أبان عصـــو الخلفاء الراشدين والدولة الأموية وكان وما زال من أقاليم المملكـــة العربيـــة السعودية ذات الأهمية.

نجد :

هضبة مرتفعة تحتل وسط شبه الجزيرة العربية وتقـــع بيـــن باديـــة السماوة في الشمال والدهناء في الجنوب ومن أطراف العـــراق شـــرقا إلـــى الحجاز غربا ويعتبره الجغرافيون أوسع أقاليم شبه الجزيرة العرب،وأحســـنها هواء وأصحها أجواء ومهد عدد من الشعراء القدامى الذيـــن خلدوهـــا فـــي شعرهم وترنموا بها في أناشيدهم،وسميت بذلك الاسم لارتفاع الإقليم والـــذي يصل إلى نحو ألف ومائتي متر عن مستوي سطح الأرض ،وفي نجد كثـــير من الجبال والأودية والصحاري التي تتميز بأنها ليست قاحلة تماما ، وإنمـــا

تتخللها المراعي الجيدة التي تربى عليها الجياد العربية وكذلك بعض العيـــون غزيرة الماء.

اليمن :

عرفت عند المؤرخين باليمن السعيد أو اليمن الخضراء،وذلـــك لمـــا حباها الله من وفرة في الماء وفي الزرع وكثرة الـــرزق والخـــيرات ،وهـــي الأرض التي أشار إليها سبحانه وتعالي في كتابه الكريم حين قال: (لقد كـــان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا لـــه بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيـــهم جنتين ذوات أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل) (سورة سبأ). وتطل اليمـــن على البحر الأحمر من الغرب وبحر العرب من الجنوب وبالعروض شـــرقا ، وتنقسم بحسب طبيعتها إلى قسمين رئيسين وان كانا غير متساويين من ناحيـــة المساحة، وهما: تهامة اليمن، ويقصد بذلك الساحل المطل على البحر الأحمـــو ،وتعتبر امتداد لتهامة العسير، أما القسم الثاني فيعرف بنجد اليمن ويتضمـــــن أربع هضاب هي :

هضبة نجران في الشمال – هضبة مأرب فـــي الشـــرق – هضبـــة صنعاء في الوسط – هضبة تعس في الجنوب وتبلـــغ :المســـاحة التقريبيـــة لليمن٧٢٧١٥ ميل مربع .

ونتيجة لموقع اليمن الجغرافي وتمتعها بمناخ منفرد عن باقي أجـــزاء شبه الجزيرة فإنها أصبحت ومنذ فترة موغلة في التاريخ أسبق مناطق شـــبه الجزيرة في الترقي على طريق التطور وبناء الحضارة وقيـــام الدولـــة ممـــا سنشير إليه فيما بعد.

ولهذه الأسباب أيضا فإنها تحكمت فـــي الطـــرق التجاريـــة القديمـــة وخاصة طرق تجارة منتجات جنوب آسيا، وانتقال هذه المنتجات إلى الأمـــم القاطنة على ضفاف البحر المتوسط، وجعل ذلك من بلاد اليمن هدفا للغـــزو الأجنبي ومطمعا لليونان والرومان والأحباش والفرس ،وسنتناول ذلـك عنـد حديثنا إن شاء الله عن تاريخ المنطقة.

وتشتمل بلاد اليمن على عدة بلاد هامة منها نجـــران فـــي الشـــمال وكانت مركزا من مراكز المسيحية الهامة قبل الإسلام .وفي الوســـط مدينـــة صنعاء عاصمة جمهورية اليمن وعدن المرفأ الرئيسي لليمـــن وهـــي محـــط تجارة الهند والحجاز والحبشة ومفتاح الحركة التجارية في البحـــر الأحمـــر ونقطة الصلة بين الشرق والغرب .وتشكل بلاد اليمن موقعا استراتيجيا هامـــا على مدخل باب المندب وإطلالها على البحر الأحمر والبحر العربي .

العروض :

هي تلك المنطقة الواسعة التي تضم بلاد اليمامة والبحرين والمطلـــة على ساحل الخليج العربي وهناك إجماع على تسميتها بذلـــك الإســـم لأنـــها تعترض بين اليمن ونجد العراق وعرفت قديما باسم جـــواء، وكـــانت موطنـــا للقبائل العربية البائدة طسم وجديس ،واختلف في تسميتها باليمامة فهناك مـــن أرجع ذلك إلى اليمامة بنت سهم بنت طسم وقيل أن التسمية ترجع إلى أشـــهر بلد فيها وهي اليمامة وتقع في الجنوب الغربي من الاحساء .

وكانت بلاد اليمامة قديما من البقاع الخصبة في الجزيـــرة العربيـــة والي الشرق منها تقع البحرين وتطل على الخليج العربي وعاصمة هذه البلاد تسمي هجر ،واستمرت كذلك حتى القرن الرابع الهجري حين ظهر القرامطـة

وأنشأوا مدينة لهم أسموها الاحساء ،ومن الناحية السياسية فان قسما كبيرا منها يشكل جزء من المملكة العربية السعودية أما البحرين فتعتبر دولة مستقلة.كما أنها تضم الآن بعض الدول العربية وهي الكويت - البحرين - قطر الإمارات العربية المتحدة - سلطنة عمان.

مناخ الجزيرة العربية :

يتسم مناخ شبه الجزيرة العربية بصفة عامة بالجفاف وقلة الأمطار ولا ينطبق هذا الكلام على جميع أجزاء شبه الجزيرة لأن جبال اليمن وعمان تتلقى في فصل الصيف كمية كبيرة من الأمطار كانت سببا في استقرار الناس في هذه المناطق واشتغالهم بالزراعة، أما باقي شبه الجزيرة العربية فانه يتلقى كمية خفيفة من الأمطار في فصلي الخريف والشتاء وترتفع درجات الحرارة بشدة في فصل الصيف بينما يكون الجو معتدلا جافا في باقي الفصول. ومع أن هذه هي السمة الغالبة إلا أن شبه جزيرة العرب قد تتعرض لنوبات مطر قوية جدا وخاصة على المناطق الجبلية ،وساعد ذلك على قيام زراعات ثابتة في مناطق مثل نجد وإقليم الاحساء وحائل والمدينة وغيرها .

أوردت قواميس اللغة كلمة "عرب " على أنها لفظ يطلق على أجيـــال من الناس ،سامية الأصل ،منشؤها شبه جزيرة العرب دون تحديـــد لتـــاريخ ظهور هذه الكلمة أو لمعناها على وجه الدقة.

وأقدم الإشارات التي وردت عن العــــرب جـــاءت فـــي الســـجلات الآشورية التي ترجع إلى عهد شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م)، كمـــا أن هناك إشارات في السجلات البابلية من عهد (نابونيد ٥٥٥-٥٣٩ ق.م)، ثـــم ظهرت هذه الإشارات في الكتابات الإغريقية القديمة على عصر هومـــيروس ثم بعد ذلك ضمن السجلات التي تتناول الصراع اليوناني-الفارسي .

أما في المصادر الأثرية العربية فقد تأخر ظهور هـــذا اللفــظ إلـــى حوالي القرن الأول قبل الميلاد ،حين ظهر في بعض النقوش الأثرية الســـبأية وقد وردت هذه الإشارة بمعني الإعراب، أي سكان البوادي ، أما أهل المـــدن فقد كانوا يعرفون بمدنهم أو قبائلهم،كما أن اللفظ قد ورد أيضـــا فـــي نقــش يعرف تاريخيا باسم "نقش شاهد التجارة" وهو نقش كتـــب باللغـــة الأراميـــة النبطية، ويرجع تاريخة إلى عام ٣٣٠ ق . م وجاء أيضا بمعنـــي الأعــراب سكان البادية.

والقرآن الكريم هو أول مصدر عربي يستخدم لفظ "عـــرب" للدلالـــة على الجنس العربي ،وللدلالة على قوم يعنيهم القرآن بهذا اللفظ مما يدل علـــى شمول هذه التسمية ووجودها قبل نزول القرآن ،وان كان من الصعب علينـــا

تحديد التاريخ الذي بدأ فيه استخدام هذه الكلمة للدلالة على" الجنس العربـــي" أو "الشعب العربي ".

أصل العرب :

يختلف المؤرخون في تحديد أصل الشعب العربي ،وبالتالي طبقـــات هذا الشعب ، والآراء الأكثر شيوعا في هذا المجال هي:

أولا: انقسام العرب إلى قسمين : العرب البـــائدة والعـــرب الباقيـــة والعرب البائدة هي الشعوب العربية التي اندثرت من الوجود ولا نجـــد لـــها ذكرا إلا في الشعر العربي والقرآن الكريم مثل (طسم-جديس-هود-صـــالح ...الخ). أما العرب الباقية فينقسمون إلى قسمين هما :عرب الجنوب وعـــرب الشمال.

ثانيا: انقسام العرب إلى ثلاثة أقسام : العرب البائدة والعرب العاربـــة والعرب المستعربة،وفي نظر هذا الفريق ، أن العرب البائدة هي التي لم يعـــد لها وجود، وانما يستدل عليها بما جاء في القرآن الكريم وما أثبتتـــه بعـــض الكشوف الأثرية .

العرب العاربة :

أي العرب الراسخون في العروبة ،وينتسبون إلى قحطان بن عـــابر والذي ينتهي نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام ،ويري المؤرخون أن هـــذه العرب العاربة هي أول أجيال العرب الباقية حتى اليوم وأنهم أصل الحضـــارة العربية وخاصة في جنوب شبه الجزيرة .

العرب المستعربة:

وهم ولد عدنان من نسل إسماعيل ابن إبراهيـــم عليـــهما الســـلام ، وسميت هذه الأجيال بالعرب المستعربة لحداثتها في العربية وتعلمـــــها هـــذه اللغة من العرب العاربة . وان وجدت بعض الآراء التي تجعــــل مـــن كـــلا القسمين من العرب من نسل إسماعيل ابن إبراهيم ، وكما هو شـــائع التعبـــير بأن إسماعيل هو جد العرب , كما أن اسحق هو جد العبرانيين .

ويري الدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتابه عن تـــاريخ العـــرب قبل الإسلام أن هذه التقسيمات ، محدثة ، وأن القرآن لم يشر إليها ، كما أنـــه لم يظهر لها أية بوادر على عهد النبي عليه الصلاة والسلام ولاعهد خلفائـــه الراشدين ،وان هذه التقسيمات – كما يري الأستاذ/جـــواد علـــى - أن هـــذا التقسيم لم يبرز إلا في العصر الأموي أبان النزاع الحزبي .

ويري ابن كثير في هذا التقسيم رأيا آخر فيقول :قيل أن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام ،والصحيـــــح المشـــهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل وقد قدمنا أن العرب العاربة منهم عـــاد وثمـــود وطسم وجديث واميم وجرهم والعمالقة وامم آخرون لا يعلمهم إلا الله كـــانوا قبل الخليل على الإسلام وفي زمانه أيضا.

فأما العرب المستعربة و هم عرب الحجاز فمن ذرية إسماعيل وامـــا عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان واسمه مهزم ...وقيـــل أن قحطان من سلالة إسماعيل .

وكل قسم من هذين القسمين يتفرع إلى عدة بطون وقبائل ونذكر من تقسيمات العرب العاربة،أي عرب الجنوب جرهم ويعـرب ، ومـن يعـرب تشعبت القبائل والبطون أيضا وكان منهم كهلان وحمير ، ومن حمير ظـهرت قضاعة ،ومن كهلان الأزد وطئ ومزحج وهمدان وكهلة وغيرهم .

أما العرب المستعربة وهم الذين قطنوا أواسط الجزيرة العربية وبـلاد الحجاز فقد اختلف الاخباريون في أنسابهم اختلافا ونذكر منهم مصر وربيعـة ،وقيس وعيلان وهوازن وسليم وثقيف وقريش .

النشاط السكاني :

اختلف نشاط السكان في شبه الجزيرة العربيـة بـاختلاف الموقـع والمناخ فهناك مناطق اهتمت بالزراعة و أخري بالتجارة ومناطق أخري كـان الرعي وتربية الحيوان هما العامل الأساسي في حياة السكان ، ولا شـك أن الموقع الجغرافي قد لعب دورا هاما في هذا النشاط ففي جنوب جزيرة العرب تسقط كميات وافـرة مـن الأمطـار ، عـلاوة علـى أن طبيعـة الأرض بركانية،فاجتمع العاملان .الماء و التربة وهمـا عـاملان مسـاعدان علـى الزِراعة - وكان سببا في استقرار الإنسان وتجمعه إلى جانب اقرانه فبـدأت الحياة الاجتماعية والحضارية ونشأت الدول التي سنتناولها فيما يأتي .

أما وسط شبه الجزيرة وشماها فقد اختلف النشاط السكاني فيه بتغـير المناخ والعوامل المناخية،ومن الصعب علينا الآن الإشارة إلى نشاط العـرب البائدة على وجه الدقة ، وأشار القرآن الكريم إلى أهل عاد بأنهم قوم جبـارين يحبون البناء ويتخذون المصانع فيقول :

" كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون أني لكم رسول أميـــن فأتقو الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري إلا على رب العـــالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكـــم تخلـــدون واذا بطشـــتم بطشتم جبارين" (الشعراء). وما يقال عن اليمامة والبحرين موطـــن قبيلتـــي طسم وجديس من أنهما كانتا "من أخصب بلاد العـــرب وأعمرهـــا وأكثرهـــا خيرا وعمرانا ،وفيها صنوف الشجر والأعناب وهي حدائق ملتفـــة وقصـــور مصطفة ".

أما بالنسبة للعرب المستعربة الباقية وهم شعب عدنان كمـــا تصفـــهم المصادر التاريخية،فقد تركز نشاطهم على التجارة في الأماكن التي تســـاعد على ذلك وعلي الرعي في موطن الكلأ والعشب .

ولا يمنع ذلك عملية التطور الحضاري في هذه المناطق ، وان جعلها تأتي متأخرة بعض الشيء بالنسبة للأماكن الزراعية ولذلك شهد شمال شـــبه الجزيرة العربية قيام بعض ألدويلات في العصر الجاهلي ،وسنقسم دراســـتنا لهذه الحضارات في شبه الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام جغرافية :

١- جنوب الجزيرة العربية
٢- شمال الجزيرة العربية
٣- وسط الجزيرة العربية

يذكر المؤرخون لجنوب الجزيرة العربية ثلاث دول متعاقبـــة قـــامت الواحدة منها تلو الأخرى ، وهي معين وسبأ وحمير، وسنشير باختصار إلـــى كل منها .

الدولة المعينية :

لا تتوافر لدينا معلومات كافية عن تطور الأمور في بلاد اليمن حتـــى وصلت إلى قيام الدولة المعينية ويعتقد أنها قامت خلال القرنين الثـاني والأول قبل الميلاد أي حوالي ١٣٠-٦٣٠ ق.م وظل تاريخ هذه الدولة غامضا إلـــى أن تمكن العالم الفرنسي جوزيف هاليفي من الكشف عن آثار عاصمـــة هـــذه الدولة ،ونشر ذلك في الجريدة الآسيوية عام ١٨٧٤ ،ومن بعد هاليفي جـــاءت جهود العلماء جلازر وجوش ومولـــر التـــي أوضحـــت لنـــا صـــورة هـــذه الدولة،وأظهرت لنا عددا من أسماء ملوكها كما أنها أطلعتنـــا علـــى بعـــض الألقاب الملكية عند المعينين ، ومن ثم كان نظام الحكم نظامـــا ملكيـــا ،لأن اللقب الملكي كان جائزا أن يحمله اثنان من أبناء الملك أو اخوته فـــي وقـــت السلم والحرب ،وأن الضرائب كانت مقسمة إلى ثلاثة أنواع :فهناك الضرائب التي تذهب إلى الخزانة الملكية وأخري تذهب إلى المعـــابد والأخـــيرة إلـــى المشايخ والحكام.

ويشير المؤرخون إلى اشتغال المعينين بالزراعة والتجارة وسـيطرتهم على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب ومن ثم امتداد نفوذهـــم السياســـي شمالا حتى يقال بأنه وصل إلى بلاد الحجاز .وقد استلزم اشـــتغال المعينيـــن بالتجارة معرفتهم بتدوين الحسابات والكتابة ،فاقتبســـوا الأبجديـــة الارانيـــة

لسهولة استعمالها ،ودونوا بها لغتهم ،وقد وجدت هذه الكتابات في أقاليم بعيـدة مثل مصر وبعض جزر اليابان مما يشير إلى الصلات التي ربطـت الدولـة المعينية بهذه الأقاليم .ويري الدكتور حسن إبراهيم حسـن أن نفوذهـم امتـد بفضل نشاطهم التجاري إلى الخليج الفارسي والي أعالي بلاد الحجاز مما يلي سواحل البحر الأحمر وأنهم كانوا يحملون أنواع البخور من جنوبي الجزيـرة العربية إلى الشمال مارين بأواسط الجزيرة العربية .

الدولة السبأية :

لاسم سبأ شهرة تاريخية أكبر بكثير مما حازته الدولة المعينيه السـابقة لها ومن الدولة الحميرية اللاحقة بعدها ، ويرجع ذلك إلى الإشارات الـواردة عنها في التوراة والقرآن وما يروي ملكة سبأ بالملك سليمان بـن داود وقـد اختلف المؤرخون حول تحديد أصل القبائل السبأية ،والأرجح أنهم أتوا مـن الشمال واستقروا إلى جوار المعينين في بلاد اليمن ،واشتغلوا بالزراعة،وحين تدهورت أمور المعينين استفاد السبأيون من ذلك وبدءوا في التقدم والتطـور إلى أن تمكنوا أن يستأثروا بالنفوذ والسلطان بدلا من المعينين .

وهكذا قامت الدولة السبأية في بلاد اليمن لتلعب نفس الـدور الـذي كانت تمارسه الدولة المعينية من قبل. وإذا كانت الدولة المعينية قد اعتمـدت في نشاطها على التجارة في المقام الأول فان السبأيين إلى جـانب ذلـك قـد اهتموا بالزراعة واستغلال أرض اليمن الخصبة ووفرة مياهـها ومـن هنـا استطاعت الدولة أن تنمو وتزدهر واصبح لها نفوذ واسع يمتـد مـن اليمـن جنوبا إلى نجد والحجاز الشمالية شمالا ،وسيطرت أيضا على ممرات التجـارة العالمية التي تربط جنوب شبه الجزيرة العربية ببلاد الشام ومصر .

ويري المؤرخون أن دولة سبأ مرت بحقبتين أساسيتين من التـــاريخ ،الفترة الأولي وتسمي حقبة " المكارب " وهذه الحقبة تنتهي تاريخيا في حـدود ٦٥٠ ق.م وكان الملوك خلالها يتسمون بلقب "مكرب سبأ" ويذكرون حوالـــي سبعة عشر ملكا تلقبوا بهذا الاسم وكان محفد صرواح مـــن أقـدم مبانيـــهم وحاضرتهم الأولي ويرجع الدكتور السيد عبد العزيز سالم بناء سد مأرب إلى هذه الحقبة وهو الذي حول هذه البلدة إلى جنتين عن يميـــن وشـــمال. وأول مكارب سبأ هو سمح على (٨٠٠-٧٨٠ ق .م) والذي لا يعرف عنه إلا انـــه قدم هدية من البخور إلى الاله الذي أرشد القبيلة بعد تجوالها إلى أرض فيـــها اللبن والعسل ،وقد أعقبه ابنه يدع أيل الذي بني معبدا لنفس الاله في صرواح عاصمة مأرب في ذلك العصر.

أما الفترة الثانية فإنها تبدأ حين قام آخر المكارب "كرب ايـــل وتـــر" بنبذ هذا اللقب واتخذ لقب "ملك سبأ" وأصبح بذلك أول حكام سبأ فـــي اتخـــاذ هذه التسمية.

وخلال هذه الحقبة بلغت سبأ شأوها وازداد نفوذها وثراؤهـــا وكـــان أسطولها يحمل المتاجر إلى الشمال وكان ذلك سببا في اصطدامهم بالبطالســـة الذين كانوا يرغبون أيضا في السيطرة على الممرات التجاريـــة.وفـــي هـــذه الفترة شيد السبأيون سد مأرب الذي يعتبر أكبر سد شيد في شـــبه الجزيـــرة ومن أعاجيب العالم القديم وورد ذكره في القرآن الكريم .

واذا كانت صرواح هي عاصمة السبأيين خلال الطـــور الأول فـــان مأرب قد غدت العاصمـــة خلال الطور الثاني ،وزاد من شهرتها بناء ســـدها المعروف في التاريخ باسم سد مأرب .

ثم أخذ مركز ملوك سبأ في الضعف وذلك اعتبارا من القرن الرابع قبل الميلاد وذلك بسبب المشاكل الداخلية التي تعرضت لها الدولة ،والمنافسة الخارجية التي حرمتها احتكار التجارة بين الجنوب والشمال ،وشهدت هذه الفترة تقدم الحميرين وازدياد نفوذهم حتى تمكنوا من انتزاع السيادة والسلطة من السبيأيين في حدود نهاية القرن الثاني قبل الميلاد .

الدولة الحميرية : ١١٥ ق . م - ٥٢٥ م :

سكن الحميريون أولا في منطقة من الأرض عرفت باسم قتبان ويرجعون في الأصل إلى القبائل القحطانية ،وكانوا وأقرانهم الكهلانيون يتنازعون الرياسة ويتنافسون على الملك.ويري الأستاذ جورجي زيدان أنهم فرع من السبأيين ويقول بأنهم كانوا يقيمون في ريدان قبل ذلك التاريخ بأجيال وهم إقيال أو إذواء وكبيرهم يسمي "ذوريدان" حتى سنحت لهم فرصة تغلبوا بها على إخوانهم السبأيين أو اتحدوا معهم في أواخر دولتهم فصار لقب كبيرهم "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت "ثم ملكوا غيرها وكلما ملكوا بلدا أضافوا اسمه إلى ألقابهم .

امتد حكم الدولة الحميرية من سنة ١١٥ ق.م إلى سنة ٥٢٥ م أي حوالي ٦٤٠ سنة ،ويقسمها المؤرخون إلى فترتين :

١- دولة حمير الأولي من ١١٥ ق.م -٣٠٠م
٢- دولة حمير الثانية من ٣٠٠م -٥٢٥م

ويري المؤرخون في دولة حمير دولة عسكرية علـــى العكـــس مـــن سابقتها مملكة سبأ،وذلك لقيام الحميريين بشن غارات وغزوات واسعة علـــى الأرض المجاورة لهم ،ليس فقط من شبه الجزيرة وانما امتد ذلك إلى أراضي فارس والحبشة وبعض أراضي الشام وبالغ المؤرخون القدامى في ذلك حتـــى أوصلوا حملاتهم إلى أرض الهند والصين وفارس، وخراسان وبلاد الشام.

وسيطرت الدولة الحميرية على الطريق التجاري، ووافـــق ذلـــك أن دولة البطالسة في مصر، والتي تنافس على هذه السيطرة كانت قد بدأت فـــي الانكماش نتيجة ازدياد نفوذ الرومان ومحاولتهم السيطرة على حوض البحـــر المتوسط كما أن عهد الدولة الحميرية هو الذي شهد الحملـــة التـــي أوفدهـــا الرومان لغزو الجزيرة العربية في عام ٢٤ ق.م بقيادة يوليو جالوس والتـــي منيت بفشل ذريع .

أصاب الدولة الحميرية بعض الضعف في أواخر طورها الأول لكنـــها لم تلبث أن استردت قوتها ونفوذها ، واتسع لقب ملكها في حدود ســـنة ٣٠٠م ليصبح "ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات، وأعرابها في الجبال وفـــي تهامة".

وعلي عهد الدولة الحميرية وفي طورها الثاني بدأت المســـيحية فـــي الانتشار في اليمن وهو نفس الوقت تقريبا الذي بدأت فيه هذه الديانة الانتشـــار في الحبشة وبنيت الكنائس في "عدن وظفار"كما أنه شـــهد تســـرب الديانـــة اليهودية وبدأ الصدام بين الديانتين مظهرا للصراع بين اليمن وجيرانها،وكـــان سببا في جعل بلاد اليمن موطنا لتنافس الدول الكبرى من الأحبـــاش يؤيدهـــم

البيزنطيون في مواجهة الفرس الذين تخفوا أحيانـــا خلــف بعــض الملــوك الحميرين.

ولقد أدي هذا التنافس كما سنبين إلى القضاء على الدولـــة الحميريـــة ودخول اليمن ضمن التبعية الفارسية.

الصراع الحبشي الفارسي في اليمن :

تشير كتب التاريخ إلى أن آخر ملوك اليمن الحميريين وهو ذو نـواس قد إعتنق اليهودية في الوقت الذي سادت فيه المسيحية في الحبشـــة وأجــزاء واسعة من اليمن مما جعل هذا الملك يخشى على مراده مـــن زيـــادة النفـــوذ الحبشي الذي يمكن أن يجد المساعدة عند المسيحيين اليمنييـــن، ولذلـــك فقـــد أصر ذو نواس على تهويد المسيحيين اليمنييـــن أو التخلــص منـــهم بـــالقتل والإفناء، وحفر لهم أخدودا قام بإحراقهم فيه ممـــا دفـــع بالمســـيحيين إلـــى الاستعانة بملك الحبشة لإنقاذهم من جبروت وطغيان ذي نواس الحميري .

استجاب ملك الحبشة لصراخ مسيحيي اليمن ، وساعدة قيصر الـــروم على ذلك، فأرسل إلى اليمن جيشا بقيادة ارياط تمكن من الانتصار علـــى ذي نواس والسيطرة على اليمن، ثم قام أبرهة الحبشي بالقضاء على ارياط وتولي هو حكم اليمن ،وهو الذي قام بحملته المشهورة لهدم الكعبة والتي أنجاهـــا الله من بين يديه وأرسل عليه طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل .

وظلت اليمن فترة تخضع للنفوذ الحبشي إلى أن قام أحد أفراد البيـــت الحميري بالاستغاثة بكسري فارس الذي أمده بجيش كبير تحت قيادة وهـــرز

سنة ٥٧٥م وتمكن هذا القائد الفارسي ومعه سيف بن ذي يزن من الانتصار على الأحباش وطردهم من البلاد.

وحين تم القضاء على الأحباش أمر كسري أن يتوج سيف بن ذي يزن ملكا على اليمن وظل الحكم مشتركا بين الفرس واليمنيين إلى أن استفرد الفرس بذلك لأهميتها التجارية وليمنعوا بيزنطة من الاستيلاء عليها ،وقام الفرس بتعيين حاكم فارسي مباشرة ، وكان آخر ولاتهم باذان الذي عاصر النبي صلي الله عليه وسلم ودخل معه بلاد اليمن في الإسلام.

ويري كثير من المؤرخين أن سلطان الفرس ظل منحصرا في عاصمة البلاد صنعاء فقط ، وأن اليمن تفرقت إلى قبائل تتمتع بالنفوذ والسيطرة على أرضها ،وأنها أصبحت كبقية قبائل العرب في صراع فيما بينها ،بحيث أنه أصبح لها أسواقها التي تعمل على أن تأمن فيها على دمائها وأموالها كما في بقية أنحاء بلاد العرب

النزاع على اليمن بين أبرهة و أرياط

ما كان بين أرياط وأبرهة:

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرطبي ، وبعض أهل نجران في أمر الحبشة باليمن بين أبرهة الحبشي وارياط حين تفرقت عليهما ، فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ،ثم سار أحدهما إلى الآخر ، فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط .أنك لا تصنع بأن تلقي الحبشة بعضها ببعض ،حتى تفنيها شيئا ،فأبرز إلى و أبرز إليك ، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده ،فأرسل إليه أرياط :أنصفت فخرج إليه ابرهة ،وكان

رجلا قصيرا لحيما، وكان ذا دين في النصرانية وخرج إليه أريـــاط وكـــان رجلا جميلا عظيما طويلا ، وفي يده حربه له وخلف أبرهة غلام له، يقـــال له: عتودة، يمنع ظهره ،فرفع أرياط الحربة، فضرب أبرهة يريـــد يافوخـــة، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة .فشرمت حاجبه وانفه وعينه وشفته فبذلـــك سمي : أبرهة الأشرم ،وحمل عتـــودة علـــى أريـــاط مـــن خلـــف أبرهـــة فقتله،وانصرف جند أرياط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليـــه الحبشـــة بـــاليمن ، وودي أبرهة أرياط .

غضب النجاشي على أبرهة :

فلما بلغ ذلك النجاشي غضب غضبا شديدا وقال : عدا على أمـيري ، فقتله بغير أمري ثم حلف : لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ، ويجز ناصيتـــه . فحلق أبرهة رأسه وملأ جرابا من تراب اليمن، ثم بعث به إلى النجاشي، ثـــم كتب إليه :

"أيها الملك ، إنما كان أرياط عبدك ، وأنا عبدك .فاختلفنا في أمـوك ، وكل طاعته لك، ألا أني كنت اقوى على أمر الحبشة ،وأضبط لها ، وأسـوس منه ، وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسـم الملك ، وبعثـت إليه بجـراب تراب من أرضي . ليضعه تحت قدميه ، فيبر قسمه في". فلنا انتـــهي ذلـك النجاشي رضي عنه ،وكتب إليه : أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمـري ، فأقام أبرهة باليمن .

سبب بناء "القليس" أو كنيسة أبرهة :

ثم أن أبرهة بني القليس بصنعاء ، فبني كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشئ من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشي : أني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، لست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب ، فلما تحدثت للعرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي ، غضب رجل من النسأة ، أحد بني فقيم بن عدي بن عامر ابن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن اليأس بن مضر .

النسأة :

الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية ،فيحلون الشهر من الأشهر الحرم،ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل، ليواطئوا عدة ما حرم الله ويؤخرون ذلك الشهر ففيه أنزل الله تبارك وتعالي : "إنما النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله " سورة التوبة الآية ٣٧.

أول من ابتدع النسئ عند العرب :

قال ابن إسحاق :وكان أول من نسأ الشهور على العرب ، فأحلت منها أحل وحرمت منها ما حرم القلمس ،وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر ابن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد بن حذيفة ، ثم قام بعد عباد ، قلع بن عباد ثم قام بعد قلع : أمية بن قلع ، ثم قام بعد أمية : عوف بن أمية ، ثم قام بعد عوف : أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ،وكانت العرب إذا فرغت

من حجها اجتمعت إليه ، فحرم الأشهر الأربعة : رجبـا – وذا القعـدة ، وذا الحجة والمحرم ، فإذا أراد أن يحل شيئا أحل المحرم فأحلوه وحـرم مكانـه صفر فحرموه ،ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم ، فإذا أرادوا الصدر قـام فيهم فقال :" اللهم أني قد أحللت لك أحد جذل الطعان ،أحد بني فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة،يفخر بالنسأة على العرب .

لقد علمت معد أن قومي	كرام الناس أن لهم كراما
فأي الناس فأتونـا بوتر	وأي الناس لم نعلك لجاما
السنا الناسئين على معد	شهور الحل نجعلها حراما؟

أحداث الكناني في القليس وحملة أبرهة على الكعبة :

قال ابن إسحاق :فخرج الكناني حتى أتي القليس فقعد فيها – قال ابـن هشام يعني أحدث فيها – قال ابن إسحاق : ثم خرج فلحق بأرضـه ، فـأخبر بذلك أبرهة فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : صنع هذا رجل من العرب مـن أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة لما سمع قولك :" اصرف إليها حج العرب " غضب فجاء فقعد فيها ، أي أنها ليست لذلك بأهل .

خروج أبرهة لهدم الكعبة:

فغضب عند ذلك ابرهة وحلف :ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه ، ثـم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسـمعت بذلـك والعرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم حين سمعوا بأنه يريـد هدم الكعبة بيت الله الحرام .

ذو نفر يدافع عن البيت ويهزمه أبرهة :

فخرج إليه رجل من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له :ذو نفـــر ، فدعا قومه، ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، جهادا عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه، فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عــرض له فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ له ذو نفر، فأتي به أسيرا، فلمــا أراد قتله قال له ذو نفر: أيها الملك، لا تقتلني فإنه عسى أن يكــون بقــائي معــك خيرا لك من قتلي، فتركه من القتل، وحبسه عنده في وثاق،وكان أبرهة رجـلا حليما.

خثعم تجاهد أبرهة بقيادة نفيل الخثعمي :

ثم مضي أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتــى إذا كــان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلي خثعــم : شــهران وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة ،وأخذ لــه نفيــل أسيرا ، فأتي به فلما هم بقله قال له نفيل أيها الملك ، لا تقتلني فــاني دليلــك بأرض العرب ، وهاتان يداي لك على قبيلي خثعم و شهوان وناهس بالســمع والطاعة ، فخلي سبيله .

وخرج به معه يدله ، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مســعود بــن معتب بن مالك ابن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف فــي رجــال ثقيف .

استسلام ثقيف لأبرهة:

قال ابن إسحاق : فقالوا له :أيها الملك ، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لكم خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريــده -يعنــون

اللات – إنما تريد البيت الذي بمكة ،ونحن نبعث معك من يدلك عليه ،فتجاوز عنهم .

واللات : بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة.

قال ابن هشام : أنشدني أبو عبيدة النحوي لضرار بن الخطاب الفهري :

وفرت ثقيف إلى لاتها بمنقلب الجانب الخاسر

وهذا البيت في أبيات له :

أبو رغال ورجم قبره : قال ابن إسحاق فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس ،فلما أنزله به مات أبو رغال هناك ،فرجمت قبره العرب ،فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس .

عدوان الأسود بن مقصود على الكعبة:

فلما نزل أبرهة المغمس ، بعث رجلا من الحبشة يقال له : الأسود بن مقصود على خيل له ، حتى انتهي إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم،وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ،فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا ضاقة لهم به، فتركوا ذلك .

رسول أبرهة إلى عبد المطلب :

وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وقال له : سل عن سيد أهل البلد وشريفها، ثم قل له : إن الملك يقول لك :إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعترضوا دونه بحرب ، فلا حاجة لي بدمائكم ، فإن هو لم يرد حربي فأتني به ، فلما دخل حناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له عبد المطلب ابن هاشم ،فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة،

فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم – عليه السلام – أو كما قال – فإن يمنعه منه ،فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه ، فو الله ما عندنا نفع عنه ، فقال له حناطة: فإنطلق معي إليه ، فإنه قد أمرني أن آتيه بك .

الشافعون لعبد المطلب عند أبرهة:

فانطلق معه عبد المطلب ،ومعه بعض بنيه ، حتى أتي العسكر فسأله عن ذي نفر ،وكان له صديقا ، حتى دخل عليه وهو في محبسه ، فقال له : يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدوا أو عشيا ؟ما عندنا غناء في شئ مما نزل بك ، إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لي ،وسأرسل إليه فأوصيه بك ، وأعظم على حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك ، فتملكه بما بدا لك ،ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك .فقال : حسبي فبعث ذو نفر إلى أنيس ، فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش. وصاحب عير مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رءوس الجبال وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن عليه ،وانفعه عنده بما استطعت، فقال : أفعل .

فكلم أنيس أبرهة ، فقال له : أيها الملك : هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة ، وهو يطعم الناس في السهل ، والوحوش في رءوس الجبال ، فأذن له عليك فيكلمك في حاجته ، قال : فأذن له أبرهة.

الإبل لي والبيت له رب يحميه :

قال : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه: قل له : حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان :فقال حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي ، فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه . قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ،وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ، لا تكلمني فيه . قال له عبد المطلب :إني أنا رب الإبل وأن للبيت ربا سيمنعه،قال :ما كان ليمتنع مني ، قال : أنت وذاك .

الوفد المرافق لعبد المطلب :

وكان – فيما يزعم بعض أهل العلم – قد ذهب مع عبد المطلب إلى ابرهة ، حين بعث إليه حناطة ، يعمر بن نفاثة بن عدى بن الدائل بن بكر بن مناة بن كنانة – وهو يومئذ سيد بنى بكر وخويلد بن وائلة الهذلى – وهو يومئذ سيد هذيل فعرضوا على ابرهة ثلث أموال تهامة على ان يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم – والله أعلم أكان ذلك أم لا ، فرد ابرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له .

عبد المطلب ونفر من قريش تستنصر بالله على ابرهة :

فلما انصرفوا عنه ، انصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة ، وألتحرز في شعف الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرة الجيش ، ثم قام عبد المطلب ، فأخذ بحلقة باب الكعبة

وقام معه نفر من قريش يدعون الله ، ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقـال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

اللاهـم أن العبـد يـمـ نع رحله فأمنع حلالك
لا يغلبـن صليبهـم ومحالهم غدوا محالك
ان كنت تاركهم وقبـ ـلتنا فأمر ما بدا لك

قال ابن هشام : هذا ما صح له منا .

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومـن معه من قريش إلى شعب الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكـة إذا دخلها .

أبرهة يهاجم وما وقع له ولفيله :

فما اصح ابرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ، وعبئ جيشه – وكـان اسم الفيل محمودا ، وابرهة مجمع لهدم البيت ، ثم الانصراف إلـى اليمـن ، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب النيل ثم اخـذ بأذنه، فقال : ابرك محمود ، أو ارجع راشدا من حيث جئت ، فانك في بلـد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل ، وخرج نفيل بن حبيب يشـتد حتـى اصعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا في رأسه بـالطبرزين، ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهم في مراقة فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجـهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجـهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك .

فأرسل الله تعالى عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسـان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقـاره ، وحجـران فـي

رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك – وليس كلهم أصابت – وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ، ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك عل كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم تسقط أنامله أنملة أنملة : كلما سقطت أنملة ، أتبعها منه مدة تمث قيحا ودما ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق : حدثني يعقوب بن عتبه أنه حدث : ان أول مارؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام ، وانه أول ما رؤى بها مرائر الشجر : الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام .

ذكر قصة الفيل من القرآن :

قال ابن إسحاق : فلما بعث الله تعالى محمدا – صلى الله عليه وسلم – كان مما يعد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال الله تبارك وتعالى : " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول " .وقال :" لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " أي لئلا يغير شيئا من حالهم التي كانوا عليها لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه .

ممالك شمال شبه الجزيرة

لاشك أن تخوم جزيرة العرب الشمالية وما حباها الله سبحانه من وفرة في الماء وقرب من مصادر الأنهار في بلاد العراق وبلاد الشام جعل منها محطا لرحال كثير من القبائل العربية التي تعانى نقصا في الخيرات داخل شبه الجز يره ، ومن ثم فليس من المستغرب إقامة بعض القبائل العربية في هذه الأماكن .

وجاء حادث انهيار سد مأرب ببلاد اليمن ليحمل عددا من القبائل الجنوبية إلى الهجرة من مواطنها في اليمن لتبحث لهل عن مقر وموطن في باقي أنحاء ارض الجزيرة العربية و منها من استقر مع غيره عند تلك المشارف الشمالية للجز يره العربية لكي يستفيد من مصادر المياه الموجودة في هذه المناطق.

ولقد سبق لنا القول بان توفر مصادر المياه تعنى الاستقرار كما تعني بداية وجود العلاقات بين الناس و التي تتطور حتى تصل إلى إقامة الدولة أو ألد ويله و بالإضافة إلى ذلك كان هناك عوامل أخرى ساهمت في أن يشهد شمال شبه الجزيرة قيام أربع دويلات هي : الأنباط ، تدمر ، الحيرة ، الغساسنه .

دولة الأنباط :

استقر الأنباط جنوبي سوريا وشمال الحجاز ، وتعتبر منطقة وأدي موسى شرقي الأردن بما تميزت به من وفرة المياه وكثرة الآبار ، منطقة

متميزة لرحال القوافل التجارية ، ونجح الأنباط في اقامة دولة صغيرة لكنها قوية تسيطر على طرق القوافل والتجارة المارة بالمنطقة .

اتخذ الأنباط من البتراء عاصمة لهم والتى سرعان ما تحولت لتصبح في القرن الاول قبل الميلاد من اهم مراكز التجارة القادمة من الجزيرة العربية وجنوبها والمتجهة إلى موانى البحر المتوسط مرورا ببلاد الشام .

حاول الأنباط الحفاظ على دولتهم في مواجهة القوى الكبرى المحيطة بهم فعملوا على التودد إلى الاشوريين ، كما انهم تصدوا لحملة الاسكندر الاكبر . وسرعان ما وقعت بلاد الأنباط فريسة للصراع الذي قام بين السلوقيين في الشام والبطالسة في مصر ، فقد حاول سلوقس قطع التجارة عن مصر فعمل على احتلال بلاد الأنباط ، وارسل حملة مكونة من ٤٠٠٠ راجل و ٦٠٠ فارس ، واكنها شتت ولم تحقق نجاحا فارسل السلوقيون حملة أخرى فتحصن منها الأنباط في الجبال والصحارى وانتهى الأمر باسترضاء السلوقيين على ان يدفع لهم الأنباط نوعا من الجزية .

وجاء دور البطالسه في مصر وادراكهم لاهمية بلاد الأنباط واثرها على التجارة الخارجية لكنهم في نفس الوقت كانوا يدركون المصاعب التي تمنع الاستيلاء على هذه البلاد وخاصة ان اعينهم كانت على تجربة السلوقيين .

عمد البطالسه إلى حل وسط وهو أن يتركوا لبلاد الأنباط استقلالها في نفس الوقت يضمنون ولاءها وخضوعها غير المباشر فاستولوا على المدن الفينيقية و الفلسطينية التي كانت تنتهى عندها القوافل التجارية ، كما

قاموا بالاستيلاء على شمال الحجاز ، وانشاوا في الاردن عند اطراف بـــلاد الأنباط عدة مستعمرات يونانية ، وبذلك احاطوا ببلاد الأنباط وهيمنوا علـــى منافذ الطرق التجارية [1]. والى جانب هذا شجع البطالســـة تجـارة البحـر الاحمر ، وانشاوا على سواحله المصرية الموانئ والمحطات والطرق الامـر الذي ادى إلى اضعاف التجارة البرية المارة ببلاد الأنباط مما دفع بهؤلاء إلـى اللجوء إلى اعمال قرصنة في البحر الاحمر بفرض عرقلة التجارة فيه لكـــن ذلك لا يمنع من تسرب الضعف إلى بلاد الأنباط وبدء انهيارها .

دخل الأنباط اخيرا في صراع مع الرومـــان الذيـــن ظـــهروا علـــى المسرح السياسي في الشرق مع نهاية القرن الاول قبل الميلاد وانتهى الامـر بقيام الامبراطور تراجان الروماني عام ١٠٦ م بارسال حملة علـــى البـتراء امكنها على الاستيلاء على المدينة والقضاء نهائيا على دولة الأنباط وتحويلـها إلى جزء من المقاطعة العربية الخاضعة لروما والتى انشاها الرومـــان فـي الطرف الجنوبي من سوريا لتحميها من هجمات بـــدو الجزيـرة العربيــة ، واتخذوا من مدينة بصرى بالشام عاصمة لها ، وتحول اليها طريق التجـارة ، واختفت البتراء وحضارتها بصورة شبه نهائية .

واول ملوك الأنباط الذين يمكن ان نطمئن إلى ما جـــاء عنـــهم فـي المصادر التاريخية هو الحارث الاول ١٦٩ - ١٤٩ ق.م. وكـــان معـاصرا لانطيوخس الرابع السلوقي ملك سوريا ، وبطليموس فيلوماتر ملك مصر .

---

[1] صالح العلي : المصدر السابق ص ٣٩ .

ومن اشهر ملوك الأنباط الحارث الثانى الذي تولى الحكم فيمـــا بيـــن ١١٠ – ٩٦ ق.م. وفى عهدة وصلت بلاده إلى درجة عالية من القوة مكنتـــها من التدخل في شئون فلسطين والقيام بدور اساسي في حياة المكابيين .

وياتي الحارث الثالث ٨٧ – ٦٢ ق.م. الذي استطاع ان يكسر اليـهود في عدة مواقع ويحاصر القدس ، ثم استنجد به أهل دمشق وطلبـــوا منـــه ان يتولي امرهم بدل السلوقي وقد نجح الحارث في فرض سيطرته على هــذه البلاد كما نجح في التصدى للقائد الروماني الشهير بومبي .

حضارةالانباط :

اهتم المؤرخون كثيرا بتحديد ماهية الحضاره النبطيه فيناقش الاســتاذ جورجى زيدان مسالة عروبتهم ولغتهم ودينهم ويتلخص من ذلك إلـــى انـــهم عرب جنسا و لغة وذلك :

أ) لان مؤرخي اليونان اطلقوا عليهم هذه التسمية اينما وجدوهم .
ب) ان لسانهم الذي كانوا يتفاهمون به فانه عربى مثل اسمائهم . [٢]

اما الاستاذ الدكتور سيد عبد العزيز سالم فينقل راى المؤرخ اللبنـــانى فيليب حتى بان هذه الحضاره حضاره مركبه ، فهى عربيه في لغتها وارامـيـــة في كتابتها وسامية في ديانتها ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعماريـــــة ،ولكنها مع كل ذلك عربيه في جوهرها .[٣]

---

[٢] جورجى زيدان: العرب قبل الاسلام صفحة ٩٢-٩٣
[٣] عبد العزيز سالم: العرب قبل الاسلام ص١٨٩

وحضارة الأنباط في المقام الاول حضارة تجاريـــة ، لعــب موقــع البتراء فيها دورا هاما لانها كانت على الطريق التجـــارى مـــا بيـــن غــزة وبصرى وما بين دمشق والابله ، وتشير الدلائل إلى امتداد النشاط التجـــاري للانباط إلى مناطق بعيدة حيث وجـــدت بعــض كتاباتـــهم فـــي ســـلوقيه و الاسكندريه ورودس وميلتوس وفى الموانى السوريه وعند مصب الفـــرات ، وكانت اهم السلع هى العطور والطيـــب والمنســـوجات الحريريـــه واللالـــئ والذهب والفضة .

اما الديانة التي مارسها الأنباط فكانت الاصنام و بعـــض الكواكـــب مثلهم في ذلك مثل باقى العرب في وسط شبه الجزيره و شمالها .

وان كان ذلك لا يعنى عدم تاثر الأنبـــاط تـــاثرا كبـــيرا بالحضـــاره الهللينيه والتى شجعها جدا الحارث الثالث الذي سك النقـــود علـــى الطـــراز الهيللينى ، واخذ العيار البطليموسى للعمله ، و جـــاء بمعمـــاريين ســـوريين شادوا له الكثير من المنشات .

مملكة تدمر :

مدينة تدمر - في ارض سوريا حاليا - مدينه عربية احتلـــت مكانـــا هاما على الطريق التجارى مابين دمشق و الفرات و أصبحت مركزا ها مـــا للقوافل التجا ريه التىكانت تجوب المنطقة ما بين الشام و العـــراق ، وورد

اسمها في الكتابات اليونانيه و نسب بناؤها إلى الملـك سـليمان .[٤] أو إلـى شخصيه خرافية عربيه هي تدمر بنت حسان بن ادينه بن السميدع.[٥]

نشات تدمر في بادية الشام حول نبع ماء يقع في منتصـف المسـافة تقريبا بين الفرات من جهة وبين دمشق وحمص من جهة اخرى ، وهو يبعـد حوالى ١٥٠ ميلا عن كل منهما .وقد اصبحت محطة للقوافل المـارة بيـن العراق والشام ولا نعلم على وجة التحديد منشاها ، فاسـمها عنـد اليونـان والرومان palmyre وهى كلمه معناها نخيل التمر .

ومن المحتمل ان المدينة نشات منذ اقدم الازمان من استقرار بعـض البدو في الواحة التي تكونت حول نبع الماء ، وصارت محطة للقوافل . وقـد ورد ذكرها في نقوش تغلات فلاسي التي دون فيها أخبـار حملتـه ضـد العموريين في سنة ١١٥ ق . م . كما ذكـر ملالامـس أن التدمـيريين ساعدوا نبوخد نصر في هجومه على القدس أمـدوه بـ ٨٠٠٠ مـن رماة النبال[٦].

وظلت المدينة محتفظة بمكانتها الطيبة في عـهد السـلوقيين الذيـن حكموا بلاد الشام وشجعوا الطريق التجاري الذي كان يمر بـالعراق وتدمـر منافسين بذلك حكام مصر الذين بذلوا جهدهم لتمر تجارة الهند بالبحر الأحمـو ومن ثم بمصر .

---

[٤] البكرى: معجم ما استعجم ج١ ص٣٠٦ .

[٥] د.عبد العزيز سالم: المصدر المشار اليه ص١٧١-١٧٣ .

[٦] صالح العلي : المصدر السابق ص ٤٦ .

تأرجح تاريخ هذه المملكـــة بيـــن الاســـتقلال الذاتـــي أو الخضـــوع للامبراطوريه الرومانية ، و تأثر هذا التـــاريخ أيضـــا بـــالصراع الدائـــر حينذاك بين الرومان و الفرس .

واشهر شخصيات هذه المدينة هو الملك اذينة من السميدع الذي منحة الرومان لقب Dux Oriesit على الجهود التي بذلـــها إلـــى جـــانب الرومان حين تغلب عليهم الملك سابور الاول الفارسي .

تمكن اذينة من توسيع سلطة مدينته فاستولى على الرها ونصيبيـــن ، وحاول الاستيلاء على طيسفون وغيرها حتى يتمكن من تامين السيطرة علـــى الطرق التجارية العاملة بين الهند فالعراق ثم البحر المتوسط لكنه قتـــل فـــي حمص نتيجة مؤامرة يقال انه اشرف على تدبيرها ابن اخيـــه ، ولا يســـتبعد المؤرخون تورط الرومان في هذه المؤامرة لاحساسهم بخطره الاكيـــد علـــى ممتلكاتهم في الشام و مصر ، ولقد كان ارجل حاكما قديرا ، احترمـــه اهـــل تدمر لما كان يتمتع به من سمات وصفات الحاكم الكبير .

انتقلت السلطة بعد ذلك إلى ابنه الثانى والذى كان يحمل نفـــس اســـم والده اذينة، و على عهده وصلت تدمر إلى مكانة عاليه جدا ، و اصبح ســـيد الشرق الرومانى ، و امتدت سلطته على سوريا و ما يليـــها و لقـــب " ملـــك الملوك " (٧) و اشترك في القتال ضد الفرس ، و انتصر عليـــهم ممـــا جعـــل

---

[٧] المصدر السابق ص١٠٠

الامبراطورية تكافئه بلقب " امبراطور على جميع بلاد الشرق " كما منحـــه مجلس الشيوخ الروماني لقب " أغسطس" .[8]

و الشخصية الاسطوريه التي ارتبط اسمها باسم هـذه المدينــة هـي شخصيه الملكة زنوبيا او الزباء ، والتي كانت زوجة الملك أذينه ، و اليـــها ينسب بناء المدينه كما يقول البكرى [9]

وهى من الشخصيات النسائية البارزة في تاريخ الشرق القديـم فـهى سورية الاصل تزوجها الملك ازينة ، ولما قتل اصبحت الواصية علـى ابنـه وهب اللات ، وامسكت بزمام الحكم في تدمـــر ، وكــانت تتقـن الاراميـة والاغريقية واللاتينية ، وترعى العلوم والآداب فعاش فـي بلاطـها فلاسـفة وعلماء إغريق و فرس ، وحاولت ان تقلد ما في البلاط الساسانى من فخفخـة وعز واناقة وجمال ، كما كانت تحب الصيد وركوب الخيل .

وتتفق الكتب التاريخية على ان الملكـــة زنوبيـــا اســتغلت انشــغال الرومان بالمشاكل الداخلية والحروب مع الفرس لتوسع مملكاتها فعمدت كمـا يقال إلى غزو مصر وبسط سيطرتها على بلاد الشــام ، والاسـتيلاء علـى تجارة البحر المتوسط ثم اعلنت نفسها امبراطورة مسـتقلة عـن الرومـان ، لكنها فشلت في غزو مصر فاتجهت إلى اسيا الصغرى مما اضطر الرومـان إلى مهادنتها بعض الوقت لكنهم عـادوا فجـردوا عليـها جيوشـا جـرارة

---

[8] عبد العزيز سالم: المصدر السابق ص١٧٨

[9] يقول البكري نقلا عن المهمدانى: كانت الزباء الملكة تصيف بتدمر وتتربع بالنخار. قال: وسميت بتدمر بنت حسان بن أذنيه، وهى بنتها وسمتها باسمها وفيها قبرها ، وانما سكنها سليمان بعدها. انظر معجم ما استعجم ج١ ص٣٠٧.

فاضطرت إلى الانسحاب إلى حمص ومنها إلى تدمر حيث وقعت اسيرة فـــي ايدى الرومان ، ونالت نهاية ماساوية حيكت حولها الاســـاطير ، واصبحـــت الملكة زونوبيا بطلة للقصص العربي ، ولعب الخيال دورا كبيرا في صباغـــة ماساة نهاية حياتها وهناك امثال شعبية من اقوالها ومنـــها " بيـــدى لا بيـــد عمرو " وايضا " اه لو يطاع لقصير امر " .

الحضارة التدمرية :

على الرغم من اختلاف المؤرخين في اصل التدمرين الا انهم يكـادوا أن يجمعوا على نسبتهم إلى العرب ، و أن الحضارة التدمريه حضاره عربيـه على الرغم من مظاهرها الارامية. وحيث أن تدمر كانت مركزا تجاريا هامـا فإنها قد تأثرت بكثير من مظاهر حضارة الشعوب المجاوره، ويقـــول عنـــها الدكتور السيد عبد العزيز سالم : كانت الحضـــارة التدمريـــه خليطـــا مـــن عناصر سورية و يونانية وفارسية على الرغم من أن التدمريين كانوا مـــن قبائل عربية .[١٠]

تشكل المجتمع في تدمر من عناصر كثيرة متنوعة فضمت إلى جانب سكانها العرب أعداداً كبيرة من الفرس والإغريق والعبيد المحررين، كما كان هناك بعض الرومان إلى جانب أعداد من التجار الذين يقيمون فـــي المدينـــة. وكانت كل من هذه الجاليات تقيم في فنادق خاصة، ولكل فندق رئيس يشـــرف على شئون هذه الجالية.

---

[١٠] عبد العزيز سالم : العرب قبل الإسلام ص ١٨٩ .

ولقد تأثرت أذواقهم وألبستهم وفنونهم بالمؤثرات الخارجية، علاوة على أنهم عبدوا آلهة متعددة -كان أعظمها الإله بعل- وبعل سمين أي بعل السماء والإله برحيل إله القمر، ولذلك تمتع رجال الدين بمكانه خاصة في مجتمع التدمريين.

لا تزال آثار بقايا تدمر بين دمشق والفرات، وأبرز هذه الآثار معبد بعل وهو مقام على مرتفع على الأرض أماه قوس هائل وطريق عريض طوله في حوالي ١٢٤٠ ياردة وعلى جوانبه ٣٧٥ عموداً طول كل منها ٥٥ قدماً، ولا يزال قائماً منها ١٥ عموداً منحوتا معظمها من المرمر الأبيض، وبعضها من الجرانيت السماقي. وكانت هذه مرتبطة ببعضها إلى جانب الطريق الرئيسي والذي تتفرع منه الطرق الجانبية[١١].

اشتغل التدمريون بالتجارة في المقام الأول لكنهم لم يعدموا نوعاً من الزراعة التي قامت على مياه الآبار، والأمطار والسيول التي استخدمت السدود للاستفادة منها ما أمكن.

ولقد كشفت النقوش عن أنواع من الضرائب والمكوس التي كانت تفرض على البضائع الواردة إلى تدمر والمارة بها، وأهم هذه البضائع هي الأنسجة الصوفية، وصبغ الأرجوان والحرير والزجاج والعطور وزيت الزيتون والفواكه المجففة كالتين والجوز والجبن وغير ذلك، مما يدلنا على اتساع تجارة تدمر لتشمل منتجات دول بعيدة كالصين والهند وبابل والمدن الفينيقية وبلاد العرب الداخلية وغيرها.

---

[١١] صالح العلي – المصدر السابق ص ٥٣.

مملكة الحيرة :

تقع الحيرة بالقرب من نهر الفرات من الناحية الغربية وتفصل ارض العراق عن بادية شمال شبه الجزيره ، وهى مكان ممتاز ، وصفه البكرى في كتابه " معجم ما استعجم " فقال : " وكان مكان الحيرة من اطيب البلاد وارقه هواء ، واخفه ماء ، واعدله تربه ، واصفاه جوا ، قد تعالى من عمق الارياف واتضع عن حزونه الغائط ، واتصل بالمزارع والجنان والمتاجر العظام ، لانها كانت من ظهر البريه على مرفا سفن البحر من الصين والهند"[١٢].

اما سبب تسميتها بهذا الاسم فهناك خلاف كبير على ذلك ، ويذكر البكري انه لما سار تبع ابو بكر في غزوته الثانية ، فلما اتى موضع الحيرة خلف هناك مالك بن فهيم بن دوس على اثقاله .

وتخلف معه من ثقل من اصحابه في نحو اثنى عشر الفا وقال تخيروا هذا الموضع بالحيره ، فمالك اول ملوك الحيرة وابوهم وكانوا يملكون ما بين الحيرة و الانبار وهيت ونواحيه[١٣].

وينقسم تاريخ مملكة الحيرة إلى قسمين رئيسيين هما فترة الملوك التنوخيين والثانيه فترة الملوك المناذرة .

---

[١٢] البكري المصدر السابق : ص ٩ ق ٤ – ص ٤٧٦ .

[١٣] البكري المصدر المشار إليه : ص٨ق٤ – ٦ق٤ – ص٤٧٨ – ٤٧٦ .

ويبدا حكم التنوخيين بتولى مالك بن فهيم [١٤]امور العرب فـــي هــذه المنطقة ، و من اشهر ملوكهم جذيمة الابرش ، وينسب الاخباريون تلــك القصة المشهورة مع الملكه الزباء ملكة تدمر [١٥].

ولقد لعبت الحيرة دورا تاريخيا هاما إلى جانب الفرس الذين جعلـــوا منها " امارة حاجزة " تحميهم من غارات الاعراب و الرومـــان كمـــا انـــها استعملتها في تنفيذ اغراضها من تهديد العرب انصار الرومـــان والرومـــان انفسهم[١٦].

وبعد مقتل جذيمه تولى امر عرب هذه المنطقة عمرو بن عدى واليه ينسب الامراء المناذرة واللخميين ، واليه يرجع الفضل في النهوض بالحيرة.

وقد اتبع عمرو بن عدي سياسة جذيمة الأبرش في الانضمـــام إلـــى جانب الساسانيين فأصبح أكبر أمير عربي بجانب الفرس، وبسط نفوذه علـــى جميع عرب العراق، واتخذ مقراً له مدينة الحـــيرة والتـــي أصبحـــت مقـــراً للأمراء المناذرة، وكان لموقع المدينة الهام تأثيره في المجـــالات العســـكرية والاقتصادية لأنها تتحكم في الطريق التجاري بيـــن الصحـــراء وطيفســـون والطريق النهري المار في نهر الفرات.

---

[١٤] اليعقوبى : تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٦٩ .

[١٥] المصدر السابق : ص ١٦٩ و انظر أيضا الكامل بن الأثير ج ١ ص ق١٩ – ٢٠١ .

[١٦] سهام مصطفي : رسالة الاسلام و العالم القديم ص ٢٠٤ .

وقد أعقب عمرو بن عدي ابنه امرؤ القيس ٢٨٨-٣٢٨م الذي استفاد من الصراع الفارسي الروماني واضطراب الأحوال في دولتيهما فعمل على توسيع نفوذه وزيادة سلطاته، فبسط إرادته على القبائل العربية في بادية الشام والجزيرة حتى اصبح ملك العرب كلهم، الذي تقلد التاج، وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهزم مذهج إلى اليوم، وقاد الظفر إلى أسوار نجران ومدينة شمر وأخضع معدا واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم[١٧].

وبعد أمرؤ القيس حكم الحيرة عدة ملوك حتى وصل الحكم إلى النعمان الأعور الذي كون جيشاً قوياً نظمه على الأسس العسكرية الساسانية ومال بثقله إلى جانب الفرس، وقبل في بلاده بحامية كبيرة منهم مما أعانه على بسط سيادته على القبائل العربية.

وقد اهتم النعمان بالبناء اهتماماً لا مزيد عليه فبنى عدداً من القصور الفخمة، والتي ارتبط بها كثير من الأساطير وغدت اسما في الأمثال الشعبية ومنها "جزاء سنمار"، ومن أشهر هذه القصور الخورنق الذي لا يرى له مثيلاً، وقد قتل المهندس الذي اشرف على بنائه حتى لا يبني مثيلاً له في مكان آخر فكان أسوأ جزاء حتى غدا مثلاً في التاريخ لناكر الجميل وينسب إلى النعمان أيضاً بناء قصر السرير وهو لا يقل شأناً عن قصر الخورنق، كما ينسب إلى عهده تسرب الديانة المسيحية إلى إمارة الحيرة، بل يورد

---

[١٧] صالح العلي – المصدر السابق ص ٦٧.

المؤرخون قصصاً مختلفة حول اعتناق النعمان نفسه لهذه الديانة وإن شـــكك الدكتور السيد عبد العزيز سالم في مثل هذه الروايات[18].

وبعد وفاة النعمان تولى الحيرة عدد من الأمراء والملوك كـــان مـــن أبرزهم المنذر بن ماء السماء ٥١٤ - ٥٣٦ م والذي عاصر قباذ وساعده فـي حروبه الأولى ضد البيزنطيين ولكن العلاقة ساءت بينهما فترة من الزمن ثـم عادت إلى الصفاء وساهم المنذر بن ماء السماء في الحروب التي وقعت بيـن الساسانيين والبيزنطيين، كما أنه اشتبك مع الحارث بن جبلة أمير الغساســنة في عدة حروب انكسر في أولها ولكنه ثأر لنفسه وأعاد الهجوم على الغساسنة فانتصر عليهم وأسر منهم عدداً كبيراً، وقد قتل المنذر في هذا الصراع وتـلاه ابنه عمرو بن هند، وكان ملكاً طموحاً قوي الشكيمة، عدواً كبيراً للبـيزنطيين، بسط سلطانه على الكثيرين من عرب جزيرة العرب، وقد قصده عـــدد مـن الشعراء الجاهليين كطرفة والأعشى ومدحوه بقصائد عدة، لكنه قتل على يـد الشاعر عمرو بن كلثوم الذي لم يتحمل -فيما يقال- إهانة عمرو بن هند لأمـه وقد قال في ذل الشاعر عمرو بن كلثوم قصيدة خالدة في عزة النفس مطلعها:

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

حتى يصل إلى قوله:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

---

[18] عبد العزيز سالم - المرجع السابق ص ٢٣٦.

وكان من أبرز من جاء بعده أخوه النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبياني وكان ملكه فخماً وبلاطه رائعاً على ما صورته لنا أشعار شعراء العرب الجاهليين.

امتد سلطان النعمان على كثير من القبائل العربية سواء في البحرين أو في مناطق حائل وجبال طي.

ساءت العلاقات بين النعمان بن المنذر والملك الساساني كسرى لأسباب كثيرة يختلف المؤرخون في ذكرها، انتهت بتمكن كسرى من النعمان وقتله.

وكان النعمان قبل ذهابه إلى كسرى قد اودع هانى بن مسعود الشيباني اهله و امواله وبعد مقتله طالب كسرى هانى بن مسعود باموال النعمان فرفض فجرد كسرى حمله لتاديب العرب الذين تكاتفوا لاول مرة حول قوميتهم وتمكنوا من ايقاع هزيمة قاسية بالفرس في موقعة تاريخية خالدة هى " يوم ذى قار " علق رسول الله – صلي الله عليه و سلم - بقوله:"اليوم انتصف العرب من العجم و بى انتصروا " [١٩] .

---

[١٩] انظر تفاصيل علاقة النعمان بكسري و اخبار يوم ذى قار وفرحة العرب بهذا اليوم و اشعارهم فيه في المراجع الاتية :

الطبرى ج٢ ص ٢٠١-٢١٢. تاريخ اليعقوبى ص ١٧٤-١٧٦ .

ابن الاثير ج ١ ص ٢٨٥ – ٢٩١ . كما انها وارده عند اغلب المؤرخين المحدثين في مجال تاريخ العرب قبل الاسلام .

والى جانب التاريخ السياسى للمدينة و الذي يشتمل في اكـثره علـى الصراع بينها وبين الامراء الغساسنه حلفاء الرومان ، فـان للحـيره شـهره عالية فلقد كانت " مركزا علميا هاما ، وملتقى الادباء العرب في الجاهليـة"[٢٠] وكانت مجالس امرائها " مرجع المستجدين و ميدان الشعراء والمادحين، ومن شعرائهم النابغة وحسان والمنخل و اليشكرى ، ولهم مع الشعراء وقائع تدخـل في مجلد كبير[٢١] كما انها كانت جسرا اساسيا عبرت عليه الوان من حضـارة الفرس إلى الجزيرة العربية و من هذه الالوان الحضاريه الاديان ، وضـروب من المعارف العامة والقراءة والكتابة والفنون الحربية و غيرها [٢٢] .

دولة الغساسنة :

الغساسنة من قبيلة مازن ، وهى الوحيده من قبائل الازد الكبيرة التـي تفرقت في البلاد بعد سقوط سد مارب في اليمن ، و عـرف هـؤلاء النـاس بالغساسنة وذلك لاقامتهم حول بئر تسمى " غسـان " ، و يـروى اليعقوبـي قصتهم قائلا :

و سارت غسان إلى الشام حتى نزلت ارض البلقاء ، وكـان بالشـام قوم من سليح قد دخلوا ذمة الروم وتنصروا ، فسألتهم غسان ان تدخل معـهم في ذلك فكتبوا إلى ملك الروم فاجابهم إلى ذلك . ثم ساء مجاورتـهم عاملـه على دمشق فحمل عليهم صاحب الروم بجماعة من العرب من قضاعة مـن قبل ملك الروم ، ثم ان غسان طلبت الصلح فاجابهم ملـك الـروم . وكـان

---

٢٠ عبد العزيز سالم : المصدر المذكور ص .ق٢.

٢١ جورجي زيدان : المصدر المذكور ص ٢٤٠-٢٤١.

٢٢ احمد شلبى : التاريخ الاسلامى ص ١١٠ و انظر ايضا عبد الفتاح شحاته : دراسات في تاريخ العرب وصدر الاسلام ، القسم الاول ص ١٦٠ .

رئيس غسان يومئذ جفنة بن عليه . فتنصرت غسان ، فاقامت بالشام مملكة من قبل صاحب الروم (٢٣) .

ويتبين من النص ان العلاقات لم تكن طيبة بين الروم والغساسنة في البداية ، وانها وصلت إلى حد الصراع المسلح بينهم ولكن حين يتبين للروم شجاعة الغساسنة فانهم تحولوا إلى مهادنتهم واستمالاتهم واستغلالهم بنفس الطريقة التي سبق للفرس ان استغلوا بها ملوك الحيرة .

جعل الرومان من الغساسنة شبه دوله حاجزة تقوم لهم بنفس الدور الذي يمارسه الحيريون لصالح الفرس ، وسنشير إلى بعض ملوك الغساسنة :

الحارث بن جبلة : توفي في حدود ٥٦٩م ويذكر عنه أنه حارب امير الحيرة المنذر وانتصر عليه في ربيع ٥٢٨ م . وانه قمع ثورة الشامريين في فلسطين في العام التالي ، وقد قر به الامبراطور الرومانى ، واعترف له بالزعامة على بعض القبائل العربية ومنحة لقب " باسيليوس " (٢٤) ، وقد قام الحارث بزياره للقسطنطينية ربما للاتفاق مع القيصر على من يخلفه في امارة الغساسنة او لمناقشة قضية الصراع مع المناذرة . وتوفى الحارث بعد ان حكم عرب الشام حوالى اربعين سنة وتمتع بمكانة عالية بين قومه . وظلت هذه المكانة معترف بها لدى المؤرخين العرب بعد ذلك (٢٥) .

---

[٢٣] تاريخ اليعقوبى ج١ ص ١٦٦ .

[٢٤] سعد زغلول : في تاريخ العرب ص ٢٠٦.

[٢٥] السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب ص ٢٠٤ .

المنذر بن الحارث : وعلى عهدة اذداد الصراع مع مملكة الحــيرة وتوترت علاقاته بالدولة الرومانية لبعض الوقت ثم عادت إلى مجاريها بسبب اذدياد نفوذ امارة الحيرة و حاجة الرومان إلى المنذر و الغساسنة للوقوف فـي وجة هذه الاماره .

ثم عادت العلاقات بين المنذر والامبراطور إلى التكدر والاضطــراب وتم القبض على المنذر و سجنه و نفيه إلى القسطنطينية ومنها إلى صقليـــه ، وترتب على ذلك تدهور احوال امارة الغساسنة . وقيـــام الرومـــان بـــالتدخل المباشر في حكم امارة الغساسنة . بنفس الصوره التي كان يمارسها الفــــرس في امارة الحيرة .

الصراع الحيري الغساني :

اشارتى هنا إلى هذا الصراع تهدف إلى توضيح كيفية استغلال القوى الكبرى الموجودة حينذاك للعرب في تحقيق ماربهم الخاصة : ويذكر التـــاريخ ان الحارث بن جبله قد قام بغزو بلاد المنزر بن النعمان ملك الحــــيرة وانـــة انتصر في معاركة هذه وحاز غنائم كثيره كما عادة الحرب بين الامارتين في عام ٥٤٤ حيث تمكن المنزر بن النعمان من اسر احد ابناء الحـــــارث و قتله (٢٦) .

و بعد وفاة الحارث بن جبله سنة ٧٥٠ خلفة ابنة الاكـــــبر المنـــذر ، والذى ما ان تولى الامارة حتى سعى لمواصلة الصراع مع عرب الحــــيرة و انتصر على ملكهم قابوس بن المنذر اللخمى .

---

[٢٦] عبد العزيز سالم : المصدر المشار اليه ج ١ ص ٢٠١ .

نهاية امارة الغساسنة :

أشرت إلى توتر العلاقات بين الغساسنة و الروم و قــــد دفـــع ذلـــك بالرومان إلى القبض على اولاد المنذر ، وتســـبب ذلـــك فـــي فـــك إمـــارة الغساسنة، وكان دخول الفرس بلاد الشام في عام ٦١٣ م وهو الذي قضـــــى نهائيا على حكم الغساسنة .

ويذكر المؤرخون انه بعد عودة هذه المنطقة إلى حكم الـــروم فانـــهم اعادوا الحكم لاحد احفاد الغساسنة ، ويذكرون جبلة بن الايهم كـــاخر مـــاوك هذه الامارة ، وانه كان إلى جوار الروم في معركة الـــيرموك ، علـــى راس جيش من قومه [٢٧] .

ولقد اسلم جبلة بن الايهم بعد هذه المعركة ووفد علـــــى عمـــر بـــن الخطاب في المدينة حيث اكرمه امير المؤمنين ، ولكن جبلة لـــم يكـــن قـــد تشرب الايمان تشربا سليما فحدث ان لطم رجلا من المسلمين و حين حـــلولوا القصاص منه هرب إلى الروم حيث ارتد عن الاسلام و اعتنق المسيحية[٢٨].

اقليم وسط شبه الجزيرة :

يقصد بمنطقة وسط شبه الجزيرة مساحات واسعة من الارض تمتـــد من بلاد اليمن جنوبا إلى بادية الشام شمالا ، وهـــي فـــي معظمـــها منـــاطق

---

[٢٧] تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١١٩ ، وانظر ايضا الطبري ج ٣ ص ٥٧٠ .

[٢٨] عبد الفتاح على شحاته : المصدر المشار اليه ص ١٦٤ - ١٦٥ . احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامي و الحضاره ج ١ ص ١١٠ .

صحراوية خالية من مراكز العمران ، ومع ذلك فانها - باستثناء مناطقـــها - كانت مرتعا للبدو والاعراب المتجولين .

واذا كان التطور الحضارى قد تباين من جزء إلى اخر علــــى ارض شبه الجزيرة و كان من ابرز درجات هذا التطور ما اشارنا اليه مــــن قيـــام الدول في الجنوب و الدويلات في الشمال . اما بالنسبة لـــهذه المنطقـــة فقـــد شهدت نوعا من الحضارة قبل الاسلام ، وان اختلــــف مظــــهرها عماســـبق دراسته .

يمثل الحجاز اهم اقسام وسط شبه الجزيرة ، ويحتل مكانة مرموقـــة في التاريخ الاسلامى. وتعتمد اهمية الحجاز على اسس ثابتـــة ، منـــها انـــه يحتوى على اهم المراكز العمرانية في ذاك الحين وهـــى مكـــة و الطـــائف ويثرب ومنها ان الله سبحانه و تعالى قد اختار هذا الاقليم ليكون مهدا لرسالته الاسلامية ومنذ ذلك الحين وارض الحجاز مطمع المسلمين وهوى افئدتـــهم في كل مكان و زمان ، نقطة ثالثة تضاف إلى اهمية بلاد الحجاز تتمثل فـــي عدم خضوعة للقوى الخارجية المتمثلة في الفرس و الروم ، واذا كان لطبيعة بلاد الحجاز الفضل في عدم خضوع بلاد الحجازللاجانب الا ان ذلك لا يعنـى انعزال الحجاز بعيدا عن مسرح الحياة خلال هذه الحقبة على العكس من ذلـك كانت ارض الحجاز ممرا للقوافل القادمة من الجنوب إلى الشمال و العكـــس، كما ان اهل الحجاز كانوا في المقام الاول تجارا خاضوا بتجارتـــهم اســـواق الشمال و الجنوب واتصلوا بالامم هنا و هناك .

و يشهد التاريخ ان المنطقة لم تكن منسية او منعزلة . بل لقد حـــاول الاحباش و الروم اخضاع هذه المناطق لسيطرتهم ، فجاءت إلى المنطقة فـــي سنة ٢٤ قبل الميلاد حملة رومانية بقيادة اليوس جالوس حاولت فتح المنطقـــة لكنها فشلت فشلا زريعا [٢٩] كما ان حملة ابرهة على مكة، وان تخفت تحـــت ستار هدم الكعبة الا اننا يمكن لنا ان نتخيل انه ربما دار فـــي ذهـــن ابرهـــة الحبشى فكرة السيطرة على مكة ، ومن ثم على القبائل العربية المنتشرة فـــي الحجاز [٣٠].

لم تشهد هذه المنطقة قبل الاسلام نظاما ثابتا للحكـــم و الادارة علـــى غرار مناطق الجنوب و الشمال ، وانما سادتها نظم خاصـــة ســـوف نشـــرح جوانبها و اذا كان هناك من يتناول دراسة هذه المنطقة تحت اســـم " امـــارة الحجاز " [٣١]، الا ان الغالبية الكبرى من المؤرخين الموثوقين لاتقر قيام دولة في اقليم وسط شبة الجزيرة على نمط الدول التي قامت في الجنـــوب او فـــي الشمال ، ويستثنون من ذلك جزء من تاريخها امارتى اللخميين و الغساسنة.

---

[٢٩] عبد العزيز سالم : المصدر المشار اليه ج ١ ص ٢٩٠ .

[٣٠] عبد الفتاح على شحاته : دراسات في تاريخ العرب ص ١٧١ .

[٣١] محمد مصطفي النجار : عرب الجزيرة بين الجاهلية والاسلام ص ٤٥ وما بعدها ويبالغ السيد امين مدني في كتابه " التاريخ العرب وبدايته " حتى ليتصور ممالك العرب قبل الاسلام كانت مثيلة لما بعد الاسلام ، انظر الصفحات من ٢٥٨ وما بعدها ويشير إلى ذلك ايضا الدكتور محمد بك غنيم في كتابه " خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية والاسلام " ج١ ص ١٠٠ .

مملكة كندة:

تشير بعض المصادر إلى محاولة هذه القبيلة القيام بنوع من فـــرض سيادتها علي القبائل العربية في وسط شبه الجزيرة العربية .

وكندة من قبائل اليمن التي هاجرت إلى الشمال ، و كان اول ملوكــهم حجر بن عمرو المعروف باسم اكل المرار وازداد نفوذها على عهد الحــارث بن عمرو و الذي تمكن بمساعدة الفرس من الاستيلاء على الحيرة و حكمـــها حتى جاء كسرى انوشروان فاعاد المناذرة إلى حكم الحيرة .

و من اشهر امراء كندة الشاعر الجاهلى المعروف امرؤ القيس الـذي انغمس في الصراع مع بعض القبائل الاخري حتى يقال انة اضطر للاستنجاد بقيصر الروم وقد وافته المنية بعد عودته من بلاد الروم ، و يقال بان قيصــر قد دس له السم حتى يتخلص من مشاكله[٣٢].

اما اهم ما يعنينا في دراستنا لاقليم الوسط هو الاشارة إلـــى تــاريخ الحواضر الثلاث الكبرى في منطقة الحجاز و هى مكة و يثرب و الطائف .

مكة المكرمة :

اشهر المدن الإسلامية ، و مهد رسول الله صلي عليه و سلم و مرتــع صباه وشبابه و موطن دعوته و أحب أرض الله اليــه [٣٣]، و لمكــة أســماء كثيره أشهرها ما ذكره القرآن الكريم من انها "بكـــه " و قــد اورد البكــرى

---

[٣٢] ابن كثير : البداية و النهاية ج ٢ ص ٢١٨ – ٢١٩ .

[٣٣] حسن فتح الباب : على طريق الهجرة ص ٧٣ .

اسماء كثيره للمدينه منها : صلاح و الرأس ، و العرش و القــادس [٣٤] كمــا انها عرفت بأم القرى، و البلد الأمين........... الخ [٣٥]، و معني اسمها كمـا يقول المفسرون " سميت مكة لأنها تبـك الذنـوب ، أي تسـتخرجها و تذهب بها كلها " [٣٦].

و من المسلم به تاريخيا أن مكة قد قامت حول البيـت الحـرام و أن أول من سكنها كانت السيدة هاجر و ابنها اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام، و نتبين ذلك من قول الله سبحانه و تعالي علي لسان ابراهيم الخليل : " ربنـا انى اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم " [٣٧] كمـا كـان البيت الحرام هو اول بناء بها اذ يقول الله سبحانه " ان اول بيت وضع للنـاس للذي ببكة مباركا " [٣٨] و بئر زمزم هي أول الآبار التي فجرها الله في هـذه المنطقه و حول البئر بدأ الناس يتجمعون ، و أول من قام مع هـاجر قبيلـة جرهم ، ويقول ابن الاثير " وكانت جرهم بواد قريب مـن مكـة ، ولزمـت الطير الوادى حين رات الماء ، فلما رات جرهم الطير لزمت الوادى قـالوا : ما لزمته الا وفيه ماء ، فجاءوا إلى هاجر و قالوا : لـو شـئت لكنـا معـك فانسناك والماء ماؤك ؟ قالت : نعم فكانوا معها حتى شبا اسماعيل و مـاتت هاجر ، فتزوج اسماعيل من جرهم فتعلم العربية منـها هـو و اولاده فـهم العرب المستعربة " [٣٩] .

---

[٣٤] البكري : معجم ما استعجم ج ١ ص ٢٦٩ – ٢٧٠ .
[٣٥] انظر كتاب الدكتور السيد عبد العزيز المشار إليه ص ٢٩٤ – ٢٩٧ .
[٣٦] البكري : المصدر السابق ج١ ص ٢٦٩ .
[٣٧] القران : سورة إبراهيم الاية ٣٧ .
[٣٨] القران : آل عمران الاية ٩٦ .
[٣٩] ابن الاثير : الكامل ج ١ ص ٥٩ .

وقامت قبيلة جزهم بامر البيت الحرام ومكة حتى تمكنت قبيلة خزاعة من نزول المكان وطرد الجرهميين واقامتهم مكانهم بمكة (٤٠) .

سيطرت خزاعة على البيت و قضت على الجرهميين و اضطرتـــهم إلى الرحيل والهجرة، واقام بنو اسماعيل إلى جوارهـــم وارتبطــوا بصـــلات طيبة رغم سيادة خزاعة على البيت وولاية امر مكة (٤١)، وينسبون إلى قبيلـــة خزاعة قيامها بتغيير دين ابراهيم الخليل وعبادتها الأصنام وخاصة على يـــد زعيمها عمرو بن لحيى الذي يذكر انه قد احضر معه من بلقاء الشام اصنامـــا نصبها حول الكعبة (٤٢) ، وهناك رواية اخرى تنسب إلى بنى اسماعيل انـــهم اول من عبد الحجارة وذلك انة لم يكن يظعن من مكة ظـــاعن منـــهم حيـــن ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد الا حمل معة حجرا من حجارة الحرم تعظيما له ، فحيثما نزلوا وضعوه ، فطافوا به طوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلـــك بهم إلى ان كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة واعجبهم (٤٣) .

وتزوج قصى بن كلاب زعيم قريش من ابنـــة جليـــل بـــن حبشـــية الخزاعى زعيم خزاعة و الذي كان يمتلك مفاتيح الكعبة ، وحيـــن حضـــرت الوفاة جليلا اوصى بولاية البيت من بعده إلى قصى . ولم يرض ذلك الامـــر بالطبع قبيلة خزاعة فحالت بين قصى وولاية البيت مما اضطر قصـــى إلـــى

---

٤٠ محمد على مختار : الازرقى المؤرخ من خلال رواياته . مقاله في كتاب " مصادر تاريخ الجزيره العربية " ج١ ص ٢٠٥ .

٤١ المصدر السابق ص ٢٠٤ .

٤٢ ابن هشام : السيرة ج١ ص ٧٢ .

٤٣ نفس المصدر ج ١ ص ٧٢ .

طلب النجدة من اخواله واخوته، وتجمعت تحت رايته كل القبائل العدنانيـــة و جاءه اخوه لامه دراج بن ربيعة العذرى واقتتل الفريقان ثم تداعوا إلى الصلح على ان يخلو بين قصى وبين البيت و مكة[٤٤] فولى قصيـــى البيـــت و امـــر مكة.

وجمع قبائل قريش فامر لهم بابطح مكة وكان بعضهم فـــي الشـــعاب ورؤوس الجبال فقسم منازلهم بينهم فسمى مجمعا .

وفيهم يقول الشاعر :

أبوكم قصى كان يدعى مجمعا   به جمع الله القبائل من فهر[٤٥]

بدا بذلك نجم قبيلة قريش في الارتفاع ، و قام قصـــــي بتجميعـــها و اسكنها مكة وقسمها بين فخوذها و بطونها ، وهو اول من اعز قريشا وظـــهر به فخرها ومجدها و سناها [٤٦]، وبعد ان استقامت له الامور و نفى خزاعة ، هدم البيت ثم بناه بنيانا لم يبنيه احد ، وبنى دار الندوة ، وكانت قريـــش فـــي حياته ترى امره كالدين المتبع[٤٧].

وكانت دار الندوة من اهم المنشات التي انشاها قصى في مكـــة قبـــل الأسلام حيث كانت ملتقى كبار القـــوم للتشـــاور و تبـــادل الاراء ، ويـــرى

---

٤٤ سيرة ابن هشام ج١ ص ١٠٩ – ١١٠ . تاريخ اليعقوبى ج١ ص ١٩٦ – ١٩٧ .

٤٥ ابن هشام ج١ ص ١١٥ – ١١٦ ، اليعقوبى ج١ ص ١٩٨والطبري ج٢ ص ٢٥٦ – ٢٥٨ .

٤٦ تاريخ اليعقوبي ج١ ص ١٩٨ .

٤٧ تاريخ اليعقوبي ج١ ص ١٩٩ .

اليعقوبى انه " كان لا ينكح رجل من قريش ولا يتشاور في امر ولا يعقـــدون لواء بالحرب ولا يعذرون غلاما (اى لا يختنونه) الا في دار الندوة " [٤٨].

وكان لقصى من الاولاد الذكور عبد مناف ، وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصى وقسم قصى بين ولده مراتب الشرف التي كانت في يده السقايه و الرئاسة لعبد مناف والدار لعبد الدار والرفادة لعبد العزى وحافتى الوادي لعبد قصى[٤٩].

ويروى الطبرى رواية اخرى في توزيع مراتب الشرف فـــي مكـــة فيقول : " فلما كبر قصى ورق عضمه ، وكان عبد الدار بكره اكبر ولـــده ، وكان - فيما يزعمون - ضعيفا . وكان عبد مناف قد شرف في زمان ابيـــه ، وذهب كل مذهب وعبد العزى بن قصى.

فقال قصى لعبد الدار - فيما يزعمون - اما والله لالحقنك بـــالقوم ، وان كلنو قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتـــى تكـــون انـــت تفتحها، ولا يعقد لقريش لواء لحربهم الا انت بـــيديك ،ولا يشرب رجل بمكـــة ماء الا من سقايتك ، ولا ياكل احد من اهل الموسم طعاما الا من طعامك ولا تقطع قريش امورا الا في دارك ، فاعطاه داره دار الندوة التـــي لا تقضـــى قريش امرا الا فيـــها ، و اعطـــاه الحجابـــة واللـــواء والنـــدوة و الســـقاية والرفادة[٥٠].

---

[٤٨] تاريخ اليعقوبي ج١ ص ١٩٩ .
[٤٩] تاريخ اليعقوبي ج١ ص ١٩٩ .
[٥٠] الطبري ج٢ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

ويوافق الدكتور احمد شلبي على هذا الرأى ويذكر ان خلافا شـــديدا قف وقع بين ابناء عبد مناف وابناء عبد الدار و تحزب بعض قريش لكل مـن الطرفين حتى اوشكت الحرب ان تقع بينهما لولا نجاح المساعى التي قسـمت وظائف الكعبة بين هؤلاء واولئك [٥١]، فما هى الوظائف باختصار شديد ؟

دار الندوة:

هي دار أقامها قصي بن كلاب زعيم قريش بقرب الكعبة وآلت إلـى ابنه عبد الدار، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا في دار الندوة فـهي أشـبه بمجلس شيوخ أهل مكة، تجري فيها المناقشات والمباحثات في الأمور الهامـة كالاشتراك في الحروب أو عقد المعـاهدات والاتفاقـات وتجـهيز القوافـل وتنظيمها وبهذه الدار اتخذت الكثير من القرارات الهامة في حياة المكيين.

الرفادة :

تقديم الطعام إلى حجاج بيت الله ، ويقال بان قصيا قد فرض على كل قريشى قدرا من الطعام يتم تقديمه إلى المحتـاجين مـن الحجيـج ، يقـول الطبرى: وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش في كل موسم من اموالها إلـى قصى بن كلاب . فيصنع به طعاما للحجاج ياكله من لم تكن له سـعة ولا زاد ممن يحضر الموسم ، وذلك ان قصيا فرضه على الناس فقال لهم حين امرهم به: يامعشر قريش انكم جيران الله واهل بيته واهـل الحـرام ، وان الحـاج ضيف الله وزوار بيته وهم احق الضيف بالكرامـة ، فـاجعلوا لـهم شـرابا

---

[٥١] احمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة ج١ ص ١٩٩ . وانظر ايضا جورجي نيدان في كتابه المشار اليه ص ٢٧٨ . وجمال سرور في كتابه قيام الدولة العربية الاسلامية ص ٤٤ – ٤٥ .

وطعاما ايام هذا الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كـــل عام من اموالهم فيدفعونه اليه فيضعه للناس ايام منى فنجرى ذلك من امـــره على قومه في الجاهليه حتى قام الاسلام(٥٢).

السقاية :

قامت مدينة مكة اساسا حول بئر زمزم ، و بعد ذلك تم حفـــر ابـــار اخرى خارجها ، وردم الجرهميون بئر زمزم فقل الماء في المدينة ، وذلـــك كانت السقاية في موسم الحج مهمة اساسية يقوم المكلف بها باحضـــار المـــاء من الابار وتقديمه إلى الحجيج بعد ان يمزجه بشيئ مـــن التمـــر والزبيـــب. وكانت هناك حياض توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفة وتملا بالماء العذب من الابار على الابل لكى يشرب منها الحجاج ، وهذه مسالة في غايـــة الاهميـــة لحاجة الحجاج إلى شرب الماء ، وندرة هذا الماء في اقليم مكة .

الحجابة :

الاشراف على الكعبة المكرمة والاحتفاظ بمفاتيحها وتولى فتح ابوابها وغلقها و القيام على خدمتها و تولى هذا الامر عبد الدار بن قصى ثم بعـــده ابنه عثمان ، وظلت حجابة الكعبة في بنى عبد الدار حتى فتح الرســول الله – صلى الله عليه و سلم – مكة في العام الثامن من الهجرة ودخـــل رســول الله الكعبة و حطم الاصنام ، ويروى ابن هشام ان " رسول الله صلى الله عليـــه و سلم جلس في المسجد ، فقام اليه على بن ابى طالب ، ومفتاح الكعبة في يـده، فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلـــى الله عليـــك . فقـــال

٥٢ الطبري ج٢ ص ٢٦ .

رسول الله صلى الله عليه و سلم : اين عثمان بن طلحة ؟ فدعى لـــه فقـــال : هاك مفتاحك يا عثمان : اليوم يوم بر ووفاء " [٥٣].

حيث نزل قول الله تعالى على رسوله الكريم ، " ان الله يـــامركم ان تؤدوا الامانات إلى اهلها " (سورة النساء الايه ٥٨) . ومهمة القائم بـــها ان ياذن للناس بدخول الكعبة ، ولم تكن تتطلب من القائم بها ان يكون عالما فـــي الدين كما انها ولاريب كانت مصدر رزق للقائمين عليها .

اللواء :

ويقصد بذلك انه في حالة الحرب يتولى صاحب اللـــواء عقـــد لـــواء قريش ، اى يعطيهم علم الحرب ومن ثم الاذن بها وكان لواء الحرب في يـــد قصى ومن بعده إلى ابنه عبد الدار ثم في اولاد عبد الدار يتـــولاه اصحـــاب الشرف وكبار السن فيهم ونراه ينتقل احيانا إلى ايد رجال مـــن بنـــى عبـــد مناف، فقد كان يوم احد في يد ابي سفيان بن حرب.

وظائف أخرى:

وعرفت الحياة في مكة مجموعة من الوظائف الأخرى منها:

القيادة: هي غير اللواء، وكانت القيادة في بني أمية بن عبـــد شـــمس فقد قاد حرب بن أمية الناس في حرب الفجار، كما قاد الناس يوم بدر عتبـــة بن ربيعة لأن أبا سفيان بن حرب كان في القافلة التي سببت المعركة، وقـــاد أبو سفيان قريشاً في غزوتي أحد والخندق، كما كان قائدها أيضاً يـــوم فتـــح مكة وكان سبباً في دخول رسول الله ﷺ مكة دون قتال.

---

[٥٣] ابن هشام ج٣ ص ٤١ .

الأعنة:

وهناك ذكر للأعنة، ويكون صاحبها المقدم على خيول قريـــش فـــي الحرب.

الحكومة:

وهي الأموال التي يسمونها لآلهتهم، وكانت عنـــد ظـــهور الإســـلام للحارث بن قيس السهمي.ولم تكن في مكة وظيفة لقاض أو حاكم يفصل فـــي المنازعات التي تنشب بين الناس، فإذا حدث خلاف بين أفراد العشـــيرة فـــان شيخ القبيلة هو الذي يحكم فيه. أما إذا حدث خلاف بين أفراد قبائل متعـــددة فإنهم كانوا يلجئون إلى رؤساء هذه العشائر أو إلى الكهان.

الأشفاف:

وهي وظيفة تقدير الخسائر، وكانت في يد أسرة أبي بكر رضـــي الله عنه.

ظلت الرياسة الشرفية لابناء قصى بن كلاب على مكـــة ، و علـــي الكعبة و كانت زعامة قريش حين هاجمها ابرهه الحبشي لهدم الكعبة في يـــد عبد المطلب بن هاشم و في أيام النبي كانت للعباس بن عبد المطلب ، و بعـــد أن أسلم انتقلت زعامة قريش إلى أبي سفيان بن حرب ، حتى كان فتح مكة و دخول القريشيين الاسلام .

يثـــــــرب:

يثرب هي مدينه رسول الله صلي الله عليه و ســـلم ، و هـــي التـــي اختارها الله سبحانه و تعالي لتكون منطلقا لانتشار الاسلام . و اذا كانت مكـــة

هي مهد النبي عليه السلام فان يثرب هي مثواه الاخير ، و هي بذلـــك بعـد مكة أحب المدن إلى قلوب المسلمين .

و تقع المدينة علي بعد حوالي ٤٠٠ كيلو مترا إلى الشمال من مكـــة في منطقه تكثر بها الأشجار و المياه، و كان ذلك سبب استقرار النـــاس بـــها منذ وقت طويل . و أسماها رسول الله "طيبه " و ناداهـــا الله تعـــالي باســـم " يثرب و المدينة و الدار " ، و يذكر ذلك البكري فيقول طيبـــه اســـم مدينـــه الرسول صلي الله عليه و سلم معروف .

قال الشاعر :

طربت وداري بأرض العراق إلى من بطيبة و المسجد .

و قال النبي (صلى الله غليه وسلم) : يســـمونها يـــثرب الا و هـــي طيبه . كأنه كره أن تسمي يثرب لما كان في لفظ التثريب[٥٤].

ثم يعود إلى ذكرها فيقول : المدينه ، هي مدينه رسول الله (صلـى الله عليه وسلم) فاذا قيل المدينة غير مضافة و لامنسوبه علم أنها هي ، قـــال الله تعالي " يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل " . و هـــي يثرب ، قال تعالي : " يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا " .
و هي الدار قال سبحانه : " و الذيـــن تبـــؤوا الـــدار و الايمـــان " . و هـــي طيبـــــه و طابـــــة و عذراء.........[٥٥]

٥٤ البكري : المصدر المشار اليه ج٢ ص ٩٠٠ ، وانظر ص ١٣٨٩ .

يقال ان أول من سكن يثرب هم العمالقة من العرب ، و بعـــد ذلـــك نزحت اليها بعض قبائل اليهود هربا من الاضطهاد الروماني الذي حل بـــهم اعتبارا من القرن الاول قبل الميلاد و استمر حتى القرن الثاني الميـلادي ، و أصبح اليهود في يثرب أصحاب المصـــالح فيــها حتـــى جاءتـــهم الأوس و الخزرج مقبلين من بلاد اليمن و ساكنوا اليهود مده من الزمن دون مشـــاكل كانت السيادة لليهود و يقع عبء العمل علي العرب و ظلوا علي ذلـــك زمنـــا ازدادت فيه الثروات في الاوس و الخزرج و بدأ تبرم اليهود بهم و اوقعـــوا بهم الايذاء و تتمروا لهم و قطعوا الحلف القائم بينـــهم و أصبحـــت الاوس و الخزرج في خوف من أن يقوم اليهود بطردهم فاختاروا مالك بـــن العجـــلان الخزرجي و أمروه عليهم ، و تمكن هذا من قتل زعيم اليـــهود ، و اســـتعان بعرب الغساسنه في حرب اليهود و الانتصار عليهم و بذلك أصبحت الســـياده في يثرب للاوس و الخزرج بينما بقي اليهود مقيمين بالمدينة و أماكن أخـــرى كثيرة مثل خيبر و تيماء ووادي القرى يتاجرون و يزرعون ويرابـــون دون أن تكون لهم حكومه معينه و انما عاشوا في كنف العرب .

أما الاوس والخزرج فقد وقع بينهم الشقاق الذي وصل إلى الحـــرب و جرت بينهم بعض الايام المشهورة تبادلوا فيها النصر والهزيمـــة و أشـــهر هذه الايام يوم بعاث حيث ناصر اليهود الاوس ودارت الدائرة علي الخـــزرج حتى كادت أن تفني لولا تعقل بعض رجال الأوس الذي نادوا بايقاف الحـــرب و تداعوا إلى الصلح و علي اقامه حكومه تدير شئونهم يرأسها عبد الله ابـــن

---

٥٥ نفس المصدر ص ١٢٠١ - ١٢٠٢ وذكر لها الدكتور عبد العزيز سالم ٢٩ اسما نقلها عن الاخبارين والمؤرخين انظر كتابه المشار ص ٣٣٣ .

أبي سلول و هموا بتتويجه فعلا ، ولكن شاءت ارادة الله أن يهاجر رسول الله صلي الله عليه وسلم إلى المدينه وتجمع أهلها حوله ، وأصبحوا بنعمه الله اخوانا[٥٦].

مدينة يثرب ((نص للقَراءة))

لمدينة يثرب كيان قديم كفله لها تعدد أوديتها وعيونها وآبارها، وخصوبة تربتها، وبالتالي وفرة أرباضها ومزارعها، مع كثرة إنتاجها وسكانها كثرة نسبية، وأهمية أسواقها المحلية والموسمية، فضلاً على موقعها قرب شرايين التجارة الرئيسية البرية والبحرية وتعاملها بالتالي مع متاجر اليمن ومصر والشام.

وتقع يثرب في مهاد من الأرض ذات لابات أو أحرار سبخة، أهمها حرة واقم وحرة الوبرة وحرة قباء، وهي مفتوحة الحدود، وأقرب الجبال إليها جبال أحد وعير وسلع وسليع، وهي ذات ارتفاعات متباينة.

وانتفعت يثرب بميناء الجار في عمليات التصدير والاستيراد المناسبة لعصرها القديم، وكانت تصل إليها وتخرج منها بعض متاجر عدن وشرق أفريقية والهند ومصر - وبلغ من شهرتها القديمة أن سمى الساحل الممتد منها إلى خليج ايلة بساحل الجار لفترة من الزمن- ولعلها هي البريكة الحالية التي عمرت لفترة طويلة من العصور الإسلامية- وجاورتها جزيرة صغيرة

---

[٥٦] عبد الفتاح على شحاته : دراسات في تاريخ العرب وصدر الاسلام ص ١٨٣ - ١٨٩. وانظر ايضا دراسة الدكتور عبد العزيز سالم في كتابه المشار اليه ص ٣٣١ وما بعدها.

كانت ترسو عليها سفن الحبشة بخاصة وظلت الجار كذلك حتى جاءت محلـها في الأهمية ميناء ينبع.

وعثر في جبل المكتب خارج المدينة على نصوص قديمـــة لــم يتــم بحثها بعد، كما عثر في جبل الصويدرة على مبعدة منـــها علـــى نصـــوص ثمودية وصور حيوانات منقورة. وعثر في داخل المدينة نفسها عــن طريـــق المصادفة وخلال حفر أساسات بعض المباني بالمناخة وغيرها علـــى بقايـــا عمران سابق لم يتيسر تحديد عهده.

واحتفظ الأخباريون المسلمون لمدينة يثرب بأسماء كثـيرة تراوحـت عدتها في مؤلفاتهم بين العشرة، والأحد عشرة، والتســعة والعشــرين، بــل والأربعة والتسعين، وكانت في أغلبها صفات قد يسهل تفسير القليـــل منـــها وتعليله، بينما تصعب معرفة مدلول الكثير منها أو تحليله. وكان اسم يـــثرب من أقدمها، أو هو أثرب، وقد يكونان لهجتين لمسمى واحد كان يشغل جـــزءا من المدينة غرب مشهد حمزة الحالي، ثم عم عليها. ومن الاهمية بمكـــان ان ذكر نص للملك نابونهيد آخر ملوك بابل الكلدانية في منتصف القرن الســادس قبل الميلاد اسم "اتريبو" في نهاية توسعه بجيوشه في ارض الحجاز، وخـــلال محاولته السيطرة على عواصم الطريق التجارى الكبير بيـــن غــرب شــبه الجزيرة وبلاد الشام. وحدث هذا التسجيل بطبيعة الحال بعد نشأة يثرب فيمـــا قبل القرن السادس ق.م بعهود طويلة.

وتضمنت بعض النصوص المعينية القديمة اسم يثرب ايضـــا، كمـــا ذكره الرحالة بطليموس السكندرى في منتصف القرن الثانى للميلاد، بصيغتي Iathrippa or Jathrippe ، واشـــار اليـــه اســطفانوس البــيزنطى باســم

Iathrippa Polis أى مدينة يثرب، وذلك بما يدل علـــى انـــها كـــانت قـــد استكملت الطابع المدنى وتميزت به عمـــا حولـــها مـــن اراضـــى الزراعـــة ومضارب البدو. تأيد هذا في تسميتها العربية "المدينة" التي قد تعبر عن هـــذا التحول، وتكون عربية الاصل، ان لم تكن مشتقة من لفظ ارامى قديـــم عـــبر العبرانيون عنه بصيغة مدينتو او مدينتا بنفـــس معنـــاه العربـــى او بمعنـــى الحمى. وعندما دخل الاسلام يثرب استحب الرسول لها اسم المدينة وصفـــة طيبة او طابة دون اسم يثرب الذي قيل انه قد معنى الفســـاد او التـــثريب أى المؤاخذة بالذنب. وشاعت للمدينة صفات اخرى من اهمها: ام قرى المدينـــة، والجارة والمجيرة والمحبورة. والبحرة والبحيرة...الخ.

ادى خصب يثرب وثراؤها النسبى إلى كثرة عمرانها، وادى موقعـــها والظروف التي مرت بها إلى تعدد طوائف سكانها. وهى طوائـــف يصعـــب تحديد مسمياتها الاولى، ولم يجد النسابون لديهم الا ان يجعلوا مـــن اقدمـــها طائفة العماليق ذات الصبغة الاسطورية، كما اشاروا إلى بطون متأخرة مـــن جذام وبلى وسليم ومن قيس عيلان وغيرها ظلت بقاياها خارج المدينة حتـــى العصر الجاهلى وربما كانت في الاصل بداخلها حتى غلبـــها غيرهـــا علـــى امرها واخرجها منها. وفازت بالشهرة اكثر منها قبائل ذات اصول قحطانيـــة اختلطت بالعدنانية، وبقيت منها في العصر الجاهلى طوائف الاوس والخـــزرج ببطونها الكثيرة. وجاورتها طوائف عبرية بقى منها فـــي العصـــر الجـــاهلى ايضا بنو النضير وقينقاع وقريظة. وبطون غيرها صغيرة. ولعل مـــا يقـــال عن تداخل الجماعات ذات الاصول القحطانية والعدنانية في يثرب يشبه مـــا كانت الحال عليه قديما في لحيان وتيماء وغيرها من حيث نـــزول جاليـــات تجارية عربية جنوبية معينية وسبأية في ارضـــها لكـــى ترعـــى المصـــالح التجارية لدولها الجنوبية، ولما طال المقام بها اختلطت وتصاهرت مع السـكان

الاصليين من العرب الشماليين ولكن النسابين ظلوا يردونـــها إلـــى اصولـــها القحطانية او الجنوبية الاولى من حين إلى اخر.

وكان من الطبيعى ان تهتم طوائف المدينة بحماية حدودها وارباضـــها ومزارعها بتحصينات صناعية تمثل اكبرها في الآطام (جمع اطم)، وعرفـــت صغرها باسم الصياصى. وبنى بعضها من اللبن وبنى بعضها الاخر بأحجـــار صغيرة او كبيرة، وزودت بأبراج كما احتوت على آبـــار ومخـــازن بحيـــث يحتمى بها اهلها حين الغارة، ويتحصن بها الشيوخ والنساء والصغـــار حيـــن خروج رجالها إلى الحرب. وكما كانت ليثرب حصونها العامة كـــانت لكـــل طائفة من سكانها حصونها الخاصة نتيجة فيما يبـــدو لعـــدم خلـــوص نوايـــا بعضهم للبعض الآخر.

واهتم رواة اليهود وكتابهم بتاريخ طوائفهم في يثرب اهتماما كبـيرا لا يخلو من الغرض وتخيلوا لها ماضيا بعيدا تباروا في القول ببدايته منـــذ ايـــام موسى وهارون في القرن ١٤ ق.م، او بعد انتصار داود على معارضيه فـــي القرن العاشر ق.م ، او بعد سقوط مدينة السامرة الاســـرائيلية امـــام الغـــزو الاشورى في عام ٧٢١ ق.م ، أو بعد تدمـــير البـــابليين لاورشـــليم وهيكـــل سليمان في عام ٥٨٦ ق.م ، او بعد قضاء القائد الرومانى تيتوس على ثـــورة اليهود الاولى وتخريب معابدهم في عام ٧٠م ، او بعد القضاء على ثورتـــهم الثانية في عهد الامبراطور هارديان بين ١٣٢-١٣٥ .

أوهم قد جمعوا بين اشتات من كل هؤلاء. ومع وضوح الشك في هذا الخليط الكثير من الاراء وجد آذانا صاغية ممن اخـــذوا عـــن الاســـرائيليات

وصدقوا رواتها باعتبارهم من اهل الكتاب والكتابة لاسيما وانه لـــم تظــهر للاسف لعرب يثرب القدامى كتابات اصيلة تتحدث باسمهم حتى الان.

وافترض بعض المؤرخين من القدامى والمحدثيـــن رأيـــا وســطا . احتملوا فيه ان يكون يهود يثرب او اغلبهم من العرب المحليين اللذيـــن قـــد يرتد نسبهم إلى الجنوب . وانهم تهودوا في يـــثرب حينمـــا بلغتـــها الديانـــة اليهودية بطريقة ما شأنهم في ذلك شأن من تهود من عـــرب تيمـــاء وتبــوك ووادى القرى وعرب اليمن ايضا. وزكوا هذا الفرض بما قيل من ان هـــؤلاء اليهود المحليين لم يكونوا يعترفون بالتلمود كله، وان معارفهم الدينية كـــانت محدودة بحيث انكر عليهم بعض يهود الشام في القرن الثالث الميلادى صـــدق يهوديتهم . وربما انضمت اليهم اشتات صغيرة مهاجرة من الادوميين مثـــلا بعد ان دالت دولتهم (حيث وجد رأى ينسب بنى قينقاع اليـــهم). ولـــم يكـــن هؤلاء وهؤلاء كثرة كبيرة. وانما قدر عدد رجالهم في احدى المناسبات بما لا يزيد عن الالفين.

وكانوا يتحدثون بعربية تداخلت فيها ألفاظ ومسميات عبرية اكتســبوها من التوراة أو ممن معهم من اليهود الطارئين، وقام لهم بيـــت يســـمى بيــت المدراس كان من المفروض أن يتدارسوا فيه أمور دينهم ويفصلوا فيـــه فـــي قضاياهم. ومع عربيتهم أو استعرابهم عاشوا في أحياء محدودة ومجتمع مقفـل عليهم. وقد أسلفنا في الفصل العاشر كيف ربط بعض الأخباريين بين الملـــك أب كرب أسعد ملك سبأ وذي ريدان وبين يهود يثرب مرة بدخولهم إليها فـــي عهده (في بداية القرن الخامس الميلادي)، ومرة بامتداد نفوذه إليها حينمـــا توسع في نواحي معد والحجاز، ومرة برحلته إليها وتهوده، ومرة بتعيينه أحـد أولاده عليه حيث قتل بعد رحيله عنها . . . الخ.

واعتبرت الروايات العربيـــة الأوس والخـــزرج أخويـــن مـــن الأزد وقضاعة هاجروا إلى يثرب بعد سيل العرم وخراب سد مأرب باليمن، وهـــو توقيت غير محدد بزمن صريح حيث تخرب سد مأرب في أكثر مـــن عـــهد، وأصلح أكثر من مرة كما سبق التنويه بذلك في الفصل الرابع. ولهذا تبـــاينت آراؤهم في توقيت هذه الهجرة بالقرن الثالث أو أواخر القرن الرابع، أو فـــي القرن الخامس الميلادي.

ومرة أخرى أشاعت الروايات العبرية وما تأثر بها أو وافقـــها مـــن الروايات العربية أن الأوس والخزرج اكتفوا في بداية الامر بحياة متواضعـــة في يثرب في مقابل كثرة استغلال يهودها للتجارة والصناعة . وعمل بعضـــهم في الزراعة وتعاقدوا في حلف مع اليهود ليؤمن بعضهم بعضا. ووجد اليـــهود في هذا الحلف ما يزكي وجودهم ويكفل لهم معونـــة الاوس والخـــزرج فـــي الدفاع عن يثرب والقيام بدور الوساطة بينهم وبين من حولـــهم مـــن عـــرب واعراب.

وشيئا فشيئا اثرى الاوس والخزرج وتحسنت اوضاعهم . ورأى بنـــو قريظة و النضير الحيلولة دون استفحال امرهم فأهدروا حلفهم معهم واســـتبدوا بهم. وانكمش الاوس والخزرج زمنا حتى استنفر هممهم زعيم الخزرج مـــالك بن العجلان (او عمرو بن النعمان) وسعى معهم إلى احراز السيادة. ويبـــــدو انه حالف بطونا من قضاعة في غسان او في غيرها من جنوب الشام، وربمـــا حالف بعض الحميريين ايضا، ثم فاجأ بقومه وحلفائه اليهود قبل ان يعتصمـــوا بصياصيهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وساد هو وقومه يثرب في ختام القـــرن الخامس الميلادى او بعده بقليل. ورأى بعض المؤرخين (ومنهم ولفنسون) ان

هزيمة اليهود حينذاك في يثرب كانت انعكاسا لهزيمتهم في اليمن، وانها تمت في الحالين بناء على تحريض مسيحيى الحبشة في اليمن، وبناء على تحريض مسيحيى غسان في يثرب .ورأى آخرون العكس . ويلاحظ هنا ان هزيمتهم في يثرب سبقت هزيمتهم في اليمن. واستبعد مؤرخون آخرون اثر التحريض الدينى في يثرب وقصر اسباب النزاع بين العرب واليهود حينذاك على تضارب المصالح الاقتصادية والرغبة في الاستئثار بالسلطة.

وبعد النصر زاد الاوس والخزرج من عمران يثرب وسعتها، وزادوا من آطامها أو حصونها. وانتشر الاوس في بقاع خصيبة من العوالى في جنوب وشرق يثرب، بينما انتشر الخزرج في بقاع اقل ثراء في الاجزاء الوسطى والشمالية منها.

وعاش عرب يثرب في بداية الامر متحدى الصفوف ، ثم ساءت العلاقات فيما بين قبائلهم الرئيسية، وفرق التنافس الاقتصادى والسياسي وحدتهم، حيث اخذ الاوس على الخزرج استئثارهم بالسيادة السياسية، بينما اخذ الخزرج على الاوس استئثارهم بأهم النواحى الاقتصادية.

وعمل اليهود من حين إلى آخر على تأجيج نار الفتنة بين الفريقين، وتأليب فريق منهما على فريق. وهكذا تكررت ايام الحروب بين الاوس والخزرج ، وظل اغلب النصر فيها للخزرج حتى هزموا في حرب بعاث التي سبقت هجرة الرسول إلى يثرب بنحو خمس سنين. وقبيل وصوله اليها كان الاوس قد جمعوا كلمتهم برئاسة ابى عامر بن النعمان. بينما اعاد الخزرج تنظيم صفوفهم برئاسة عبد الله بن ابى سلول واعدوه ليكون ملكا على يثرب كلها.

وكما تنافس الاوس والخزرج واليهود خفية وعلانيــــة فـــي يـــثرب، وتنافست مكة ويثرب في شئون التجارة والاقتصاد وزعامة عرب الحجــــاز. وكانت اولاهما كما سبق القول عنها تغلب فيها العدنانيــــة، وجـــدب التربـــة، وثراء التجارة الخارجية، وحرمة البيت ، بينما غلبت فـــي يـــثرب الاصــــول القحطانية الخليطة وخصب التربة وكثرة الانتاج مع النصيــــب الاقـــل مـــن التجارة الخارجية [٥٧] .

الطائـــــــف

تعتبر الطائف قرينه مكة و ارتبطت بها ارتباطا قويـــا ربمـــا بحكـــم قربها منها فهي لا تبعد عنها بأكثر من حوالي اثني عشر فرسخا ، و تمتــــاز الطائف باعتدال هوائها و ارتفاع سطحها و خصوبه تربتها حتى قيـــل انـــها بقعة من الشام انتقلت إلى الحجاز ، كما اشتهرت ببساتينها وحدائقها الرائعـــــة التي يزرع بها كثير من الفواكه مما يشابه فواكة الشام ، وهى إلى جانب ذلـك طيبة الهواء و بها مياه جارية[٥٨].

اختلفت الاراء في سبب تسميتها بالطائف فقيل لان قبيلة ثقيـــف رات ان تبنى سورا يكون حصنا لهم واطلقوا عليه الطائف لاطافته بهم ومـــن ثـــم عرفت باسم الطائف[٥٩].

---

[٥٧] د.عبد العزيز صالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية ص٢٠٨

[٥٨] جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية ص ٥١ .

[٥٩] البكري : المصدر السابق ج١ ص ٦٧ و ج ٢ ص ٨٨٦ .

ويذكر البكرى قصة طويلة عن سبب تسمية سكانها باسم ثقيف مفادها ان قيسا بن منبه بن بكر بن هوازن لما رحل من وادى القرى إلى هذه البقعة وكانت تسمى " وجا " سال زعيمها عامر العدوانى ان يزوجه فزوجه ابنته ، ومن بعدها ابنته الثانية ، فكثر اولاده وزرع بارضها بعض العيدان التي اخذها من عجوز يهودية ، فلما اثمرت العيدان قال اهل وج : قاتله الله كيف ثقف عامر حتى بلغ منه ما بلغ ؟ وكيف ثقف هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء فسمى ثقيفا من يومئذ وكثر نسله[٦٠].

وكانت الطائف المكان الذي حاول رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يلجا إلى اهله حين ضاقت به الامور في مكة ولكنه لم يجد من اهله استجابة على ما سنبين فيما بعد ، ومن الغريب ان الطائف كانت من اهل المعاقل التي بقيت على اسلامها بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان منها بعض ابطال الفتوحات الاسلامية .

ويروى في ابن هشام ان ابرهه الحبشي مر بالطائف فخرج اليه سعود بن مالك في رجال من ثقيف فقالوا له : ايها الملك ، انما نحن سامعون لك ومطيعون ليس عندنا لكم خلاف وليس بيننا هذا البيت الذي تريده - يعنون اللات - انما تريد البيت الذي بمكه ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم . فبعثوا معه رجلا يقال له ابو رغال يدله على الطريق

[٦٠] المصدر السابق ج١ ص ١٧ . جمال سرور : المصدر السابق ص ٥٣ .

إلىمكة. فخرج ابرهه ومعه ابو رغال حتى انزله المغمس ولما انزله به مـلت ابو رغال هناك ، فرجمت العرب قبره [61] .

أحوال العرب قبيل الإسلام

القينا نظره على المراكز العمرانية الهامة في الحجاز ، وآن لنـا الان لنقدم صورة لمظاهر حياة السكان في منطقة وسط الجزيرة العربية .

الاحوال السياسية :

نتبين مما سبق دراسته وجود نوع من التنظيم السياسي فـي امـاكن التجمعات الرئيسيه في اقليم الحجاز لكننا نريد التاكد ان ذلك التنظيم لم يكـن قائما على منهج منظم للادارة كذلك الذي نعرفه في حكومات العصر الحديـث بل لم يكن تماسكها من سيادة قبيلة اعتمدت علـى عصبيـة القبيلـة وعلـى تماسكها ووحدتها وقدرتها على الحفاظ على هذه السيادة . ومـن هنـا كـان الاساس في الحياه السياسيه لعرب قبل الاسلام انما هو العصبية القبلية " حيث الفت كل قبيلة جماعة مستقلة تمام الاستقلال وانسحب هذا الاسـتقلال ايضـا على افراد القبيلة فكل فرد منها كان لا يرى في زعامة شيخ القبيلة او سـلطته الا رمزا لفكرة عامة شائت الظروف ان ياخذ هو منها نصيـب ، بـل كـان مطلق الحرية في ان يرفض ما اجتمع عليه راى الاغلبية من ابناء قبيلتـه ، وابعد من هذا انه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة رئيس القبيلة ، فكان يختـار لها غالبا اكبر الافراد سنا واكثرهم مالا، واعظمهم نفوذا ، واجدرهم بكسـب الاحترام الشخصي . واذا ما تضخمت قبيلة ما تشعبت فروعا كثـيرة يتمتـع

---

[61] سيرة ابن هشام ج١ ص ٣٥ .

كلا منها بحياة منفصلة ووجود مستقل . ولا تتحد الا في ظروف غير عادية اشتراكا في الدفاع عن القبيلة او قياما بغارات بالغة الخطورة[٦٢].

بالرغم من ذلك الاحساس الكبير بالحرية الذي اخذ به الدكتور حسن ابراهيم الا انه مما لا شك فية ان شيخ القبيلة قد تمتع بسلطات سياسية واسعة فهو الذي كان يحق له اعلان الحرب و الدعوة إلى السلام ، كما ان طاعتة بين ابناء قبيلته تعتبر دينا قابل الوفاء به ، كما انهم يستمعون إلى نصيحته ، ويدافعون عن سمعته التي هى في ذات الوقت سمعة القبيلة .

ركن اخر من اركان القبيلة الاساسية يتمثل في شاعرها ، فالشاعر هو سوط القبيلة ، المعبر عن ارائها ، والمادح لافعالها ، والذاكر لنسبها وفضلها و تاريخها ، وهو المهاجم لاعدائها ، القاص لمثالبهم وعيوبهم ، ولعب الشاعر على عصره دورا هاما لا يقل عن الدور الذي يمارسه الان في الحكومات المعاصره وزراء الاعلام ، لان مهمته الاساسية الدفاع عن قومه وقبيلته ومهاجمة وهجاء اعدائها وذكر مثالبهم وعيوبهم .

نقطة هامة اخري في حياة عرب وسط شبه الجزيرة تتمثل في عدم الاستقرار وذلك بسبب الظروف المناخية و النظم القبيلية وتركيبة العربي الفكرية والاجتماعية ، ومن هنا وقعت مجموعة كبيرة من الحروب بين بعضهم و البعض الاخر عرفت في التاريخ باسم " ايام العرب " وهى كثيرة جدا لدرجة يصعب حصرها ، وذكروا ان ابا عبيدة (توفى سنة ٢١١ هـ)

[٦٢] حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج١ ص ٥٢ .

صنف كتابا افرده لرواية ١٢٠٠ يوما من ايام العرب لم يصـــل الينـا [٦٣] ، ويخصص ابن الاثير لايام العرب حوالى ١٥٠ صفحة ومع ذلك فانة يذكــر " الايام المشهورة و الوقائع المذكورة التي اشتملت على جمع كثـــير ، وقتــال شديد ، ولم اعرج على ذكر غارات تشتمل على النفر اليســـير لانـــة يكــثر ويخرج عن الحد " [٦٤].

ولقد اشار اليه بتوسع وباختصار كافة من تعرضوا لتاريخ العـــرب تقريبا من مؤرخى المسلمين وغيرهم ، وفى العصر الحديث ايضا فمــا مــن مؤلف يشير إلى تاريخ العرب قبل الاسلام الا واشار إلى هــذا الموضـــوع ، وخصص لها الاستاذان محمد ابو الفضل ابراهيم و على محمد البجاوى كتابـا بعنوان " ايام العرب في الجاهلية " [٦٥]وقدمتها الدكتورة سهام ابو زيـــد فـــي جداول حسب نوعيتها ونوعية القبائل المشتركة فيها [٦٦].

هذا وقد درج المؤلف على تصنيف ايام العرب إلى :

١- ايام بين القبائل العدنانية بعضها مع بعض .

٢- ايام بين القبائل القحطانية بعضها مع بعض .

٣- ايام بين قبائل القحطانيين و قبائل العدنانيين [٦٧].

---

٦٣ السيد على الزير سالم : الكتاب السابق ذكره ص ٣٧٦ .

٦٤ ابن الاثير : الكامل ج١ ص ٢٩٨ - ٤٢٢ .

٦٥ صدر في القاهرة في حدود عام ١٩٤٨ واردف بايام العرب في الاسلام ، والقاهرة ١٩٥٠ .

٦٦ سهام ابو زيد مصطفى : رسالة الاسلام والعالم القديم الصفحات من ٤٥ إلى ٧٨ .

٦٧ المصدر السابق : ص ٤٨ .

وقد سميت هذه الايام باسماء الاماكن التـــي وقعــت فيـــها او ابـــرز احداثها او بالقبائل التي اشتركت فيها ، ونشير هنا باختصار عن بعض هـــذه الايام .

حرب البسوس :

قامت هذه الحرب بين قبيلتى بكر و تغلب ابنى وائل بن هنب وهمـــا من القبائل العدنانية، وكان يتزعمها وائل بن ربيعة بن الحـــارث المعـــروف بكليب وهو من قبيلة تغلب ، وسبب هذه الحرب ان كليب كان له حمى يرعـــى فيه ولا يسمح لغيره بالرعى فيه ، وذات يوم وجد ناقة غريبة فقتلها ، وكـــانت الناقة لخالة جساس بن مرة شقيق زوجة كليب وابن عمه ، وغضب جســـاس لمقتل ناقة خالته واخذته العزة بالاثم فصمم على الانتقام لها بقتل كليب نفســه، وتحين الفرصة لذلك ونفذ ما اعتزم عليه منتهزا فرصة مكنته من كليب . ثار بنو تغلب وعلى راسهم المهلهل بن ربيعة شقيق كليب ، ولم تفلح المفاوضـــات في الحصول على ترضية من بنى بكر ، وقـــامت الحـــرب بيـــن الطرفيـــن واستمرت حوالى ٤٠ عاما التقوا خلالها في اكثر من معركة وفشـــلت كـــل مساعى الصلح بين الفريقين و قتل جساس واسر المهلهل وقتل بعـــد ذلـــك ، وفني الحيان من بكر وتغلب مات في اثنائها الشيوخ ، وشاخ الشبان ، وشـــب الولدان ، وولدت طبقة من الناس لم تكن في الحسبان(٦٨).

وتجدر الاشارة إلى تلك الحرب بانها تمثل ملحمـــة رائعـــة لخـــلال العرب وسجاياهم فمنها نستشف متانة العلاقات الاسرية ، وقوة صلة القرابـــة، ومعنى الصداقة ، وكذلك حب القبيلة عامة إلى درجة التضحية بـــالابن مـــن

---

٦٨ اقرا حرب البسوس تفصيليا عند ابن الاثير ج ١ ص ٣١٢ وما بعدها .

اجل صالح القبيلة عامة ، وليس الامر هنا موضع التحليل الفنى او الادبـــي لعنصر هذه الماساه التي استمرت إلى ما يقرب من نصف قرن من الزمـــان ولكن يكفينا تقديم هذه اللمحات السريعة . تقيم البسوس عند ابن اختها جسـلس وتقتل ناقتها فينتقم لها جساس من قاتل ناقتها نفســـه لانـــه احـــس بالاهانـــة والعربى يرفض الضيم .

ان المهلهل عرف بالسكر والعربدة و شرب الخمر لكن ما ان يصلـــه خبر مصرع اخيه حتى يهجر ذلك كله ويهجر النساء والملذات ويكرس حياتـه من اجل الانتقام لاخيه .

اما الموقف الرائع فقد كان للحرث ابن عباد ، وكـــان قـد اعـتزل الحرب ولم يشهدها . فلما قتل همام و جساس ابنا مره ، حمل ابنه بجـــيرا ، إلى المهلهل مع كتاب يقول فيه :" انك قد اسرفت في القتل وادركـت ثـارك سوى ما قتلت من بنى بكر ، وقد ارسلت ابنـــى اليــك فامــا قتلتــه بــاخيك واصلحت بين الحيين ، واما اطلقته واصلحت ذات البين فقـــد مضـــي مـــن الحيين في هذه الحروب من كان بقاؤه خيرا لنا ولكم " . فلما وقف المهلـــهل إلى الكتاب اخذ بجير فقتله ، وقال : بؤبشسع نعل كليب . فلما سمع ابوه بقتلـه ظن انه قد قتله باخيه ليصلح بين الحيين ، فقال : نعم القتيل قتيلا اصلح بيـــن ابنى وائل ، فقيل له : انه قال بؤبشسع نعل كليب فغضب عند ذاك الحرث بن عباد وقال :

قربا مربط النعامة من	لقحت حرب وائل عن حيـــال
قربا مربط النعامة من	شاب راسي وانكرتنى رجالي

فاتوه بفرسه النعامة ولم يكن في زمانها مثلها فركبها ، وولـــى امـــر بكر فشهد حربهم ومن الغريب ان الحرث بن عباد اسر مهلهلا واسمه عـــدى وهو لا يعرفه فقال له : دلنى على عدى وانا اخلى عنك . فقال له المهلـــهل : عليك عهد الله بذلك ان دللتك عليه ، قال : نعم ، قال : أنـــا عـــدى ، فجـــز ناصيته وتركه .

حرب داحس والغبراء :

سميت كذلك نسبة إلى فرسين اصيلين يحملان هذا الاسم تسابقا وكـان سباقهما سببا في قيام الحرب بين قبيلتين عبس و ذبيـــان . ولقـــد اســـتمرت الحرب بين القبيلتين حوالى ٤٠ عاما ، وتخللها كثيرا من مواقـــف الشـــجاعة والمروءه وصاغ فيها العرب اشعارا رائعة مثل اشعار عنترة بن شداد بن ابـــي سلمة . وبدات المشكله عندما كان قيس بن ابي زهير سيد بني عبس يســـعي للحصول على السلاح والمعونه فذهب إلى مكة واشتري خيلا و سلاحا وفـــى طريق عودته التجا إلى حذيفة بن بدر واخيه حمل بن بدر واقـــام معـــهما ، وكان لهذين الرجلين خيلا ليس في العرب مثلها ، وكان حذيفه بـــالرغم مـــن اصالة خيوله يحسد قيسا على فرسيه داحس والغرباء .

وسار قيس إلى مكة مرة اخرى لاداء العمرة ، واثناء غيابـــه حـــدث احتكاك بين بعض اهله وحذيفة ترتب عليه ان تراهنا على ســـباق الخيـــل ، وكان السباق بين فرسي قيس داحس والغربـــاء وفرســـي حذيفـــة الخطـــار والحنفاء ، وكان الرهان كبيرا وعاد قيس وخشي مغبة ذلك وقصد حذيفة لفـك الرهن لكنه رفض وكان قد بدا يمل جوار قيس ويرغب في رحيله عنه ولذلك عمد ايضا إلى تدبير مؤامرة يهدف منها إلى منع داحس مـــن النجـــاح فـــي السباق ، وفعلا استاجر رجلا كمن في طريق السباق حتى اذا اتـــي داحـــس

سابقا صده وعطله فجعله ياتى متاخرا ، ولكن فازت الغبراء بالسباق وبعدها الخطار و الحنفاء و اخيرا داحس .

علم قيس بما حدث وتاكد من ذلك فغضب ولج حذيفه وارسل ابنه يطلب الرهان على اساس ان فرسيه جاءا متتابعين فرفض قيس وقتل ابن حذيفه وبدات الحروب وتمكن حذيفة ابن مالك من زهير اخو قيس فقتله ، وتداعى الحيان إلى الصلح احيانا والى الحرب احيانا اخرى الى ان تمكن الحارث بن عوف وهرم بن سنان من تحمل ديات القتلى وايقاف الحرب بين الحيين [٦٩]، وانشد زهير بن ابي سلمي معلقته الرائعة التي مطلعها :

امن ام أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم [٧٠]

ايام الفجار :

هى اربعة ايام و حملت هذا الاسم لانها وقعت في الشهر الحرام واخرها كان قتال هوازن لقريش ، وشهد رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل بعثته بعض ايامهم ، وكان عمره حين ذاك خمس عشرة سنة او عشرين سنة ، واخيرا تمكن عتبه بن ربيعة بن عبد شمس من سادات قريش من اطلاق نداء الصلح بين الفريقين [٧١].

---

[٦٩] ابن الاثير : ج ١ ص ٣٤٣ – ٣٥٥ .
سهام ابو زيد : رسالة الاسلام ص ٥١ – ٥٥ .
[٧٠] حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج١ ص ٥٧ .
[٧١] ابن هشام : السيره ج١ ص ١٦٨ – ١٧٠ .
ابن الاثير ص ٣٥٨ – ٣٦٣ .

يوم ذي قار :

نشير إلى هذا اليوم لخصوصيته في تاريخ العـرب قبـل الاسـلام ، ولانه يختلف عن ايام العرب التي كان طرفاها من العرب . ويـوم ذي قـار هو معركة وقعت بين العرب و الفرس ، ولقد سبق ان بينا كيف كان الفـرس و الروم حماة للقبائل العربية من لخم و غسان وسادة لهم وذات يوم غضـب كسري على النعمان بن المنذر ملك الحيرة بسبب رفضه ارسال نسـاء مـن العرب إلى كسري وعمل على التخلص منه ، وارسل اليـه يسـتدعيه إلـى المدائن ، وتوجس النعمان شرا ، ولهذا اودع دروعه وسلاحه ونسـاءه عنـد هاني بن مسعود الشيبانى ، وتوجه إلى كسري فقتله وولى الحيرة اياس بـن قبيصة وطالبه بالحصول على اموال النعمان ، ورفض هـانى بـن مسـعود ذلك،فارسل اليه كسرى بجيش قوي فيه اهل الحيرة ، واجتمعت ربيعة ومعـها قبائل العرب عند ماء يقال له " ذي قار " وفى ذلـك اليـوم حميـت النخـوة العربية ، وحاربوا بشجاعة ، وانضم اليهم عرب الحيرة الذين اوقعوا الهزيمـة في صفوف الفرس بهربهم ، وسقط الفرس بين قتيل واسير وهزموا هزيمـة منكرة لاول مرة في تاريخهم ، وكان ذلك اليوم اول يوم تتحد فيـة القبـائل العربية تحت شعار جنسهم العربى ، وعلق الرسول عليه السلام علـى ذلـك بقوله " هذا اول يوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا " [٧٢].

احوال العرب الاجتماعية :

اذا كانت القبيلة هى وحدة الحياة الاساسية في المجال السياسي عنـد العرب فهى كذلك في المجال الاجتماعى ، وتشـكلت القبيلـة اساسـا مـن

---

[٧٢] ابن الاثير : ج١ ص ٢٨٥ – ٢٩١ ، اليعقوبي ص ١٧٥ – ١٧٦ والطبري ج٢ ص ١٩٣ – ٢١٢ .

جمهورها الصرحاء ، اى ابناؤها غير المخلطين والذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم ، ويسعون بالحفاظ على سمعة القبيلة و يدافعون عنها ويتعصبون لها .

والى جانب الصرحاء ضمت القبيلة طبقة الموالى وتضم الحلفاء والعتقاء ولهذه المجموعة نفس حقوق المجموعة الاولى وعليها واجباتها اما الرقيق الذين يشترون من الاسواق و يجلبون عن طريق الاسر في الحروب، فلا يتمتعون بحقوق كثيره و اثقل كاهلهم بالواجبات و عهد اليها بالاعمال التي انف العرب من القيام بها .

الاسره هي بيت العربي و ملاذه ، ولقد عرف العربي بحبه لاسرته وحمايتة لها و تعبه في سبيلها ، واذا كان العربي متعلقا بقبيلته فهو باسرته اكثر، واذا كان وفيا بقبيلته فهو لاسرته اوفى .

ولقد قامت الاسره قبل الاسلام على الزواج ، وان وجدت عدة انواع من الزواج حرمها الاسلام فيما بعد الا زواج البعولة او الصداق هو الذي اقره و ابقى عليه ، ومن انواع الانكحهة التي حرمها الاسلام وكانت سائدة في الجاهلية مايلى :

١- نكاح الاستبضاع :

وهو ان يسمح الرجل لزوجته بمجامعة رجل مشهور ويعتزلها حتى يتبين حملها منه ، وينسب المولود إلى الزوج الاصلى ، وكان يقصد بذلك - في زعمهم - الحصول على نجابة الولد .

٢- **نكاح الرهــط :**

وهو أن يجتمع رهط ما دون العشرة فيصيبون أمراه ، فــإذا حملــت انتظرت حتى تضع مولدها ثم ترسل إليهم فتجمعهم في بيتها و تخبرهم بمـــن سوف تنسب طفلها من بينهم ، ولا يستطيع أن يمتنع عن قبول ذلك وخاصـــة أن كان المولود ذكرا .

٣- **نكاح المقــت :**

كان الرجل منهم إذا مات عن أمرأه أو طلقها قام اكـــبر بنيــه مــن غيرها فان كان له فيها حاجة طرح ثوبه عليها ، وان لم يكن لـــه فيـــها حاجة تزوجها بعض اخوته بمهر جديد .

والى جانب هذه الانواع كان هناك زواج المبادلة و نكاح المتعة .

وعرفت الاسره فيما قبل الاسلام تعدد الزوجات والطلاق الذي كـــان بيد الرجل في معظم الاحيان وبيد المراه في بعض الاحيان (٧٣).

---

٧٣ اعتمدت في ذلك على كتابات د. عبد الفتاح على شحاته : دراسات في تاريخ العرب وصدر الاسلام ص ١١٣ - ١٢٠ وانظر ايضا عبد العزيز سالم - تاريخ العرب ص ٣٩٤ .

ومن البديهى في هذا المجتمع القبلي البدوي ان يتمتع الرجل بسلطات اكثر من النساء ، ولكن ذلك لايعني - كما يدعي كثيرون وخاصة المستشرقون - ضياع حقوق النساء تماما ، ولدينا من احداث تاريخ العرب قبل الاسلام ما يدل على مكانه عالية للمراه ، ولولا الخشية من الاطالة لاوردنا كثيرا من الامثله[٧٤].

عرف عن العرب حبهم لابنائهم ورعايتهم لهم ، وخاصة البنين وكانوا يربونهم على النخوة و الشجاعة وكيفية مواجهة متطلبات الحياة على عصرهم . وهنا يجب ان نشير إلى نقطة هامة اتسمت بها حياة العربي في الجاهلية قبيل الاسلام . وتتناقض مع قولنا بان العربي محب لابنائه وهذه النقطة هي واد البنات ، التي اشار اليه القران الكريم ونود التاكيد بناء على كل كتابات المتخصصين والباحثين ، ان هذه الظاهره لم تكن عامة والا لانقرض الجنس العربي خلال حقبه معينة ، وانما وجدت هذه السوءة عند بعض الناس في بعض القبائل العربية . و انها كانت في طريقها إلى الانقراض حتى جاء الاسلام فقضي عليها نهائيا[٧٥].واسباب واد البنات متعدده ، منها اقتصادي وهو خشية الفقر و منها ما يتعلق بغيرة العربي على نسائه وبناته وخشية من وقوعهن في ايدي الاعداء ومنها ما هو خلقى كان تكون المولودة مشوهة لو وقعت موقعا غير حسن من والدها [٧٦]، وجاء

---

٧٤ من يرغب في الاطلاع على جزء من مكانة المراه العربية في التاريخ فليقرا كتاب عبد الله عفيفي " المراه العربيه في جاهليتها و اسلامها " ٣ أجزاء وكتاب الدكتور عبد العزيز سالم ، السابق الاشارة اليه من ص ٣٩٤ وما بعدها .

٧٥ عبد الفتاح شحاتة : المصدر السابق ص ١٠٩ - ١١٢ .

المولودة مشوهة لو وقعت موقعا غير حسن من والدها [٧٦]، وجاء الاسـلام فحرم ذلك تحريما قطعيا في اكثر من ايه من ايات القران[٧٧].

ومن حضارة العربي الاجتماعية حبه للحريه و ميله للكرم ومحبتـه للانطلاق والشهامة والرجولة والوفاء بالوعد والنجـدة والـى جـانب هـذه الصفات الحسنة ومكارم الاخلاق نجد ان للعربي صفات اخرى هذبها الاسلام وحاربها وعمل على القضاء عليها ما امكن ومنها التمسك بالثار والقتال لاتفـة الاسباب ، وشرب الخمر ، ووأد البنات ، ولعب الميسر .

الحياة الاقتصادية :

قامت الحياة الاقتصادية في وسط شبه الجزيرة العربية على عـاملين اساسيين هما الرعى و التجارة بالإضافه إلى الزراعة في بعض المناطق التي غزرت بها المياه اما الصناعات فكانت يدوية و قليلة .

كان المناخ و قلة الامطار سببا في ندرة الغطاء النباتى ، ومـن هنـا احترف العرب الرعى ، وقاموا بتربية الحيوانات التـي لايتطلـب وجودهـا كميات وافرة من الماء او الخضراوات مثل الاغنام والماعز ، واهتموا بتربيـة

---

[٧٦] انظر عبد العزيز سالم : المصدر المشار اليه الصفحـات مـن ٣٩٤ – ٤٠٢، وعبـد الفتاح شحاته في كتابه المشار اليه ص ١٠٨ – ١١١ .

[٧٧] يقول الله تعالي في كتابه الكريم في سورة التكبير " واذا المؤودة سئلت باي ذنب قتلت " (الايتان ٨،٩) ، ويقول في سورة الاسراء : " ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحـن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا " (الاية ٣١) ويقول في سورة الانعام : " قـد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلـوا وما كانوا مهتدين " الاية ١٤٠) .

الجمال على اساس انها اقدر الحيوانات على السير على الرمال وتحمل جو هذه المناطق القائظ ، اما الخيل فكان اهتمام العرب بها اهتماما بالغا وذلك لاستخدامها في القتال والسباق والتنقل . وكذلك اشتهر العرب في الجاهلية بالتجارة حتى قيل " ان كل عربي تاجر " .

وكانت شبة الجزيرة تمثل بحرا واسعا تخترقه قوافل الابل وكانت تتبع المسالك المعروفة حيث يتوافر الماء ، وكان هناك طريقان رئيسين للقوافل احدهما من الشمال إلى الجنوب غير بعيد عن البحر الاحمر وهو في الشمال يتفرع إلى الشرق تجاه سوريا . والى الجنوب الغربى تجاه فلسطين ومصر وهو في الجنوب يسير شوطا مع ساحل حضرموت .

اما الطريق الثانى فهو يخترق الجزيرة العربية من البحر الاحمر إلى الخليج الشرقي مارا بمكة . ويتفرع في قلب الجزيرة فرعين احدهما يتجه إلى الشمال الشرقي فيصل شط العرب ويتجة الاخر إلى الجنوب الشرقي ويسير هذا مع الخليج العربي مارا بدبي ومسقط وظفار[٧٨].

هذا وقد تعود اهل مكة على القيام برحلتين تجاريتين سنويا احداهما صيفا وتتجه إلى شمال بلاد الشام والاخرى شتاء وتتجة جنوبا إلى بلاد اليمن وحدثنا القران الكريم عن هاتين الرحلتين [٧٩] .

---

[٧٨] احمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ص ١٢٤ .

[٧٩] سورة قريش

علاوة على ذلك شهدت شبه الجزيره عدة اســـواق مشـــهوره كـــان العرب يجتمعون فيها للتجاره مثل سوق عدن والذى كان يقام في اول يوم في رمضان ومنها يحمل الطيب إلى سائر الافاق ثم سوق صنعاء في النصف من شهر رمضان ، ثم سوق عكاظ باعلى نجد فـــي ذى القعـــدة ثـــم ســـوق ذى المجاز، ولقد احصاها اليعقوبى عشرة اســـواق و بيـــن اهميـــة كـــل منـــها وتاريخه[٨٠].

الاحوال الفكرية :

مثل الشعر اكثر جوانب الحياة الفكرية عند العرب اشـــراقا ، ولقـــد ساعد على ذلك طبيعة بلاد العرب الفسيحة والتى منحـــت الخيـــال العربـــي انطلاقا لامثيل له إلى جانب الصراع القبلى الذي كان عاملا حاسما في شـــحذ قرائح الشعراء لكى يمدحوا ويهجوا ، واتسعت مجالات قول الشعر إلى جانب ذلك فكان هناك الوصف والفخر والرثاء ووصف الاطلال إلى جانب اشـــعار الحب .

وشهدت ارض الجزيرة ايضا مجالات فكرية عملية مثـــل صناعـــة الطب والتى انتقلت اليها بتاثير الفرس والرومان حيث نقل اطباء العرب قبـــل الاسلام وعلى راسهم الحارث بن كلدة هذه العلوم[٨١] .

ولعبت الاسواق العربية دورها في اذكاء الحركة الفكرية عند العـــرب ولست ابالغ اذا وصلنا إلى القول بان الحياة الفكرية قد وصلـــت إلـــى قبيـــل

[٨٠] اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج١ ص ٢٢٦ – ٢٢٧ .
[٨١] محمود دياب : الطب والاطباء ص ٦ .

الاسلام إلى درجة من الرقى كافيه لان تتقبل الديانه الاسلامية وتتفهمها ، وليس من شك ان القران كنص معجز سواء من ناحية البناء اللغوي او بلاغة التعبير يشهد بان العقلية العربية التي استطاعت ان تتذوقه ، وان تفهم الفرق بينه وبين ما ينظمون من اشعار او اقوال ، قد وصلت إلى درجة طبيعية من الرقى الفكرى والنضوج العقلى .

الاحوال الدينية :

ليس من هدفنا هنا دراسة اديان العرب القديمة البائدة والتى اشار القران إلى الانبياء الذين ارسلوا لاصلاحها و هدايتها ، كما انه ليس مطلوبا الان دراسة اديان الحنيفية التي بشر بها نبي الله ابراهيم عليه السلام ومدي انتشارها بين العرب .

وسنركز الحديث على العبادات التي كانت سائدة قبيل الاسلام حيث نجد ان الغالبية العظمى من عرب شبة الجزيرة العربية كانوا يعبدون الاصنام ويكاد المؤرخون العرب على ان عمر بن لحي هو الذي بدا عبادة الاصنام بين العرب ، فيقال انه كان قد خرج إلى ارض الشام في بعض اموره فلما قدم مآب من ارض البلقاء ، راهم يعبدون الاصنام فقال لهم : ما هذه الاصنام التي اراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه اصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا . قال لهم : الا تعطونى منها صنما فاسير به إلى ارض العرب فيعبدونه ، فاعطوه صنما يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وامر الناس بعبادته و تعظيمه[٨٢].

[٨٢] ابن كثير : البداية و النهاية ج١ ص ١٨٧ - ١٨٨ ، ابن هشام ج ١ ص ٧٢ .

ويعطى ابن إسحاق تفسيرا اخر لعبادة العــــرب الاصنـــام فيقـــول : ويزعمون ان اول ما كانت عبادة الاصنام عبادة الحجارة في بني اســــماعيل انة كان لايظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم ، والتمسوا الفســح في البلاد ، الا حمل لهم حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نـزل وضعوه فطافوا بهم طوافهم بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى ما كانوا يعبـدون ما استحسنوا من الحجارة واعجبهم ، حتى خلف الخلوف ونسوا مــــا كـــانوا عليه ، واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الاوثان ، وصــــاروا إلى ما كانت عليه الامم قبلهم من الضلالات(٨٣).

وكانت اصنام العرب في الجاهلية على اشكال متنوعة فمنها ما كـــان على صورة الانسان، ومنها ما كان على صورة الحيوان ، والاصنام تصنــــع من مواد مختلفة ، فبعضها يصنع من الخشب ، وبعضــــها مـــن الحجـــاره ، وبعضها الاخر من مواد شتى ، وقد يكون الصنم من مواد طبيعية عبدها عـن اجداده(٨٤).

واشهر أصنام العرب . ود الذي كانت تعبده قريش وســــواع الــذي كانت تعبده هذيل ويغوث في بلاد مذحج وهوازن .

والى جانب الأصنام عبد العرب بعض مظاهر الطبيعة واعتقدوا فــي السحر والكهانه .

---

[٨٣] ابن هشام ج١ ص ٧٢ .

[٨٤] عبد العزيز سالم : المصدر المذكور ص ٤١٣ .

اما الديانتان اليهودية والمسيحية فقد وجدتا مراكز لهما في جنـــوب وشـــمال الجزيره وتسربتا إلى الداخل دون ان ينتشرا بين العرب وكلـــن اثرهـــا فـــي غرب شبة الجزيره يتمثل في اثاره الجدل حول ماهية الأصنـــام وحقيقتـــها ، مما دفع بعض العرب إلى الشك في عبادتها والعوده إلى دين ابراهيم الخليـــل عليه السلام ، وعرف هؤلاء النفر بالحنفاء .

كانت هذه الظروف التي وجدت في شـــبه الجزيـــرة العربيـــه قبيـــل الاسلام وهى الفترة التىاختارها الله سبحانه وتعالى لكى يمنح الارض ســـلامة واسلامه ودينه الجديد .

نصوص للقراءة

من كتاب (الأوائل) لأبي هلال العسكري المتوفى في حدود ٣٥٩ هـ

أول ما تحرك أمر قريش

واخذ شانهم يرتفع وذكرهم ينتشر حين قدم قصي مكة عند أمه فاطمة بنت سعد بن شبل الأزدى أزد شنوءه وكان كلاب أبو قصي تزوجها فولدت له زيدا (وهو قصي) وزهرة ثم هلك كلاب وزهرة قد شب وزيد صغير فقدم ربيعه بن خزام العذرى مكة فتزوج فاطمة وحملها إلى قومه وحمل زيدا لصغره فولدت فاطمة لربيعه رزاحا وشب زيد فسمته قصيا لبعد داره - والقصو البعد - فنازع رجلا من عذرة فقال له العذرى الحق بقومك فسلت منا فأتى أمه فسألها عن قومه فأخبرته بما كان من أمرها وأمره فشخص مع الحجاج إلى مكة فلم يلبث ان اجتمع مع أبي غبشان سليم بن عمرو الخزاعى على شراب فلما سكر أبو غبشان اشترى منه قصي ولاية البيت بزق خمر وقعود فقيل اخسر من أبي غبشان واحمق من أبي غبشان واندم من أبي غبشان فجرت أمثالا . قال بعضهم :

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت	بزق خمر فبئست صفقة البادي
باعت سدانتها بالخمر وانقرضت	عن المقام وظل البيت و النادي

وقال آخر :

باعت خزاعة بيت الله صاحبه	بزق خمر فلا فازوا ولا ربحوا

فتحزبت خزاعة على قصي فاستنصر أخاه من أمه رزاحا فاقبل بمن معه وجمع قصي كنانة فنفوا خزاعة عن مكة وجمع قريش من رؤوس الجبال وشعابها فانزلهم الابطح فسمى مجمعا قال مطرود :

قصي أبوكم كان يدعى مجمعا	به جمع الله القبائل من فهـــــر

ففتش قصي عن اجله قومه فسمى قريش والتقريش التفتيش قال الحرث بن حلزة :

أيها المبلـغ المقـــرش عنـــا	عند عمـــرو وهـــل لذاك بقـــاء

وقيل كان قريش اسما للنضر بن كنانة واشتقاق من التقرش وهو التكسب وكانت قريش تجارا ، وقيل التقرش التجمع ، وكانت صوفة تجيز الناس من عرفة إلى جمع ومن جمع إلى منى ، فإذا رمى الناس الجمار أخذت ناحية العقبة ، فيقولون أجيزي صوفة ، فلا يجوز أحد حتى تجوز صوفة ، وكانوا يرون ذلك دينا ، فاعترضهم قصي بمن معه وانهزمت صوفة وخلت مكة والمواسم لقصى فكان أول من نال الملك من ولد النضر بن كنانة فقال رزاح بن ربيعة :

جلبنـــا الخيـــل مضمـــرة تعـــادى	من الأعراف أعراف الجناب
إلى غـــوري تهامـــة قادرينـــــا	بنى الذفراء في قاع ببــــاب
وقـــام بنـــو علـــى إذ رأونـــــا	على الأسياف كالإبل الظراب
فأمـــــا صوفـــة الخنثـــى فخلـــوا	منازلهم محـــاذرة الضـــراب

فلما استوى أمر مكة لقصي بنى دار الندوة فكانت قريش تقضى فيــها أمورها فلا تنكح ولا تشاور في أمر ولا حرب إلا فيها وهى دار الإمـــارة ، وبابها في المسجد حيال الكعبة .

ثم قال لقريش انتم جيران الله والحجاج زوار الله فهم اضيافه و أحــق الاضياف بالكرامة اضيافه فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحــج ، ففــرض عليهم فرضا يدفعونه إليه ، فيصرفه في إقامة الحجاج فجرى ذلك إلى اليــوم إلا أن الخلفاء هم الذين يقيمونها .

وكان قصي في زمن بهرام جور وهو بهرام بن يزدجرد وقصى أول من احتفر بالابطح سقاية للحجاج وسماها العجول وقال :

سقـــى الله العجــول برغــم عــاد وكانت من زيادته العجولا

فلم يزل يشرب منها حتى سقط فيها رجل من بنـــى جعيــل فعطلــت وكانت زمزم زمن جرهم وهو أول من ثرد الثرد بعد إبراهيم عليــــه الســـلام وعاب بعض الشعوبية العرب باتخاذ الثريد وقال : لابد أن يفضل من العــوب إذا أكلوا فضلة مرق تجعل لمسكين قال : فأرادت العرب إلا يبطل عليهم ذلك فثردوا فيه قال : وليس من طعام العجم . واحتج بما اخبرنا به أبو احمد بـــن الحسين بن عبد الله بن سعيد عن الجلودى عن محمد بن ذكريا عن محمد بــن عبيد الله بن محمد بن على قال : قال حصين لفيروز احب ان أتغذى عنـــدك قال فما تشتهى قال ثريدا قال إني اكره أن أضع على مائدتي طعــام الكــلاب ولكنى أتحمل ذلك لك .

قال أبو هلال أيده الله تعالى : لو كان الثريد طاعما خبيثـــا مكروهـــا لكان ما يقال فيه شائعا ، فأما وهو طعام مشتهى طيب فلا اعـــتراض علـــى العرب في اتخاذ طعام طيب وليس ترك العجم إياه قدحا فيه فكم مـــن شـــئ مختار قد تركته العجم غفلة عنه أو جهلا به ، وليس ثردهم في المرق يـــدل على انهم أرادوا منع ما يفضل منه .

أول من اخذ ألايلاف لقريش هاشم بن عبد مناف :

والايلاف كتاب أمان يؤمنهم بغير حلف . فأما الولاف فتدارك لمعـــان البرق ولا يكاد يخلف . والالاق بالقاف إن يلمع لمعة بعد لمعة وربما اخلـــف اخبرنا غير واحد عن ابن دريد وغيره عن أبي حاتم العبثي ومحمد بن ســـلام قال : كانت قريش تجارا وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ومـــا حولـــها فخـــرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر وكان يذبح كل يوم شاة ويصنـــع جنفة ثريد ويدعو من حوله . وكان من أتم الناس واجملـــهم فذكـــروا ذلـــك لقيصر فاحضره فلما رآه استجهره وكلمه فلما رأى مكانه عنده قـــال : أيـــها الملك إن قومي تجار العرب فان رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمنـــهم فيقدمـــون عليك بما تستخلف من أمتعة الحجاز فيكون ارخص لكم ،فكتب كتاب أمـــان لمن يخرج منهم فخرج هاشم به فكلما مر بحي من العرب اخذ من أشـــرافهم الأمان حتى قدم مكة فاتاهم بأعظم شئ أوتوا به قط بركة . فخرجوا بتجـــارة عظيمة وخرج معهم هاشم يجوزهم ويوفيهم ايلافهم حتى ورد بهم الشام وفـــى ذلك يقول القائل :

تحمـــل هاشـــم مـــا ضـــاق عنـــه   وأعيا ان يقوم به ابن فيض

ثم خرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فليأخذ من ملوكـــهم عـــهدا لمن اتجر إليهم من قريش وكان اكبر ولد أبيه ويسمى الفيض وهلك بردفـــان من اليمن . وخرج عبد شمس بن مناف إلى ملك الحبشة واخذ لهم ايلافا ثـــم ورد مكة وهلك بها وقبره بالحجون ، وخرج نوفل بن عبـــد منـــاف وكـان اصغر ولد أبيه فاخذ لهم عهدا من كسرى ثم قدم مكة ورجـــع إلـــى العـــراق فمات بسلمان فاتسعت قريش في التجارة وكثرت أموالها فبنـــو عبـــد منـاف اعظم قريش بركة في الجاهلية والإسلام وفيهم يقول الشاعر :

كانـــت قريـــش بيضـــة فتفلقـــت فالمح خالصه لعبد مناف

وكان هاشم يسمى أبا فضلة ، واسمه عمرو وروى بعـــض الشـــيوخ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال خرجت وجماعة من قريـــش إلـــى العراق في تجارة فلما دنونا من الأرياف خرج قوم فقطعـــوا علينـــا فدخلنـــا المدائن مخففين قال : فكنت أطوف بها اطلب رجلا يفـــهم عنـــى مـــا أقـــول فاسترشده في امرنا فلا أجد حتى مررت بصائغ سقطت مطرقته فقال بسم الله أخذها فدنوت منه فذكر انه نصراني من أهل الحيرة فشكوت إليه مـــا لقينـــا فقال سر إلى باب الملك فان المتظلم لا يمنع منه فلما أدخلت إليـــه وذكـــرت امرنا دفع لي ألف درهم وأخرجت فعدت في اليوم التالي فتكلمت فدفـــع إلـــى ألف درهم أخرى وأخرجت وكذلك في اليوم الثالث فلما أمرت بالخروج وقـــد دفع إلى ألفا أخرى اومات إليه إني لم احضر لطمع فعلم ان الترجمان يخـــون ويؤدى خلاف ما أورد عليه فاحضر ترجمانا آخر فادى ما قلـــت فقـــال : لا تبرحوا البلد فلم نلبث إلا قليلا حتى أدخلنا إليه فإذا اللصـــوص والترجمـــان مكتوفون بين يديه أمتعتنا موضوعة فقيل لنا منها قلنا مقرعة فطالبـــهم بـــها فقالوا لا نعرف لها موضعا ونعوضهم عنها مقرعة فضه ثـــم اشـــترى منـــا

تجارتنا بربح وافر فذكرت ما أعطيت في الأيام الثلاثة فقيل هي لك لا يسترد ما أعطيناه و أقمنا حتى أصلحنا أمورنا وخرجنا فإذا اللصوص والترجمان مصلوبون في المكان الذي قطعوا علينا فيه .

أول من سن الدية مائلة من الإبل عبد المطلب :

اخبرنا جماعة من مشايخنا قالوا : لقي عبد المطلب من قريش أذى كثيرا حين أقام سقاية زمزم وحسدوه حسدا شديدا لانصراف الناس إليها عن غيرها لمكانها من المسجد الحرام ولأنها بئر إسماعيل عليه السلام فنذر لئن ولد له عشرة نفر بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة فلما توافى بنوه عشرة جمعهم ثم اخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله به فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل منكم قدحا وليكتب عليه اسمه ثم ليأتني به ففعلوا فدخل بهم على هبل وكان اعظم أصنام قريش يضربون عنده بقداحهم لحوائجهم فقال عبد المطلب للسادن : اضرب على بني هؤلاء بأقداحهم ودخل الكعبة فقام يدعو الله فضرب عليهم القدح على عبد الله وكان احب ولده إليه وكان هو وأبو طالب لفاطمة بنت عمرو ابن عابد المخزومي فاخذ عبد المطلب بيده واخذ الشفرة ثم اقبل به إلى آساف ونائلة وهما وثنا قريش اللذان تنحر عندهما ذبائحهم ليذبحه فقامت إليه قريش فقالوا : لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا ولو كان فداه أموالنا افدينا وانطلق إلى الحجاز فان فيه عرافة فاستخراها فانطلق حتى قدم عليها فقالت : كم الدية فيكم ؟ قال : عشر من الإبل قالت : فارجع إلى بلادك ثم قرب صاحبك وعشرا من الإبل واضربن عليه وعليها بالقداح فان خرجت عليه فزده عشرا من الإبل حتى يرضى ربك فان خرجت على الإبل فانحرها عنه فقد رضى ربك ونجى ولدك فخرج حتى أتى مكة ثم قرب عبد الله وعشرا من الإبل وضرب

فخرجت القداح على عبد الله فزاد عشرا فما زال يزيد حتى بلغت الإبل مائـــة فخرجت القداح على الإبل فقالت قريش :قد انتهى رضى ربك فقال : والله مـــا انتصفت ربى خرجت على عبد الله تسع مرات فلم اذبحه وخرجت على الإبل مرة فاذبحها لا والله حتى اضرب عليها ثلاث مرات فضربوا فخرجت القـداح على الإبل فنحرت ثم تركت لا يصد عنهــا بائس ولا سبع وولد رســـول الله صلى الله عليه وسلم بعد خمس سنين من هذه القصة .

أول من سن الدية كذلك النضر بن كنانة :

وذلك انه قتل أخاه فوداه مائة من الإبل فجرت سنة .

وقال أبو اليقظان : أول من سنها كذلك أبو سيارة العدواني وهو الـــذي كـــان يفيض بالناس من المزدلفة إلى منى على حمار اسود أربعيـــن ســـنة فقـــالت العرب : اصح من عير أبي سيارة فجرت مثلا قال وكان من دعائــــه الـــهم حبب بين نسائنا وبغض بين رعاتنا واجعل المال في سمحائنا وكان خالد بـــن صفوان والفضل الرقاش يختاران ركوب الحمير ويجعلان أبا ســـيارة قـــدوة فيه. قال بعضهم لخالد وهو على حمار ما هذا الركب ؟ قال : عير من نســـل الكداذ أضم السربال مفتول الاجلاد محملج القوائم يحمل الرحلة ويبلغ العقبـــة ويقل داؤه ويخف دواؤه ويمنعني أن أكون جبارا في الأرض أو أكـــون مـــن المفسدين ولولا ما في الحمار من المنفعة ما امتطى أبو سيارة ظـــهر عـــير أربعين سنة .

أول من خضب بالوسمة من قريش عبد المطلب :

حدثنا الشيخ أبو احمد قال حدثنا محمد بن يحي عــــن الفضـــل بـــن الحباب عن الرياش عن العتبى قال وفد عبد المطلب على بعض ملوك اليمـــن فرآه قد شاب فأمر اه بخضاب اسود فاختضب بها فلما رآه عبد المطلب حسنا قال :

فلو دام لي هــذا الشبـــاب حمدتـــه	وكان بديلا من حبيب قد انصرم
تمتعــت منـــه والحيـــاة قصيـــرة	ولا بد من موت يليه أو هـــرم

أول ما عظم أمر قريش آل الله وقرابينه :

حين هزم الله جيش الفيل وكان من أول حديثهم أن تبعا دخـــــل فـــي اليهودية في أيام قباذ وكان لدوس رجل من يهود نجران ضيعة يخرج بنــــوه إليها ليلا فيجرون فيها من الماء اكثر مما يخصهـــا فاجتمعت نصارى نجران فقتلوهم وطلبوا أباهم دوسا فأعجزهم فقالوا له أقبل فقال : لا يقبل المرء علـــى الموت فذهبت مثلا فقالوا : إلى أين عن لهوك وغنائك ؟ فقال الأحياء يعون . فسار حتى دخل على ذي نواس وكان تهود فشكى إليه ما أصيب به فخــــرج إلى أهل نجران فحاصرهم ثم عاهدهم فلما تمكن منهم أوقع بهم وهم مفـــترون فلم ينج منهم إلا الشريد ، فلحق بعضهم بالنجاشي ومعه الإنجيل قـــد احـــرق أكثره فلما رآه ساءه فكاتب ملك الروم بذلك واستدعى من جهته سفنا يحمــــل فيها الرجال إلى اليمن وبلغ ذلك ذانواس فصنع مفاتيح كثيرة فلما دنــــا منـــه جيش الحبشة أرسل إليهم بها ، وقال هذه مفاتيح خزائن اليمن فخـــذوا المـــال والأرض ، وانا طوع لكم فاطمأنوا وتفرقوا في المخاليف يجبون فأرســـل ذو نواس إلى المقاولة إذا كان يوم كذا فاذبحوا كل ثور اسود فيكم فعلموا الــــذي أراد فقتلوهم فلم يبق منهم إلا القليل وبلغ النجاشي ذلك فجهز إليهم سبعين ألفــا

عليهم ابرهه ومولى بن حزام وامرهم إلا يقبلوا صلحا فعلم ذو نواس انــــه لا قبله بذلك.

ومن أوائل أفعالهم حلف الفضول

اخبرنا أبو احمد قال اخبرنا أبو عمر القاضي قال حدثنا عبد الله ابـــن شبيب عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن عروة عن حكيم ابن حـــزام وأخبرناه عن الطوس عن الزبير بن بكار عن رجل عن محمد بن حسن عـــن محمد بن فضالة عن هشام بن عروة عن عائشة وأخبرناه عن أبي بكـــر بـــن دريد عن أبي حاتم عن أبي عبيده يزيد بعضهم على بعض فجعلت أحاديثـــهم حديثا واحد ان رجلا من بنى زبيد من مذحج قدم مكة بســـلعة فباعـــها مـــن العاص بن وائل وكان شريفا فظلمه ثمنها وابت الأحلاف عبد الدار ومخـــزوم وجمع ان يعينوه عليه فاوصى الزبيدى على أبي قبيس عند طلـــوع الشـــمس وقريش حول الكعبة فصاح بأعلى صوته

يا آل فهـــر لمظلـــوم بضاعتـــه ببطن مكـــة نائي الـــدار والنفـــر
ومحرم شعث لم يقض عمرتـــه يا للرجال وبين الحجر والحجـــر
هل مخفر من بنى سهم لحضرته فعاذل أم ضـــلال آل معتمـــــر
ان الحرام لمن تمت حرامتـــه ولا حرام لثوب الفـــاجر الغـــدر

فقال الزبير بن عبد المطلب ما لهذا مترق فاجتمعت زهرة وتيم وأسـد في دار عبد الله بن جدعان وصنع لهم طعاما فتحالفوا ليكونن يدا على الظـــالم للمظلوم حتى يردوا حقه إليه وعلى التآسى في المعاش فقالت قريش قد دخـــل

هؤلاء في فضل من الأمر ثم اتو العاص بن وائل فانتزعوا سلعة الزبيدى من يده فدفعوها إليه وقال الزبير وكان صاحب هذا الحلف :

ان الفضول تحالفــوا وتعاقــدوا ألا يبيت ببطن مكة ظالم

وورد رجل من خثعم ومعه بنت له يقال لها القتول من احسن النـــاس وجها فعلقها نبيه بن الحجاج وغلب عليها أبويها فأتي أبوها حلــف الفضــول فحالوا بينها وبينه قال نبيه اتركوها عندي الليلة فقالوا ما اجــهلك ولا شــخب ناقة فقال نبيه :

لولا الفضول وحلفها والخوف من عدوانها
لدنوت من أبياتهــا ولطفت حول خبائها
وشربت فضلة ريقها وانمت في أحشائها

وقال :

راح صحبي ولم أحي القتولا لم أودعهم وداعــا جميــلا
إذا بدا للفضول ان يمنعوها قد أراني ولا أخاف الفضولا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد شهدت مع عمومتي في دار ابـن جدعان من حلف الفضول ما لو دعيت عليه اليوم لأجبــت ومــا احــب ان سينقضي ولى حمر النعم . ثم كان بين الحسين عليه السلام وبين معاوية كلام في ارض الحسين فقال الحسين لابن الزبير خيره في ثلاثة وأربعة الصلــح : ان يجعلك أو ابن عمر بيني وبينه ، أو يقر بحقي ثم يسألني ان أهبه لــه ، أو يشتريه منى فان أبي فوالذي نفسي بيده لاهتفن عليه بحلف الفضول فقال ابـن الزبير : والله لئن فعلت وانا قاعد لاقومن أو قائم لامشين أو مــاش لاشــتدن

حتى تفنى روحي مع روحك ثم خيره بين ابن الزبير أو ابـــن عمـــر فقـــال معاوية لاحاجة لنا في الصلح واشتراها منه هكذا رواه لنا أبـــو احمـــد عـــن الطوسى بإسناده الذي تقدم ورواه لنا أيضا في كتاب أمـــر المدينـــة ان هـــذه القصة كانت للحسين مع الوليد بن عقبة بن أبي سفيان وهو يلي المدينة

أول من أهدي البدن إلى البيت اليأس بن مضر :

وهو أول من وضع الركن بعد ذهابه فـــي الطوفـــان وقـــال بعـــض المفسرين إياه عنى الله تعالي في قوله " سلام على آل ياسين " يعني اليأس بن مضر وأهل دينه جميعهم " بالواو والنون " كان كل واحد منهم اليأس وقـــال بعضهم اليأس والياسين بمعني واحد كما تقول ميكال و ميكائيل و نرئ علـــى آل ياسين يعني محمدا صلي الله عليه وسلم .

أول من غير الحنيفية وبحر البحيرة و سيب السائبة وجعل الوصيلة والحـام عمرو بن لحي :

وهو عمر بن ربيعه أبو خزاعه وهو أول من ولى البيت منـــهم ثـــم رحل إلى قومه بالشام و رأي الأصنام تعبد فأعجبته عبادتها و قدم مكة بـــهبل ودعا الناس إلى عبادته والى مفارقة الحنفية فاجابه الجمهور واكثره من لـــم يجرسه حتى استمر له ما أراد منه وقال النبي صلى الله عليه وسلم اطلعـــت في النار فرأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فيها - والقصب المعـــا - وكـــان الأصل في عبادة الأوثان لن من الأوائل اعتقدوا ان الكواكب تفعـــل أفعـــالا تجرى في النفع والضر مجرى أفعال الآلهة على حسب ما يعتقده بعض أهـــل التنجيم فاتخذوا عبادتها دينا وأراد ماوكهم ورؤساؤهم توكيـــده فـــي أنفســـهم والزيادة فيه عندهم وذلك ان الملك يحتاج إلى الدين كحاجتـــه إلـــى الرجـــال والمال لان الملك لا يثبت إلا بالتبعية والتبعة لاتكون إلا بالأيمان والأيمـــان لا

يكون إلا لأهل الأديان إذ لا يصح ان يحلف الرجل إلا بدينه ومعبوده ومن لا يعتقد معبودا لا يوثق بيمينه ولا يطمان إلى عهده وعقده إلى غير ذلك مما يتعلق من أمر الملك بالدين فصنعوا لهم الأصنام على صور الكواكب التي يعبدونها بزعمهم ليشاهدوها من قرب فتحلوا في نفوسهم وتزكوا محبتها في قلوبهم ثم انتشر ذلك في اكثر الأرض وعم جل الأقاليم وسمعت المشايخ يذكرون ان بعض المراكب أخطأ السمت في بعض البحار حتى انتهى أهله إلى جزيرة وإذا فيها ناس لم يعرفوا قط ان في الأرض ناسا غيرهم وعرف بدلائل المكان ان أحدا منا لم يخلص إليهم قط وإذا هم يعبدون الأصنام ووقفوا من جهتهم بالإشارة إلى ان السبب الذي دعاهم إلى عبادتها هو الذي ذكرناه في أمر الكواكب وهذا من اعجب ما في هذا الكتاب والله اعلم .

وزعمت العرب إنها تعبد الأصنام لتشفع لها عند الله وهذا مثل ما حكى عن بعض السؤال انه كان يقول " اللهم ارزق الناس حتى يعطوني " فقال له أبو الحارث حميد : مالك تسأل الله سفتجة بالرزق سل الله يرزقك وكان ينبغي للعرب ان يعبدوا الله ليرحمهم ولا يحتاجون إلى إقامة شفيع .

وعمرو بن لحى أول من بحر البحيرة وسيب السائبة وجعل الوصيلة والحام .

والبحيرة :

الناقلة إذا نتجت خمسة أبطن فان كان الخامس أنثى بحروا أذنها أي شقوها وكانت حراما على النساء لحمها ولبنها وان كان ذكرا نحروه للإلهة ولحمه للرجال دون النساء .

والسائبة :

البعير يسيب بنذر يكون على الرجل ان سلمه الله من مرض أو بلغـه منزلة ان يفعل ذلك فلا يحبس عن رعى ولا ماء ولا يركبه أحدا .

والوصيلة :

من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن فان كان السابع ذكرا ذبـح فاكل منه الرجال والنساء وان كانت أنثى تركت وان كان ذكرا وأنثى قـالوا وصلت أخاها فلم تذبح لمكانها وكان لبنها وجميع منافعها حراما على النسـاء وان وضعته ميتا اشترك في أكله الرجال والنساء .

وقالوا السائبة : الأنثى من الإبل يسيبها الرجل لالهتـه ومـن البقـر والغنم فيكون ظهورها وأولادها وأصوافها واو بارها وأشعارها للإلهة وأبانـها للرجال دون النساء .

والحامي الفحل إذا ركب ولد ولده وقالوا إذا نتج من صلبـه عشـرة أبطن قالوا حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء .

حديث عمرو بن لحى وذكر أصنام العرب :

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمـرو بن حزم عن أبيه قال : حدثت ان رسول الله - صلى الله عليه وسـلم - قـال رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه في النار فسألته عمن بينه من الناس ، فقـال: هلكوا .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى ان أبـا صالح السمان حدثه انه سمع أبا هريرة : قال ابن هشام : واسم أبي هريـــرة عبد الله ابن عامر ويقال اسمه : الرحمن بن صخر - يقول : سمعت رســـول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لاكثم بن الجون اخزاعى : " يـــا أكثـم ، رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبة في النار ، فلمـــا رأيــت رجلا اشبه برجل منك به ، ولا بك منه . فقال أكثم : عسى ان يضرني شبهه يا رسول الله ؟ قال : لا ، انك مؤمن وهو كافر ، أنه كان أول من غير ديـــن إسماعيل ، فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ،ووصل الوصيلـــة ، وحمى الحامى " .

أصل عبادة الأصنام في ارض العرب وجلب الأصنام من الشام إلى مكة :

قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم ان عمرو بن لحى خرج مـــن مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم مآب من ارض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق . ويقال : عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح - رآهـــم يعبدون الأصنام . فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا لـــه : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقـــال لـــهم أفلا تعطونني منها صنما ، فأسير به إلى ارض العرب فيعبـــدوه ؟ فـــأعطوه صنما يقال له : هبل ، فقدم به إلى مكة فنصبــــه ، وأمـــر النـــاس بعبادتـــه وتعظيمه .

سبب عبادة الأصنام :

قال ابن إسحاق : ويزعمون ان أول ما كانت عبادة الحجارة في بنـــى إسماعيل انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حيـــن ضـــاقت عليـــهم ، والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجرا من حجـــارة الحـــرم تعظيمـــا

للحرم ، فحينما نزلوا وضعوه ، فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى ان كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلف الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه . واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان . وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة والوقوف على عرفة و المزدلفة ،وهدى البدن والإهلاك بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه . فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : " لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، إلا شريك هو لك، تملكه وما لك " فيوحدونه بالتلبية . ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكا بيده ، يقول الله تبارك وتعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - " وما يؤمن من أكثرهم بالله وهم مشركون " أي ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكا من خلقي " .

الأصنام عند قوم نوح :

وقد كانت لقوم نوح أصناما قد عكفوا عليها ، قص الله - تبارك وتعالى خبرها على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالوا : " وقالوا لا تذرون آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سوعا ، و لا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا " .

القبائل العربية وأصنامها :

فكان الذين اتخذوا تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم ، وسموا بأسمائهم حين فارقوا دين إسماعيل . هذيل بن مدركة بن اليأس بن مضر ، اتخذوا سواعا فكان لهم برهاط وكلب بن وبرة من قضاعة ، اتخذوا ودا بنومة الجندل .

قال ابن إسحاق : وقال كعب ابن مالك الأنصاري :

وننسى اللات والعزى وودا   نسلبها القلائد والشنوفا

قال ابن هشام : وهذا البيت في قصيدة له سأذكرها في موضعها ان شاء الله.
قال ابن هشام : وكلب بن وبرة بن تغلب بن عمران بن حلوان بن الحاف بن قضاعة .

عباد يغوث :

قال ابن إسحاق : وانعم من طيئ ، وأهل جرش من مذحج اتخذوا يغوث بجرش .

قال ابن هشام : ويقال . أنعم ، وطيئ بن أدد بن مالك ، ومالك : مذحج بن أدد ويقال ، طيئ بن أدد بن ذيد بن كهلان بن سبأ .

عباد يعوق :

قال ابن إسحاق : وخيوان بطن من همدان اتخذوا يعبوق بأرض همدان من ارض اليمن .

قال ابن هشام . وقال مالك بن نمط الهمدانى .

يريش الله في الدنيا ويبرى   ولا يبرى يعوق ولا يريش

وهذا البيت في أبيات له .

قال ابن هشام : اسم همدان : أوسلة بن مالك بن ذيد بن ربيعة بن أوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ويقال : أوسلة بن زيد بن أوسلة بن الخيار .

ويقال همدان بن أوسلة بن ربيعة بن مالك بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

نسر وعبادته :

قال ابن اسحق : وذو الكلاع من حمير اتخذوا نسرا بأرض حمير .

عباد عميانس :

وكان أخولان صنم يقال له : عميانس بأرض خولان ، يقسمون له من انعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله بزعمهم ، فما دخل في حق عميانس من حق الله تعالى الذي سموه له تركوه له وما دخل في حق الله تعالى من حق عميانس ردوه عليه . وهم بطن من خولان ، يقال لهم : الأديم، وفيهم انزل الله – تبارك وتعالى – فيما يذكرون : " وجعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون " .

قال ابن هشام : خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ويقال : " خولان ابن عمرو بن مرة بن أدد بن ذيد بن مهسع بن عمرو بن عريب بن ذيد بن كهلان ابن سبأ " ويقال : خولان بن عمرو بن سعد العشيرة بن مذحج.

سعد وعبادته :

قال ابن إسحاق : وكان لبنى ملكان - بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن اليأس ابن مصر - صنم يقال له : سعد : صخرة بفلاة من أرضهم طويلة ، فاقبل رجلا من بنى ملكان بابل له مؤبلة ، ليقفها عليه ، التماس بركته - فيما يزعم - فلما رأته الإبل وكانت مرعية لا تركب ، وكان يهراق عليه الدماء نفرت منه ، فذهبت في كل وجه ، وغضب ربها الملكانى ، فأخذ حجرا فرماه به ، ثم قال . لا بارك الله فيك ، نفرت على ابلى ، ثم خرج في طلبها حتى جمعها ، فلما اجتمعت له قال :

أتينا إلى سعد ، ليجمع شملنا فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا تدعو لغى ولا رشد

دوس وصنمهم : وكان في دوس صنم لعمرو بن حممة الدوسى .
قال ابن هشام : سأذكر حديثه في موضعه ان شاء الله .
ودوس بن عدثان بن عبد الله بن زهران بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك ابن نصر بن الأسد بن الغوث .

عباد هبل :

قال ابن إسحاق : وكانت قريش قد اتخذت صنما على بئر في جوف الكعبة يقال له : هبل .
قال ابن هشام : سأذكر حديثه ان شاء الله في موضعه .

اساف ونائلة :

قال ابن اسحق : واتخذوا اسافا ونائله ، على موضع زمزم ينحــرون عندهما ، وكان اساف ونائله رجلا وامرأة من جرهم - هو اساف بــن بغــى ونائلة بنت ديك - فوقع اساف على نائلة في الكعبة : فمسخهما الله حجرين .

حديث عائشة عن اساف ونائلة :قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بــن أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم . عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سـعد زرارة إنها قالت : سمعت عائشة – رضى الله عنها – تقول : مازلنا نســمع ان اسافا ونائلا كانا رجلا وامرأة من جرهم ، احدثا في الكعبة : فمسخهما الله تعالى حجرين والله اعلم .

قال ابن إسحاق : وقال أبو طالب :

وحيث ينيخ الاشعرون ركابهم   بمفضى السيول من اساف ونائل

قال ابن هشام : وهذا البيت في قصيدة له ، سأذكرها في موضعها ان شاء الله تعالى .

ما كان يفعله العرب مع أصنامهم :

قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يعبدونه فــإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حيــن يتوجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبداء بــه قبل ان يدخل على أهله ، فلما بعث الله رسوله محمدا - صلى الله عليه وسـلم - بالتوحيد " قالت قريش : " اجعل الآلهة آلها واحدا ، ان هذا لشئ عجاب ".

الطواغيت :

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب ، وتهدى كما تهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوفها بها ، وتنحر عندها ، وهى تعرف فضل الكعبة عليها ، كانت قد عرفت إنها بنت إبراهيم الخليل ومسجده .

العزى وسدنتها وحجابها :

فكانت لقريش وبنى كنانة العزى بنخلة ، وكانت سدنتها وحجابها بنو شيبان من سليم، خلفاء بنى هاشم .

قال ابن هشام : حلفاء بنى أبي طالب خاصة ، وسليم بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس بن عيلان .

قال ابن إسحاق : فقال شاعر من العرب :

لقد أنكحت أسماء رأس بقيرة	من الادم أهداها امرؤ من بنى غنم
رأى قدعا في عينها إذ يسوقها	إلى غبغب العزى فوسع في القسم

وكذلك كانوا يصنعون إذا نحروا هديا قسموه في من حضرهم ، والغبغب ، المنحر ومهراق الدماء .

قال ابن هشام : وهذان البيتان الأبي خراش الهذلى واسمه : خويلد بن مرة في أبيات له .

من أهم السدنة : والسدنة الذين يقيمون بأمر الكعبة . قال رؤبة بن العجاج :

فلا ورب الآمنات القطن   بمحبس الهدى وبيت المسدن

بمحبس الهدى وبيت المسدن

وهذان البيتان في أرجوزة له ، وسأذكر حديثـــها ان شـــاء الله تعـــالى فـــي موضعه.

اللآت وسدنتها : قال ابن إسحاق : وكانت اللآت لثقيـــف بالطـــائف ، وكـــان سدنتها وحجابها بنو معتب من ثقيف .
قال ابن هشام : واذكر حديثها ان شاء الله تعالى في موضعه .

مناة وسدنتها :

قال ابن إسحاق : وكانت مناة للاوس والخزرج . ومـــن دان بدينـــهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقدير .
قال ابن هشام : وقال الكميت بن زيد أحد بنى أسد بن مدركة :

وقد آلت قبائل لأتولى   مناة ظهورها متحرفينا

وهذا البيت في قصيدة له :

هرم مناة : قال ابن هشام : فبعث رسول الله – صلى الله عليه وســلم – إليها أبا سفيان بن حرب فهدمها ، ويقال : على بن أبي طالب .

ذو الخلصة وعباده وهدمه :

قال ابن إسحاق : وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ، ومن كـان ببلادهم من العرب بتبالة .

قال ابن هشام : ويقال : ذو الخلصة . قال رجل من العرب :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا   مثل شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

قال : وكان أبوه قتل ، فأراد الطلـب بثـأره ، فـأتى ذا ألخلصـة ، فاستقسم عنده بالآلام ، فخرج السهم بنهيه عن ذلك ، فقال هذه الأبيات . ومن الناس من ينحلها امرأ القيس بن حجر الكندي ، فبعث إليه رسول الله - صلـى الله عليه وسلم - جرير بن عبد الله البجلى فهدمه .

فلس وعباده وهدمه :

قال ابن إسحاق : وكانت فلس لطيئ ومن يليها بجبل طيـئ ، يعنـى سليمي وأجأ .

قال ابن هشام : فحدثني بعض أهل العلم ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث إليها على بن أبي طالب فهدمها ، فوجد فيها سيفين ، يقال لأحدهمـا : الرسوب ، والآخر : المحزم .

فأتى بهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوهبهما له ، فهما سيفا على رضى الله عنه .

رئام :

قال ابن إسحاق : وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقـــال لـــه : رئام .

قال ابن هشام : قد ذكرت حديثه فيما مضى .

رضاء وعباده وهدمه :

قال ابن إسحاق : وكانت رضاء بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بـن زيد مناة بن تميم ، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن ســـعد حيـــن هدمها في الإسلام :

ولقد شدت على رضاء شدة   فتركتها قفرا بقاع اسمحا

عمر المستوغر :

ويقال ان المستوغر عمر ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة . وكـــان أطـــول مضر كلها عمرا هو الذي يقول :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وعمرت من عدد السنين مئينا
مائة حدتها بعدها مئتان لـــي   وازددت من عدد الشهور سنينا
هل ما تبقى إلا كما قد فاتنـــا   يوم مر وليلـــة تحـــــــــــدونا

وبعض الناس يروى هذه الأبيات لزهير بن جناب الكلبي .

ذو الكعبات وعبادة :

قال ابن إسحاق : وكذلك ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائـــل وأيــاد بسنداد وله يقول أعشى بنى قيس بن ثعلبه :

بين الخورنق والسدير وبارق　　　والبيت ذي الكعبات بن سنداد

قال ابن هشام : وهذا البيت للأسود بن يعفر النهشلى . نهشـــل بــن دارم بن مالك ابن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم فـــي قصيــدة لــه ، وانشدنيه فيه أبو محرز خلف الأحمر.

أهل الخورنق والسدير وبأرق　　　والبيت ذي الشرفات من سنداد

الفصل الثاني
ظهور الديانة الإسلامية

الرســـــول عليــــه السلام قبــل البعثـــــة

الفترة المكية من حياة الرسول عليه الســــلام

الفترة المدنية من حياة الرسول عليه الســـلام



الرسول عليه السلام قبل البعثة :

ينتسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أسرة من اشرف اسر قبيلة قريش فهو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة، ويرتفع نسبه الشريف إلى معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام [٨٥]. وامه هى آمنه بيت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة وهو لذلك: اشرف ولد آدم حسبا وافضلهم نسبا من قبل ابيه وامه [٨٦].

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل، والاغلبية من المؤرخين ترجع مولده إلى ما بعد حادث الفيل بحوالى خمسين يوما، ومع ان هناك بعض الاراء التي تفيد ان والده كان حيا حين ولادته، وان وفاة الوالد كان والرسول عليه الصلاة والسلام في المهد أو وهو طفل يحبو إلا ان ابن هشام وكثيرون يؤكدون وفاة عبد الله بن عبد المطلب والنبي صلى عليه السلام مازال جنينا في بطن امه [٨٧].

---

[٨٥] ابن سيد الن.. .عيون الأثر فنون المغازي و الشمائل و السير ج١ ص٢١-٢٢. وانظر أيضا بان المصعب الزبيري : كتاب نسب قريش من ص ١٠-٢١.

[٨٦] ابن هشام .. يرة ج١ ص ١٠٠-١٠١.

[٨٧] المصدر السابق ج١ ص ١٤٦ وانظر أيضا ابن كثير : الفصول في اختصار سيرة الرسول ص ٨٠، اليعقوبي ج٢ ص٦.

ويحدثنا التاريخ عن والد النبي عليه الصلاة والسلام، وهو عبد الله بن عبد المطلب، انه كان اصغر ولد ابيه، وان عبد المطلب كان قد نذر لئن رزقه الله من الولد عشرة يمنعونه ويعينونه في عمله لينحرن احدهم عند الكعبة تقربا لله سبحانه وتعالى فلم بلغ بنوه عشرة وحق عليه الوفاء بالوعد اخبر أبناءه وضرب القداح بينهم فجاءت القرعة على عبد الله، وكان احب لبنائه عليه لكنه صمم على تنفيذ نذره وحين هم بذلك وقفت له قبيلة قريش ومنعته على ان تفديه بأموالها، واحتكموا إلى كاهنة في خيبر فسألتهم كم الدية فيكم، فقالوا: عشرة من الابل فقالت ارجعوا إلى بلادكم وقربوا عشرا من الابل واضربوا عليها وعليه بالقداح فان خرج على صاحبكم فزيدوا عشرا حتى يرضى ربكم. وقد ظلوا يضربون بين عبد الله والابل إلى ان صار عدد الابل مائة وخرج عليها القداح فنحرت الابل المائة وتركت بعد ذلك لا يصد عنها انسان ولا سبع [88].

يروي ابن هشام هذه القضية على النحو التالي: -

ذكر نذر عبد المطلب و ذبح ولده :

قال ابن إسحاق: وكان عبد المطلب بن هاشم - فيما يزعمون - والله اعلم - قد. نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم : لئن ولد عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة. فلما توافى بنوه عشرة، وعرف انهم يسمعونه، جمعهم، ثم اخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني ففعلوا، ثم اتوه، فدخل بهم على هبل في جوف

---

[88] انظر ابن الأثير: الكامل ج٢ ص٣-٤ وكذلك ابن هشام: السيرة جذ ص١٤٠ وما بعدها، والطبري ج٢ ص٢٣٩ وما بعدها.

الكعبة، وكان هبل على بئر في جوف الكعبة، وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدي للكعبة.

الضرب بالقداح عند العرب:

وكان عند هبل قداح سبعة،كل قدح منها فيه كتاب، قدح فيه (العقل)، إذ اختلفوا في العقل من يحمله منهم، ضربوا بالقداح السبعة، فان خرج العقل فعلى من خرج حمله وقدح فيه (نعم) للأمر إذا أرادوه يضرب به القداح، فلن خرج قدح نعم، عملوا به. وقدح فيه (لا) إذا أرادوا به ضربوا به القداح فإن خرج ذلك القداح لم يفعلوا هذا الأمر، وقدح فيه: (منكم) وقدح فيه (ملصق): وقدح فيه (من غيركم) وقدح فيه: (المياه) إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح و فيها ذلك القدح. فحينما خرج عملوا به.

وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاما، أو ينكحوا منكحا، أو يدفنوا ميتا، أو شكوا في نسب احدهم، ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون ما يريدون، ثم قالوا: يا الهنا هذا فلان ابن فلان قد أردنا به كذا وكذا، فاخرج الحق فيه. ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب فان خرج عليه: (منكم) كان منهم وسيطا، وان خرج عليه: (من غيركم) حليفا، وان خرج عليه: (ملصق)كان على منزلته فيهم، لا نسب له، ولا حلف، وان خرج فيه شئ، مما سوى هذا مما يعملون به (نعم) عملوا به، وان خرج (لا) اخروه عامه وذلك حتى يأتوه به مرة أخرى ينتهون في أمورهم إلى ذلك مما أخرجت به القداح.

عبد المطلب يحتكم القداح:

فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بني هؤلاء بقداحـــهم هذه واخبره بنذره الذي نذر، فأعطاه كل رجل منهم قداحه الذي فيـــه اســـمه، وكان عبد الله بن عبد المطلب اصغر بني ابيه، كان هو و الزبير و أبو طالب لفاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخروم بن يقظة بن مرة بن كعــب بن لؤى بن غالب بن فهر.

خروج القداح على عبد الله وشروع ابيه في ذبحه، ومنع قريش له :

قال ابن إسحاق: وكان عبد الله – فيما يزعمون – احب ولــــد عبـــد المطلب إليه، فكان عبد المطلب يرى ان السهم الذي اخطاه فقد اشوى. وهـــو أبو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلما اخذ صاحب القداح – القـــداح – ليضرب بها، قام عبد المطلب عند هبل يدعوا الله، ثم ضرب صاحب القـــداح، فخرج القداح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفؤه، ثم اقبل بـــه إلى آساف ونائله ليذبحه فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ماذا تريد يا عبـد المطلب ؟قال: اذبحه: فقالت له قريش و بنوه: والله لا تذبحه أبدا، حتى تعـــذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذعه، فما بقاء الناس علـــى هذا؟!.

وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخروم بن يقظة – وكـــان عبد الله بن أخت القوم: والله لا تذبحه أبدا، حتى تعذر فيه، فان كـــان فـــداؤه بأموالنا فديناه: وقالت قريش وبنوه:لا تفعل. و انطلق به إلى الحجاز، فان بـــه عرافه لها تابع، فسلها، ثم أنت على رأس أمرك، ان امرأتك بذبحـــه ذبحتـــه، وان امرأتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته.

قصة عراف الحجاز :

فانطلقوا حتى قدموا المدينة، فوجدها - فيما يزعمون - بخيبر فركبوا حتى جاءوها، فسألوها، وقص عليها عبد المطلب خبره و خبر ابنه، وما أراد به ونذره فيه فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فسأله: فرجعوا من عندها، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها فقالت لهم: قد جاءني الخبر كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل، وكانت كذلك. قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قربوا صاحبكم، وقربوا عشر من الابل، ثم اضربوا عليها و عليه بالقداح، فان خرجت على صاحبكم، فزيدا من الابل حتى يرضى ربكم، وان خرجت على الابل فانحروها عنه، فقد رضى ربكم، ونجا صاحبكم.

نجاة عبد الله من الذبح :

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما اجمعوا على ذلك من الأمر، قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله و عشرا من الابل، و عبد المطلب قائم عند هبل يدعو الله عز وجل !! ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الابل فبلغت الابل عشرين، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الابل. فبلغت الابل ثلاثين، وقام عبد المطلب يدعوا الله، ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الابل فبلغت الابل أربعين، وقام عبد المطلب يدعو الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الابل، فبلغت الابل خمسين، وقام عبد المطلب يدعوا الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الابل، فبلغت الابل ستين، وقام عبد المطلب يدعو الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الابل، فبلغت الابل سبعين، وقام عبد المطلب يدعوا الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله،

فزادوا عشرا من الابل، فبلغت الابل ثمانين، وقام عبد المطلب يدعو الله. ثـم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الابل، فبلغـت الابـل تسعين، وقام عبد المطلب يدعوا الله. ثم ضربوا، فخرج القدح على عبـد الله، فزادوا عشرا من الابل، فبلغت الابل مائة، وقام عبد المطلب يدعـو الله. ثـم ضربوا، فخرج القدح على الابل، فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى رضـا ربك يا عبد المطلب. فزعموا ان عبد المطلب قال: لا و الله حتـى اضـرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على عبد الله وعلى الابل، وقام عبـد المطلـب يدعوا الله فخرج القداح على الابل، ثم عادوا الثانية،وعبد المطلب قائم يدعـوا الله، فضربوا فخرج القدح على الابل، ثم عادوا الثالثة، و عبد المطلب قـائم يدعوا الله، فضربوا فخرج القدح على الابل، فنحرت، ثم تركت لا يصد عنـها انسان و لا يمنع.

وكان عبد الله احسن رجل رؤى في قريش قط ، زوجه والـده آمنـه بنت وهب ، وهى يومئذ افضل امراة في قريش نسبا وموضعا، ودخل عليـها وعمره حينذاك ثلاثون عاما وقيل خمس وعشرون ويقول المؤرخون انه لمـا تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنه أقام عندها ثلاثا ، وكـانت تلـك السـنة عندهم إذا دخل الرجل امرأته في أهلها (٨٩).

ورحل عبد الله بعد زواجه إلى الشام في تجارة لوالده ، وحين عودتـه أصابه المرض فنزل بالمدينة عند أخوال أبيه من بنى النجار فمات هنـاك - وفى رواية أخرى ان والده كان قد أرسله إلى المدينة في ميرة يحمـل تمـرا

---

[٨٩] ابن سيد الناس المصدر المشار إليه ص ٢٣ - ٢٥. والطبري ج٢ ص٢٣٤ وما بعدها.

فمات بالمدينة، فبعث عبد المطلب ابن الحارث في طلبه حين أبطأ فوجده قـد مات [٩٠].

أما السيدة آمنة بنت وهب، فإنها حملت من زوجها حملا هينا وينسب إليها قولها: ما شعرت بأني حملت به ولا وجدت لهُ ثقلة كما تجد النساء إلا أني أنكرت رفع حيضتي، وربما كانت تقول وآتاني آت بين النائم واليقظان فقال: هل شعرت انك حملت فكأني أقول ما أدرى فقال: انك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها وهى القائلة أيضا لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته[٩١].

تعود أهل مكة، وخاصة الأشراف منهم ان يعهدوا بأطفالهم إلى مرضعات يتولون إرضاعهم وتربيتهم بعيدا عن جو المدينة حتى يشب هؤلاء الأطفال في صحة جيدة وبدن سليم، وكان نصيب النبي عليه السلام ان تتولى رعايته ورضاعته حليمة السعدية زوج الحارث بن عبد العزى ابن رفاعة السعدي، ويروى عن حليمة انها - مثلها في ذاك مثل كل المرضعات - كانت تبحث عن طفل غنى ، وإنها انصرفت عن النبي لفقره، ولولا خوفها من ان تعود إلى موطنها خالية الوفاض لما أخذته، لكنها حينما وفقها الله إلى هذا الغلام اسبغ الله عليها نعمة كبيرة حتى انها حينما انتهت سنتا الرضاع، وكان عليها ان تعيده إلى أمه بمكة، ذهبت إليها وتوسلت لها ان تترك معها محمدا، وتقول: فقد منا به إلى أمه ونحن احرص شئ على مكثه فينا لما نرى فيه من بركته، فكلمنا امه وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ فإني أخشى

[٩٠] الطبري: ج٢ ص٢٤٦.

[٩١] ابن سيد الناس: المصدر المذكور ج٢ ص٢٥.

عليه وباء مكة فلم نزل به حتى ردته معنا فرجعنا به [٩٢]. واقام عندها إلى ان بلغ الرابعة من عمره، وتعرض لحادث شق الصدر بواسطة الملائكة واعادته إلى أمه في مكة لانها خشيت ان يصاب بسوء [٩٣].

وتروي حليمة قصتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على النحو التالي:-

حديث حليمة عما رأته من الخير :

كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية. أم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي أرضعته، تحدث: انها خرجت من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضاء قالت: وذلك في سنة شهباء، لم تبق لنا شيئا. قالت:فخرجت على اتآن لي قمراء معنا شارف لنا، والله ما نبض بقطرة، وما ننام ليلنا اجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه - قال ابن هشام ويقال: يغذيه. ولكنا كنا نرجو الغيث و الفرج فخرجت على اتاني تلك، فلقد أدمت بالركب، حتى شق ذلك عليهم ضعفا و عجفا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضاء فما منا امراة إلا وقد عرض عليها رسول الله - صلى اله عليه وسم - فتأباه، إذا قيل لها انه يتيم، وذلك. أنا إنكما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي،فكنا نقول. يتيم؟ وما عسى ان تضع امه وجده؟ فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امراة قدمت معي إلا أخذت رضيعا غيري فلما اجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله أني لأكره ان ارجع من بين صواحبي ولم اخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم، فلآخذنه قال: لا عليك ان تفعلي، عسى

---

[٩٢] ابن سيد الناس: المصدر المذكور ج ص٣٣-٣٤. ابن هشام ج١ ص١٥٢.

[٩٣] العقود ج٢ ص٧، ابن كثير: الفصول ص٨٠، ابن هشام ج١ ص١٥٢، وابن سيد الناس ج١ ص٣٤.

الله ان يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخـــذه إلى أني لم أجد غيره.

الخير الذي أصاب حليمة :

قالت فلما أخذته، رجعت به إلى رحلي فلما وضعته في حجري اقبـل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي، وشرب معه أخيه حتى روى، ثم نام وما كنا ننام معه قبل ذلك،وقام زوجي إلى شـارفنا تلـك، فـإذا إنـها لحافل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا ريـا و شـبعا، فبتنـا بخير، ليلة قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يـا حليمـه، لقـد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله أني لأرجو ذلك. قالت: ثـم خرجنـا وركبت اتاني، وحملته عليها معي، فو الله لقطعت بالركب ما يقدر عليها مـن شئ من حمرهم، حتى ان صواحبي لقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيـب، ويحـك ! أربعي علينا، أليست هذه اتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لـهن: بلـى والله، انها هي هي، فيقلن. و الله ان لها لشأنا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بـلاد بني سعد، وما اعلم أرضا من ارض الله اجدب منها، فكانت غنمـي تـروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا. فنحلب ونشرب. وما يحلب أنسانا قطـرة لبن، ولا يجدها في ضرع. حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانـهم، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب فتروح أغنامهم جياعا مـا تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعا لبنا، فلم نزل نتعرف من الله الزيـادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمـان، فلـم يبلغ سنته حتى كان غلاما جفرا.

رجوع حليمة إلى مكة أول مرة :

فقالت فقدمنا به على أمه و نحن احرص شئ على مكثه فينا، لما كنـــا نرى من بركنه، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت بني عنـــدي حتـــى يغلـــظ، أخشى عليه و بأهل مكة، قالت: فلم تزل بها حتى ردته معنا.

حديث الملكين الذي شقا بطنه صلى الله عليهِ وسلم :

قالت فرجعت به، فو الله انه بعد مقدمنا بشهر مع أخيه خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ذلك أخي القرشي قد أخذه رجـــلان عليـــهما ثياب بيض، فأضجعاه، فشق بطنه، فهما يسوطانه قالت فخرجت أنـــا وأبـــوه نحوه، فوجدناه قائما ممتقعا وجهه. قالت: فالتزمته و التزمه أبوه، فقلنـــا لـــه: مالك يابني، قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطنـــي فالتمسا فيه شيئا لا ادري ما هو. قالت: فرجعنا إلى خبائنا.

حليمة ترد محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى أمه :

قالت و قال لي أبوه يا حليمه، لقد خشيت ان يكون هـــذا الغـــلام قـــد أصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به. قالت: فاحتملناه، فقدمنا به علـــى أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر، وقد كنت حريصـــة عليـــه، وعلـــى مكثـــه عندك؟ قالت فقلت: قد بلغ الله ابني و قضيت الذي على، و تخوفت الأحـــداث عليه، فاديت إليه كما تحبين. قالت: ما هذا شأنك، فاصدقيني الخبر. قالت: فلم تدعني حتى أخبرتها. قالت: افتخوفت عليه الشيطان؟ قالت: قلت، نعم، قـــالت كلا. و الله ما للشيطان عليه من سبيل، وان لبني لشانا أفلا أخـــبرك خـــبره. قالت: قلت بلى. قالت: رأيت حين حملت به انه خرج مني نور أضاء قصـــور بصري من ارض الشام. ثم حملت به، فو الله ما رأيت من حمل قـــط كـــان

أخف ولا أيسر منه. ووقع حين ولدته وأنه لواضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء دعيه عنك، و انطلقي راشدة.

الرسول يسأل عن نفسه و إجابته صلى الله عليه وسلم :

قال ابن إسحاق: وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم، ولا احسبه إلا عن خالدبن معدان الكلاعي: ان نفرا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قالوا له: يا رسول الله. خبرنا عن نفسك؟ قال. نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى و رأت أمي حين حلمت بي انه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام.

واسترضعت في بني سعد بن بكر. فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بسطت من ذهب مملوءة ثلجا ثم أخذاني فشقى بطني، و استخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي و بطني بذلك الثلج حتى نقياه. ثم قال أحدهما لصاحبه "زنه بعشرة من أمته: فوزنني بهم فوزنتهم قال: زنه بمئة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم. فقال: دعه عنك فو الله لو وزنته بأمته لوزنها".

رعية صلى الله عليه وسلم وافتخاره بقرشيته:

قال ابن إسحاق: و كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: "ما من نبي إلا و قد رعى الغنم، قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: و أنا.

قال ابن إسحاق: و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاصحابه: "أنا اعربكم، أنا قرشي، و استرضعت في بني سعد بن بكر".

افتقدته حليمه ووجده ورقة بن نوفل:

قال ابن إسحاق: وزعم الناس فيما يتحدثون - والله اعلم - ان أمه السعدية لما قدمت به مكة اضلها في الناس، وهي مقبلة به نحو أهله، فالتمسته فلم تجده، فأتت، عبد المطلب فقالت له: أني قد قدمت بمحمد هذه الليلة، فلما كنت بأعلى مكة اضلني فو الله ما ادري أين هو، فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده، فيزعمون أنه وجده ورقه بن نوفل بن أسد،ورجل آخر من قريش، فاتيا به عبد المطلب، فقال له: هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة، فأخذه عبد المطلب، فجعله على عنقه، وهو يطوف بالكعبة يعوزه له، ثم أرسل به إلى أمه آمنه.

سبب آخر لرجوع حليمة به صلى الله عليه وسلم إلى مكة:

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العمل، أن مما هاج أمه السعديه على رده إلى أمه، مع ذكرت لامه مما أخبرتها عنه، أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا إليه، وسألوها عنه وقلبوه، ثم قالوا لها: لنأخذن هذا الغلام، فلنذهبن به إلى ملكنا و بلدنا، فان هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرف أمره. فزعم الذي حدثني إنها لم تكد تنفلت به منهم.

أقام النبي – عليه الصلاة والسلام – مع والدته تعاونها على تربيته أم ايمن إلى ان بلغ من العمر ٦ سنوات – فخرجت به أمه في زيارة إلى يثرب لزيارة قبر والده هناك فأدركها الموت بالابواء بين مكة والمدينة، وهى في طريقها إلى مكة، واصبح النبي يتيم الأبوين وهو في هذه السن الباكرة، فانتقل إلى كفالة جده عبد المطلب الذي اسبغ عليه من حنانه وعطفه اكثر مما كان يسبغه على أبناءه، فكان يرفه عنه ويقربه منه ويدنيه إليه، ولا يقدم على

تناول طعام إلا إذا قدم الصبي إليه، ويجمع المؤرخون على انه كان يوضـــع لعبد المطلب فراشا في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش حتـى يخرج إليه لا يجلس عليه واحد من بنيه إجلالا فكان رســـول الله صلـــى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامــــه ليؤخـــروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعو بنَي فو الله ان له لشـــأنا ثـــم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع (٩٤).

وحينما بلغ النبي – عليه السلام – الثامنة من عمره ، توفي جده عبـــد المطلب عن سن عالية فحزن عليه النبي . ومن هنا انتقلت كفالة النبي – عليه السلام – إلى عمه أبي طالب. وتجمع المصادر التاريخية على ان أبا طـــالب كان شقيقا لعبد الله أبا و إما ولهذا كان أولى أولاد عبد المطلب برعاية ابـــن أخيه كما ان عبد المطلب كان يوصى أبا طالب بمحمد دائما، واعتـــبر ذلـــك إيحاء له بكفالته من بعده (٩٥).

انتقل النبي – عليه السلام – إلى كفالة عمه أبي طالب وتربى في بيته وكان عمه له راعيا ومحبا يصحبه معه في غدوه ورواحه ولا ينـــام إلا إلـــى جواره وكان له خير كافل. وحينما خرج إلى الشام في تجارة له طلـــب منـــه الرسول ان يصحبه معه وصعب على العم ترك ابن أخيه وحيـــدا فـــرق لـــه وأخذه معه ولرسول الله من العمر حوالي تسع سنوات على مـــا يقـــول ابـــن الأثير أو الإثنتي عشر سنة على ما يقول الآخرون. وحيـــن مـــرور القافلـــة

٩٤ ابن سيد الناس: ج١ ص٣٨. محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية ص٦٧.

٩٥ ابن هشام ج١ ص١٦٤. اليعقوبي ج٢ ص٩. ابن سيد الناس ج١ ص٤٠.، ابن كثير :الفصول ص٨١.

بصومعة الراهب بحيرى بالقرب من بصري بـــلاد الشـــام. تبيـــن الراهـــب علامات النبوة على وجه النبي عليه السلام - وتحادث مع عمه محذرا إيـــاه من الخطر الذي قد يتعرض له الصبي لو عرفه اليهود وطلب منه ان يعـــود بابن أخيه إلى مكة وان يحتاط له. ويروى ان هشام قصه هذا اللقـــاء علـــى النحو التالي:

قال ابن إسحاق: ثم ان أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام فلمـا تهيأ للرحيل واجمع المسير صب به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيمـا يزعمون فرق لهم، وقال: و الله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبـدا أو كما قال: فخرج به معه.

بحيرة يحتفي لتجار قريش:

فلما نزل الركب بصري من ارض الشام وبها راهبا يقال له بحـــيري في صومعة له"وكان إليه علم أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة منـــذ قط راهب، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها "فيما يزعمون" يتوارثونه كـــابرا عن كابر. فلما نزلوا ذلك العام ببحيري، وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلـــك فلا يكلمهم ولا يعرض له. حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا بـــه قريبـــا مـــن صومعته صنع لهم طعاما كثيرا وذلك "فيما يزعمون" عن شئ رآه وهو فـــي صومعته، يزعمون انه رأى رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم وهـــو فـــي صومعته في الركب حين اقبلوا وغمامة تزله من بين القوم، قال، ثـــم اقبلـــوا فنزلوا في ظل شجرة قريبة منه، فنظر إلى الغمامة حيـــن أظلـــت الشـــجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه سلم حتى اســـتظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيري نزل من صومعته ثم أرسل إليهم فقال: أني قـــد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، فأنا احب ان تحضروا كلكـــم صغـــيركم

وكبيركم، وعبدكم وحركم، فقال له رجل منهم: والله يا بحري أن لـك لشـأنا اليوم، فما كنت تصنع هذا لنا، وقد كنا نمر بك كثيرا، فما شأنك اليوم.

قال له بحيري: صدقت، فقد كان ما تقول ولكنكـم ضيـوف، وقـد أحببت أن أكرمكم واصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم فاجتمعوا إليه وتخلـف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من القوم، لحداثة سنه، في رحال القـوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيري في القوم لم ير الصفة التـي يعـرف ويجـد عنه، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي، قالوا لـه: يـا بحيري، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحـدث القـوم سنا، فتخلف في رحالهم فقال: لا تفعلوا، ادعواه، فليحضر هذا الطعام معكـم قال: فقال رجل من قريش مع القوم: اللات والعزى، ان كـان للـؤم بنـا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام بيننا ثم قـام إليـه فاحتضنـه وأجلسه مع القوم.

بحيري يتثبت من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فلما رآه بحيري، جعل يلحظه لحظا شديدا، وينظر إلى أشـياء مـن جسده، قد كان يجده عنده من صفته، حتى إذا فـرغ القـوم مـن طعامـهم وتفرقوا، قام إليه بحيري، فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعـزى، إلا مـا أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيري ذلك لأنه سمع قومه يحلفـون بهما، فزعموا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: لا تسألني بـاللات والعزى شئ، فو الله ما أبغضت شئ، قط بغضهما، فقال له بحيري: فبـالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له، سلني عما بدا لك، فجعل يسـأله عـن أشياء من حاله: من نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله – صلى الله عليـه

وسلم – يخبرهم، فيوافق ذلك ما عند بحيري من صفته، ثم نظر إلى ظـــهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.
قال ابن هشام: وكان مثل أثر المحجم [٩٦].

قال ابن إسحاق: فلما فرغ، اقبل على عمه أبي طالب، فقال لــه: مــا هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيري: ما هو بابنك، وما ينبغــي لــهذا الغلام ان يكون أبوه حيا، قال فانه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه ؟ قال: مــات وأمه حبلى به، قال: صدقت، فأرجع بابن أخيك إلى بلده، وأحذر عليه يــهود: فو الله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شرا، فانه كائن لابن أخيــك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده.

بعض من أهل الكتاب يريدون بمحمد – صلى الله عليه وسلم – الشر:

فخرج به عمه أبو طالب سريعا، حتى أقدمه مكة حيــن فــرغ مــن تجارته بالشام فزعموا فيما روى الناس: ان زريرا، وتماما ودريســا – وهــم نفر من أهل الكتاب – قد كانوا رأوا من رسول الله – صلى الله عليه وسـلم – مثل ما راه بحيرى في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب، فأرادوه، فردهم عنه بحيري، وذكرهم السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب، وانــهم أن اجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه، ولم يزل بهم، حتى عرفوا ما قــال لهم، وصدقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا عنه.

---

[٩٦] يعني: اثر المحجمة القابضة على اللحم، حتى يكون ناتئا. وفي الخبر انه كان حوله خيلان فيها شعرات سود. وفي صفته أيضا انه كان كالتفاحة، وكرر الحجة. وفي حديث آخر:كان كبيضة الحمامة،وفي حديث عياذ بن عمرو: قال ورأيت خاتم النبوة وكان كركبة العنز.

فشب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، ولما يريد به كرامته و رسالته، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة و أحسنهم خلقا، واكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزها وتكرما، حتى ما اسمه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يحدث عن حفظ الله له:

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما ذكر لي يحدث عما كان يحفظ به في صغره وأمر جاهليته، انه قال:

لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به غلمان، كنا قد تعرى، وأخذ إزاره، فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فأني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لاكم ما أراه، لكمة وجيعة ثم قال: شد عليك إزارك. قال فأخذته وشددته على، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري على من بين أصحابي[٩٧] .

---

[٩٧] وهذه القصة انما وردت في الحديث الصحيح في حين بنيان الكعبة، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ينقل الحجاره مع قومه إليها، وكانوا يجعلون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجاره، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يحملها على عاتقه وإزاره مشدودة به، فقال له العباس رضى الله عنه: يا أبن أخي! لو جعلت إزارك على عاتقك، ففعل فسقط مغشيا عليه، ثم قال: إزاري فشد عليه إزاره، وقام يحمل الحجاره، وفي حديث آخر: انه لما سقط، ضمه العباس إلى نفسه، وسأله عن شأنه فأخبره أنه نودي من السماء: أن أشدد عليك إزارك يا محمد قال: وأنه لأول ما نودي وحديث ابن إسحاق أن صح أنه كان في حال صغره إذ كان يلعب مع الغلمان فعلمه أن هذا الأمر كان مرتين، مرة في حال صغره ومرة في أول اكتماله عند بنيان الكعبة. (انظر الروض)

كانت هذه المرة الأولى التي نعلم فيها ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم قد سافر في صباه في رحلة إلى بلاد الشام ، وليس لدينا علم عن رحلة ثانية له إلى هذه البلاد إلا الرحلة التي قام بها ليتاجر في مال السيدة خديجة رضى الله عنها وهو في سن الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين.

ومما لاشك فيه قيام النبي عليه السلام يرعى الأغنام، قام بذلك وهو صغير مع اخوته في الرضاع في بنى سعد ، وقام بذلك وهو يافع في مكة ونستدل على ذلك مما رواه صلى الله عليه وسلم عن نفسه حين قال: ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين. كل ذلك ويحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك. ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته فأني قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى ادخل مكة، فأسمر بها كما يسمر الشبان ! فقال: افعل فخرجت أريد ذلك، حتى إذا جئت أول دور مكة، سمعت عزفا بالدفوف والمزامير فقلت ما هذا ؟ قالوا: فلان بن فلان تزوج فلانة بنت فلان فجلست انظر إليهم ، فضرب الله على اذنى فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس .. الخ [٩٨]. ويتكرر نفس الشيء مرة أخرى، ومن هنا لم يهم أبدا بسوء حتى اكرمه الله برسالته.

أشترك رسول الله قبل بعثته في حرب الفجار التي بين قريش ومعها كنانة وبين قيس عيلان، ويقال أن سنة كانت خمسة عشر عاما أو عشرين

[٩٨] الطبري ج٢ ص٢٧٩. ابن الأثير ج٢ ص٢٤.

عاما وروى عنه انه كان يناول أعمامه النبـل [٩٩] كمـا انـه شـهد حلـف الفضول، وهو حلف تعاهد فيه القريشيون على نصرة المظلوم ممن يظلمـه ، وقال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم · لقد شهدت مع عمومتي حلفا فـي دار عبد الله بن جدعان ما حب ان لي به حمر النعم ، ولو دعيـت بـه فـي الإسلام لأجبت [١٠٠]. ولم يعهد عنه أبدا عبادة الأصنام أو المشاركة فيما كـان شائعا في مكة من رذائل أو عيوب· بل عرف عليه السلام باستقامة الخلـق وسمى بين أهله بالأمين . وقال فيه الله تعالى وانك لعلى خلق عظيم.

كانت السيدة خديجة بين خويلد امرأة تـاجرت، ذات مـال وشـرف تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء يجعله لهم، فلما بلغـها مـا بلغها : من صدق حديثه وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه بعثت إليـه فعرضـت عليه ان يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه افضل ما كانت تعطـى غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبلـه رسـول الله صلـى الله عليه وسلم – وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم بـلاد الشام [١٠١].

رأى ميسرة من صدق حديث النبي وأمانته، ويسر معاملته ما أعجبـه فلما عاد إلى سيدته أخذ يمتدح لها صفات الرسول عليه السلام ويقـال بـأن الرسول قد جلس في ظل شجرة بالقرب من صومعة راهب يسـمى نسـطور وتعرف الراهب على نبوة محمد، وبشـر بذلك ميسـرة الخادم [١٠٢].

---

[٩٩] ابن هشام ج١ ص١٦٨ وما بعدها.

[١٠٠] ابن الأثير ج٢ ص٢٦.

[١٠١] ابن هشام ج١ ص١٧٢. ابن الأثير ج٢ ص٢٤.

[١٠٢] نفس المصدر ج١ ص١٧٢، الطبري ج٢ ص٢٨٠.

كانت السيدة خديجة امرأة حازمة عاقلة شريفة مع ما أراده الله من كرامتها ، فحينما سمعت كلام خادمها ميسرة عن محمد بن عبد الله عرضت نفسها عليه ليتزوجها فنقل الرسول ذلك إلى أعمامه فذهبوا إلى خويلد بن أسد لخطبتها منه، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في سن الخامسة والعشرين، وكانت هى في حدود الأربعين فولدت له أولاده جميعا ماعدا إبراهيم وهم: القاسم وبه كان يكنى رسول الله والطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة تقبلهم الله جميعا في رحمته واسبغ عليهم رضوانه[103].

عاش محمد – عليه السلام – مع السيدة خديجة على أتم وفاق، فلم يفكر في الزواج بغيرها حتى توفيت، وذكرها بالخير دائما بعد ذلك وهى من جانبها كانت له محبة وفية وقفت إلى جانبه بمالها وحسبها وساعده ذلك على ان يخصص شهرا من كل عام يتعبد فيه في غار حراء وكانت ترسل إليه الطعام في الجبل، ويقال انه كان يعود إلى بيته كل عدة أيام ليتزود بالطعام . ويروى لنا ابن هشام قصة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع السيدة خديجة على النحو التالي.

---

[103] ابن هشام ج١ ص١٧٤ وما بعدها. الطبري ج٢ ص ٢٨١. ابن الأثير ج٢ ص٢٤ – ٢٥.

حديث تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم
خديجة رضي الله عنها

سنة – صلى الله عليه وسلم – حين زواجه :

قال ابن هشام: بلغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خمسا وعشرين سنة، وتزوج خديجه بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب فيما حدثني غير واحد من أهل العلم منهم أبو عمرو المدني.

خروجه – صلى الله عليه وسلم – إلى الشام في تجارة لخديجة :

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجره، ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه، بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوما تجارا، فلما بلغها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما بلغها: من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا، تعطيه أفضل ما كانت تعطي من التجار، مع غلام لها يقال له ميسره، فقبله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسره، حتى قدم الشام.

حديثه – صلى الله عليه وسلم – مع الراهب :

فنزل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ظل شجرة قريبة من صومعته راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسره. فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة هذا الرجل من قريش من أهل الحرام، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

ثم باع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلا إلى مكة، ومعه ميسره، فكان ميسره - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة، وأشتد الحر، ويرى ملكين يظلانه من الشمس - وهو يسير - على بعيره فلما قدم مكة على خديجة بمالها، باعت ما جاء به فاضعف أو قريبا وحدثها ميسره عن أقوال الراهب، وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه.

رغبة خديجة في الزواج من الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

وكانت خديجة امرأة حازمه شريفه لبيبه، مع أراد الله بها من كرامه فلما أخبرها ميسره مما أخبرها به، بعث إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت له - فيما يزعمون - يا ابن عم، أني رغبت فيك قرابتك، ووسطك في قومك وأمانتك. وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش سنا، وأعظمهن شرفا، وأكثرهن مالا، كل قومها حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه.

نسب خديجة رضى الله عنها:

وهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مره بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، وأمها فاطمة بنت زائده بن الأصم بن رواحه بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر، وأم فاطمه: هاله بنت عبد مناف بن الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر. وأم هاله: قلابه بنت سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر.

الرسول – صلى الله عليه وسلم – يتزوج من خديجة بعد استشارة أعمامه:

فلما قالت ذلك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذكر لأعمامه، فخرج معه عمه حمزه بن عبد المطلب – رحمه الله – حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه، فتزوجها.

صداق خديجه:

قال ابن هشام: وأصدقها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عشرة بكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، رضى الله عنها.

أولاده – صلى الله عليه وسلم – من خديجه:

قال غبن إسحاق: فولدت لرسول الله – صلى الله عليه سلم – ولده كلهم إلا إبراهيم: القاسم وبه كان يكنى – صلى الله عليه وسلم – و الطاهر، والطيب و زينب،و رقيه، و أم كلثوم و فاطمة، عليهم السلام.

ترتيب ولادتهم :

قال ابن هشام: اكبر بنيه: القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر، وأكبر بناته: رقيه، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة.

قال ابن إسحاق: فأما القاسم، والطيب، والطاهر فهلكوا في الجاهلية. وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه – صلى الله عليه وسلم – .

إبراهيم وأمه:

قال ابن هشام: وأما إبراهيم فأمه: ماريه القبطية. حدثنا عبد الله ن وهب عن ابن لهيعه، قال: أم إبراهيم: مارية سرية النبي – صلى الله عليه وسلم – التي أهداها إليه المقوقس.

حديث خديجة معه وصدق نبوءته:

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وكان ابن عمها وكان نصرانيا قد تتبع الكتب، وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسره من أقوال الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه، فقال ورقة، لئن كان هذا حقا يا خديجة أن محمدا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت انه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه.

بعثة الرسول والفترة الملكية:

كانت كل الدلائل تنبئ انه سيكون لهذا الفتى من قريش شأن عظيم وان الله سبحانه قد اختاره لمهمة سامية، وما ان بلغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الأربعين نزل عليه جبريل مرسلا من قبل الله ليوحي إليه وذلك حينما كان في غار حراء في السابع عشر من شهر رمضان [١٠٤].

ويذكر المؤرخون ان أول ما بدئ مع الوحي انما كانت الرؤيا الصادقة ، أثناء نومه، فكان لا يرى رؤية إلا كانت مثل فلق الصبح وذكروا انه -عليه السلام - أول ما بعث كان يسمع من يدعوه ولا يرى شيئا ويذكر الطبري بإسناد ، بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله كرامته

---

[١٠٤] الطبري ج٢ ص٢٩٠ وما بعدها.

وابتداءه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتـــا ويفضــــي إلـــى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بحجر ولا شجرة إلا قالت: السلام عليك يـــا رسول الله، فكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحــــدا [١٠٥]. كمـــا يؤكد ابن هشام في سيرته بأن الكهان من العـــــرب والأحبـــار مـــن اليـــهود والرهبان من النصارى قد تحدثوا بأمر رسول الله قبـــل مبعثـــه وانـــه لابـــد وسيظهر في هذا الأوان [١٠٦].

وفى الليلة التي اختارها الله سبحانه وتعالى ليكرمها ببدء ظهور هـــذا الدين الجديد وتجلى الوحي للرسول عليه السلام - جاء جبريل إليه بأول آيات القرآن الكريم، وقد اخبر عليه السلام عن نفسه فيما رواه ابن هشــــام فقـــال: جاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ، قلت مـــا اقـــرأ ؟ فقال فغتنى به حتى ظننت لنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ. قلت: ماذا اقـــرأ ؟ قال: فغتنى به حتى ظننت انه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ. قال: فقلـــــت مـــا اقرأ، ما أقول ذلك إلا افتداء منه ان يعود لي بمثل ما صنع بي فقــــال: اقـــرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم [١٠٧]. قال: فقرأتها ثم انتهى فأنصرف عنى وهببــــت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا فخرجت حتى إذا كنت في الجبل سـمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، قــــال فرفعــت رأسي إلى السماء انظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه فــــي أفـــق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت انظر إليه فمـــا

---

[١٠٥] المصدر السابق ج٢ ص٢٩٥، وانظر أيضا ابن هشام ج١ ص٢١٦.

[١٠٦] ابن هشام ج١ ص١٨٩ وما بعدها.

[١٠٧] سورة العلق.

أتقدم أمامي وما ارجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلبي فبلغوا أعلى مكـــة ورجعوا إليها وأنا اقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني، وانصرفت راجعـــاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مصغياً إليها فقالت: يـــا أبـــا القاسم أين كنت؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكـــة ورجعـــوا ثـــم حدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يا ابن عم واثبت فو الذي نفسي بيـــده أنـــي لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عم لها وكان يعلم علم الأقدمين، وسمع أهل التـــوراة والإنجيل، فأخبرته بما اخبرها به رســـول الله - صلـــى الله عليـــه وســـلم - فطمأنها واخبرها بأن ذلك هو الناموس الأكبر الذي كان يأتى موســـى عليـــه السلام [108].

وهناك رواية أخرى موجزها ان النبي عليه الصلاة والســـلام حيـــن قص على خديجة ما حدث له قال لها: لقد خشيت على نفســـي . قـــالت لـــه خديجة: كلا ابشر فو الله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف وتعين على نوائـــب الحـــق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل من أسد بن عبد العزى وهـــو ابن عم خديجة أخي أبيها وكان امرأ تنصر في الجاهلية. وكان يكتب الكتـــاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله ان يكتب شيخا كبيرا قد عمـــى فقالت له خديجة أي عم اسمع من ابن أخيك قال ورقة: يا ابن أخي ماذا تـــرى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى . فقال له ورقة: هـــذا الناموس الذي انزل على موسى، يا ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك، قـــال

---

[108] ابن هشام ج١ ص ٢٢١ - ٢٢٢. ابن الأثير ج٢ ص ٣١.

رجل قط بما جئت إلا عودي، وان يدركني يومك أنصـــرك نصـــرا مـــؤزرا (١٠٩).

تيقن الرسول عليه السلام من اختياره لأداء مهمــــة إلهيــة، والقيـــام برسالة سماوية وكان عليه ان ينهض في القيام بها وتحمل تبعاتـــها. وتنقســـم الفترة التي قام بها - صلى الله عليه وسلم - بالرســـالة التـــي هـــي قســـمين رئيسيين يعرفان عند المؤرخين بالطور المكي والذي يبدأ من بدايــــة قيامـــه عليه السلام بالدعوة إلى الدين الجديد في مكة وبين القريشيين وحتى إجبـــاره على الهجرة إلى يثرب والطور المدني إلى المدينة أو اليثربي ويتضمن الفـترة التاريخية بين الهجرة إلى وفاة الرسول عليه السلام، ونتناول الفترتين بإيجـــاز فيما يلي:

١- الطور المكي :

تردد الوحي على النبي عدة مرات قبل ان يشرع في الدعـــوة إلـــى الإسلام ، وأوحت إليه عدة آيات من القرآن الكريم مثل سورة العلـــق والتـــي يذهب عدد كبير من المؤرخين إلى اعتبارها أول ما نزل من القرآن الكريـــم (١١٠) وبعض آيات سورة المدثر والتي يذهب البعض إلى اعتبارهـــا أول مـــا نزل من القرآن الكريم(١١١) . ولقد استمرت هذه الحقبة مـــن الوحـــي علـــى الرسول فترة من الزمان قدرت بعامين ونصف. ثم تبدى له الملك بين السـماء والأرض على كرسي، فثبته، وبشره بأنه رسول الله حقا، فلما رآه رســول الله

[109] ابن سيد الناس ج١ ص ٨٥.

[110] انظر الطبري ج٢ ص٢٩٨ وما بعدها.

[111] ابن كثير: البداية و النهاية ج٣ ص١٦ - ١٧.

صلى الله عليه وسلم فرق منه وذهب إلى خديجة وقال: زملوني، دثروني. فأنزل الله عليه (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر) [١١٢].

وكانت الحالة الأولى حال نبوة وإيحاء، ثم أمر في هذه الآية ان ينذر قومه، ويدعوهم إلى الله فشمر - عليه السلام - عن ساق التكليف وقام في طاعة الله أتم قيام، يدعو إلى سبحانه الكبير والصغير[١١٣] . وتأتينا رواية ابن هشام على النحو التالي:

---

[١١٢] سورة المدثر.

[١١٣] ابن كثير: الفصول ص٨٥.

اخذ الله الميثاق على الرسل بالإيمان به صلى الله عليه وسلم :

قال: حدثنا أبو محمد بن الملك بن هشام، قال: حدثنا زياد بن عبـد الله البكائى عن محمد بن إسحاق المطلبى قال: فلما بلَغ محمد رسول صلـــى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشِـــيرا، وكان الله تبارك وتعالى قد اخذ الميثاق على كل نبى بعث قبله بالإيمـــان بـــه والتصديق له والنصر له على من خالفه ، واخذ عليهم ان يؤدوا ذلك إلى كـل من آمن بهم وصدقهم، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه. يقـــول الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم: (وإذ اخذ الله ميثاق النبييـــن لمـــا آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لمـــا معكـــم، لتؤمنـــن بـــه ولتنصرنه، قال أقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى) : أي ثقل مل حملتكم مـــن عهدى (قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين). فأخذ الله ميثـــاق النبيين جميعا بالتصديق له ممن خالفه ، وأدوا ذلك إلـــى مـــن آمـــن بـــهم ، وصدقهم من أهل هذين الكتابين.

الرؤيا الصادقة أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال ابن إسحاق: فذكر الزهرى عن عروة بن الزبير، عـــن عائشـــة رضى الله عنهما انها حدثته: ان أول ما بدئ به رسول الله صلـــى الله عليـــه وسلم من النبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقـــة، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كفلـــق لصبـــح قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة فلم يكن شئ احب إليه من ان يخلو وحده.

سلام الحجر والشجر على الرسول صلى الله عليه وسلم :

قال بن إسحاق: وحدثني عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سـفيان بـن العلاء بن جارية الثقفى، وكان واعية، عن بعض أهل العلـم ان رسـول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته، وابتداءه بالنبوة كـان إذا خـرج لحاجته ابعد حتى تحسر عنه البيوت، ويفضى إلـى شـعاب مكـة وبطـون اوديتها، فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قـال: السلام عليك يا رسول الله، قال: فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حولـه وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة. فمكـث رسـول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله ان يمكث، ثم جاء جـبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو لحراء في شهر رمضان.

ابتداء نزول جبريل عليه السلام:

قال بن إسحاق: وحدثني وهب بن كيسان، مولى آل الزبـير . قـال: سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثى: حدثنا يـا عبيد كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبـوة ، حين جاءه جبريل عليه السلام ؟ قال: فقال عبيد – وانا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ، ومن عنده من الناس : كان رسول الله صلـى الله عليـه وسـلم يجاور في حراء من كل سنة شهرا، وكان ذلك مما تحنث بـه قريـش فـي الجاهلية. والتحنث: التبرر.

قال بن إسحاق: حدثني وهب بن كيسان قـال: قـال عبيـد : فكـان الرسول صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جـاء من المساكين فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره مـن شـهره

ذلك، كان أول ما يبدأ به – إذا انصرف من جواره – الكعبة قبل ان يدخـــل بيته ، فيطوف بها سبعا، أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته.

حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامتـــه من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان: خرج رسـول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره ومعه اهله، حتـى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى فيها برسالته ورحم العباد بـــها، وجـاءه جبريل– عليه السلام – بأمر الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءنى جـبريل، وانـا نـائم، بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: ما اقرأ ؟ قال فغتنى بــه حتـى ظننت انه الموت ، ثم أرسلني ، فقال: اقرأ، قلت: ما اقرأ ؟ قال فغتنـــى بــه حتى ظننت انه الموت ، ثم أرسلني ، فقال: اقرأ ، قلت: ما اقرأ ؟ قال فغتنـى به حتى ظننت انه الموت ، ثم أرسلني ، فقال: اقرأ ، فقلت: ماذا اقــرأ ؟ مـا أقول ذلك إلا افتداء منه ان يعود لي بمثل ما صنع بي فقال(اقرأ باسم ربـــك الذي خلق خلق الإنسان من علق أقرأ وربك الأكرم الذي علـــم بـالقلم علـم الإنسان ما لم يعلم) قال: فقرأتها ثم انتهى، فانصرف عنـــى، وهببـت مـن نومى، فكأنما كتبت في قلبي كتابا. قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط مـن الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله. وانا جـبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء انظر فإذا جبريل في صـورة رجـل صـاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رســول الله وان جـبريل. قـال: فوقفت انظر إليه فما أتقدم وما اتأخر، وجعلت اصرف وجهي عنه في آفـاق السماء، قال: فلا انظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أتقـدم

أمامي وما ارجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي. فبلغــوا أعلــى مكة ورجعوا اليها، وانا اقف في مكاني ذلك. ثم انصرف عني.

الرسول صلى الله عليه وسلم يقص على خديجة ما كان من جبريل معه:

وانصرفت راجعا إلى اهلى، حتى أتيت خديجة فجلست إلــى فخذهــا مضيفا إليها فقلت: يا أبا القاسم، أين كنت ؟ فو الله لقد بعثت رسلي في طلبـك، حتى بلغوا مكة ورجعوا لي، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: ابشر يا ابن العــم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده أنى لارجو ان تكون نبى هذه الأمة.

أخبار خديجة رضى الله عنها لورقة بن نوفل:

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أســد بن العزى بن قصى: وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر، وقـــرأ الكتــب. وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما اخبرها به رسول الله صلــى الله عليه وسلم انه رأى وسمع فقل ورقة بن نوفل: قدوس قدوس، والذي نفســـي ورقة بيده، لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كـــان يأتي موسى، وانه نبى هذه الأمة، فقولي له: فليلبث.

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته بقـــول ورقة بن نوفل، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصــوف، صنع كما يصنع: بدأ بالكعبة. فطاف بها فلقيه ورقة بن نوفل، وهــو يطــوف بالكعبة، فقال: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فـــأخبره رســول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الأمـــة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذبنه ولتؤذينـــه ولتخرجنـــه

ولتقاتلنه، ولئن انا أدركت ذلك اليوم لانصرن الله نصرا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه، فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله.

امتحان خديجة برهان الوحى :

قال ابن إسحاق: وحدثني إسماعيل بن أبي حكم مولى آل الزبير: انه حدث عن خديجة رضى الله عنها انها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي ابن عم، أتستطيع ان تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟ قال: نعم قالت: فإذا جاءك فأخبرني به. فجاءه جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة: يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها، قالت: هل تراه ؟ قال نعم، قالت: فتحول، فاجلس على فخذي اليمنى، قالت: فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخدها اليمنى، فقالت: هل تراه ؟ قالت نعم، فتحول فاجلس في حجري، قالت: فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها، قالت: هل تراه ؟ قال: نعم، قال: فتحسرت و ألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها ثم قالت له: هل تراه؟ قال: لا ، قالت يا ابن عم، اثبت وابشر، فو الله انه لملك وما هذا بشيطان.

قال ابن إسحاق: وقد حدثت عبد الله بن حسن هذا الحديث (فقال قد سمعت أمي فاطمة بنت حسين تحدث بهذا الحديث عن خديجة، إلا أني سمعتها تقول: أدخلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وبين درعها، فذهب عند ذلك جبريل، فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان هذا لملك، وما هو بشيطان.

متى نزل القرآن :

قال ابن إسحاق : فابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في شهر رمضان، يقول الله عز وجل (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وقال الله تعالى(انا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بأذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر).

وقال الله تعالى (حم والكتاب المبين انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين).

وقال تعالى (ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان). وذلك ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين ببدر.

قام الرسول عليه السلام بالدعوة إلى الله سرا وخاصة أهله المقربين واصدقائة المخلصين. فدعاهم إلى نبذ عبادة الأوثان وتوحيد الله سبحانه وتعالى باعتباره خالق الكون وعدم الإشراك به لحدا سواه وكان أول من آمن به هى زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها وبذلك تكون أول من اسلم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى هذا ما يجب التركيز عليه. على أساس ان لهذا معنى هاما جدا بما يؤكده من مكانة المرأة في الديانة الإسلامية ، لانه إذا كان رسول الله هو أول المسلمين فالسيدة خديجة هى ثاني المسلمين ، وإذا وضعنا في الاعتبار ان رسول الله هو المكلف بالدعوة تجلت لنا مكانة

السيدة خديجة باعتبارها أول مسلمة دخلت في دين الله وكان لها دورها فـــي تشجيع الرسول وتثبيته على طريق الدعوة وفى رفع الأذى عنه بعـــد ذلـــك، يقول ابن هشام وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاء منـــه فخفـف الله بذلك عن نبيه - صلى الله عليه وسلم - لا يسمع شيئا مما يكرهه مـــن رد عليه وتكذيب ذلك، إلا فرج الله عنه إذا رجع اليـــها، تثبتـــه وتخفـف عليـــه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى [114].

وتباينت أقوال المؤرخين فيمن اسلم مباشرة بعد السيدة خديجة فقـــال ابن هشام انه على بن أبي طالب [115]. وذلك لانه كان يعيـــش فـــي كنـف الرسول ومن ثم فلا غرابة في ان يكون من أول الذين اتبعوا النبى أو انه أبـو بكر الصديق رضى الله عنه ما يقول ابن كثير في الفصـــول مـــن ان جـــائز سبقهم أبو بكر رضى الله عنه [116]. ولهذا حتى يزول هذا الاختلاف يقـال ان أبا بكر هو أول من اسلم من الرجال، وعلى هو أول من اسلم من الصبيـــان، وزيد بن حارثة هو أول من اسلم من الموالى .

كان إسلام أبي بكر تعضيد للنبي عليه السلام وامرا هامـــا بالنسـبة للدعوة الإسلامية لانه كان - كما يقول ابن هشام - رجلا مألفا لقومه محببـــا سهلا، وكان انسب قريش لقريش، واعلم قريش بها، وبما كان فيها من خـــير وشر، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه

[114] ابن هشام ج١ ص ٢٢٤.
[115] ابن كثير الفصول ص ٨٥.
[116] ابن هشام ج١ ص ٢٢٨.

لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلـــى الله والى الاسلام من وثق به من قومه ممن يخشاه، ويجلس إليه (١١٧).

وعلى يد أبي بكر الصديق آمن عدد من الرجال ممن كان لـــهم دورا بارزا في التاريخ الإسلامي وهم عثمان بن عفان، الزبير بن العـــوام، وعبـــد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبد الله، وأبو عبيده بـــن الجراح، وعثمان بن مظعون واخوته، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بـــن زيـــد واهله، وعمير بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، والارقم بن أبي الارقـــم وغيرهم. وجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اســـتجابوا لـــه واسلموا (١١٨) وصلوا ثم تتابع الناس في الدخول في الاسلام قليلا حتى عـوف الاسلام في مكة وتحدثت به قريش.

اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من دار الارقم بن أبي الارقـــم مكانا يلتقي فيه بأصحابه يعلمهم القرآن، وامور الدين وظل الحال كذلك لمـــدة ثلاث سنوات إلى ان جاءه امر الله سبحانه (فاصدع بما تؤمر واعرض عـــن المشركين) (١١٩) وقال تعالى: (وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمـــن اتبعك من المؤمنين) (١٢٠)، (وقل انى انا لنذير مبيـــن) (١٢١). عندئـــذ جـــهر الرسول بدعوته. ولجأ في ذلك إلى اسلوب النداء حيث صعد إلى جبل الصفـــا ونادى - بطون قريش، ولما اجتمعوا قـــال لـــهم: ان الله امرنـــى ان انـــذر

---

[١١٧] ابن هشام ج١ ص ٢٢٢.
[١١٨] ابن هشام ج١ ص ٢٢٢.
[١١٩] قرآن سورة الحجر الآية ٩٤.
[١٢٠] قرآن سورة الشعراء ٢١٤، ٢١٥.
[١٢١] قرآن سورة الحجر الآية ٨٩.

عشيرتي الاقربين، واني لا املك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا لن تقولوا: لا اله إلا الله: فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم الهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله في لهب وزوجته (تبت يدا أبي لهب وتب ما اغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد) [١٢٢].

لم يقبل القريشيون على الدعوة الجديدة، وقفوا منها موقفا سلبيا طالما ان الرسول لم يتعرض لآلهتهم بسوء، ولكنهم لم يكونوا كذلك حين بدأ الرسول يهاجم هذه الآلهة ويسفهها ويبين انها لا قيمة لها ويشرح لنا ابن هشام هذه الصورة بقوله: فلما بدا رسول الله قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قوم - ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك اعظموه وناكروه، واجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام [١٢٣]. ومن هنا بدأ الصراع بين النبي عليه السلام وبين مشركي مكة الذين تصدوا لدعوته بشدة وعنف ويرجع ذلك لعدة أسباب منها:

١- خوف القريشيون على مكانة مكة، الموطن الأكبر للاصنام في شبه الجزيرة العربية خشيتهم من ان تتأثر بهذه الدعوة وحرصهم على إلا يفقدوا جموع الحجاج التي تأتيها كل عام، وما يترتب على ذلك كله من ضياع مصادر هامة للكسب والتجارة.

---

[١٢٢] قرآن سورة المسد، وأنظر في ذلك محمد جمال الدين سرور: المصدر المشار إليه ص ٧٢.

[١٢٣] ابن هشام ج١ ص٢٣٨.

٢- الصراع العائلي والقبلي في مكة وخاصة بين بنى هاشـــم وبنـــى أميـــة ومحاولة كل من الفريقين - رغم ما بينهما من قرابة - الارتفاع بمكانتــه في قريش وان يحوز قصب السيادة فيها.

٣- ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن - علـــى حـــد قولـــهم - جديـــرا بالزعامة عليهم. لانه لم يستجمع صفات شيخ القبيلة وســـيدها والجديـــر بالاتباع واهم هذه الصفات السن والغنى والجاه والنفوذ، وفى هذا يقـــول الله تعالى: (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم).

إلى جانب السخرية من النبـــى عليـــه الســـلام ومحـــاولات ايذائـــه، والتصدى للمسلمين الجدد واضطهادهم اتخذت قريش طريقين للحيلولة بيـــن النبى ودعوته فعرضت عليه ان يترك هذه الدعـــوة فـــي مقـــابل ان يقدمـــوا أموالهم له ما يطمح إليه من الملك أو المال أو العلاج أو أي شـــيء آخـــر ، لكنه عليه السلام رفض ذلك لانه مكلف بالدعوة إلى الله والـــى نبـــذ عبـــادة الأصنام [١٢٤].

أما الأسلوب الآخر فتمثل في الضغط على عمه أبي طالب لكي يمنعه من القيام بالدعوة أو ليمنعه من سب آلهتهم ، وذهب إلى أبي طالب وفد مـــن كبار القوم فقالوا له: يا أبا طالب، ان ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننـــا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فأما ان تكفيه عنا، واما ان تخلى بيننـــا وبينـــه،

---

[١٢٤] ابن هشام ج١ ص٢٦١ ، ابن سيد الناس ج١ ص ١٥٠.

فانك على مثل ما نحن - عليه من خلاف فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قــولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه (١٢٥).

واستمر الرسول في دعوته وتبعه عدد من احرار قريـــش، وازدادت العلاقات سوءا بينها، فتذامروا فيه ومضى بعضهم بعضـــا عليـــه. وعـــادت قريش إلى الحديث مع أبي طالب مرة أخرى، وفعلا تحدث الرجل مـــع ابـــن أخيه قائلا إياه: يا ابن أخي، ان قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فـــأبق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيق ! فظن رسول الله صلـــى الله عليه وسلم انه قد بدا فيه لعمه بداء وانه خاذله ومسلمه، وانه ضعف عـــن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وســـلم: يـــا عمـــاه، لـــو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الأمر حتـــى يظهره الله أو اهلك فيه ما تركته، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وســـلم فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: اقبل يا بن اخى، فـــأقبل عليـــه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فـــو الله لا اسلمك لشيء أبدا (١٢٦).

حاولت قريش محاولة ثالثة مع أبي طالب لاثنائه عن تأييد ابن أخيـــه فعرضوا عليه خير فتيانهم، عمارة بن الوليد بن المغيرة على ان يكون لعبـــد المطلب في مقابل ان يعطيهم محمدا يقتلونه، وبذلك ينتهى الأمر ويرد عليـــهم

---

[١٢٥] ابن هشام ج١ ص٢٣٩.

[١٢٦] ابن هشام ج١ ص١٤٠. الطبري ج٢ ص٣٢٦.

أبو طالب قائلا: بئس ما تسومونني، اتعطوني ابنكم اغذوه لكـــم و أعطيكـم ابني تقتلونه، وهذا والله لن يكون أبدا [127].

توترت الأمور في مكة بشدة وخاصة بين بنى هاشم وبـــاقي قريــش وتنابذ الناس وعادى بعضهم بعضا. وبدأت قريش تعذب من تعلم بإســـلامه، ويصف لنا الطبري هذه الحالة بقوله: ثم ان قريشا تذامروا علـــى مـــن فـــي القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين اسلموا معـــه. فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عـــن دينـــهم، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشـــا تصنع ما تصنع في هاشم وبنى المطلب فدعاهم إلى ما هو عليـــه مـــن منـــع رسول الله، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، واجابوا إلى مـــا دعـــاهم إليه من الدفع عن رسول الله عليه السلام. إلا ما كان من أبي لهب من قومـــه ما سره من جدهم معه وحديهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر فضل رســـول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منهم - ليشد على رأيهم (١٢٨).

لجأت قريش إلى مقاطعة بنى هاشم بسبب تأييدهم للنبي وعقدوا لذلـك عقدا مع القبائل الأخرى بمكة ، واضطر بنـــو هاشـــم تحـــت ضغـــط روح العصبية إلى التوحد لحماية الرسول وخرجوا من مكة إلى شعب أبي طـــالب، وقاطعتهم قريش مقاطعة كاملة، لا يبيعـــون لـــهم ولا يشـــترون منـــهم، لا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، واستمرت هذه المقاطعة حوالي ثلاث ســـنوات حتى تحركت النخوة في بعض نفر من قريش تربطهم ببنـــي هاشـــم روابـــط

---

[127] ابن هشام ج١ ص٢٤٠. الطبري ج٢ ص٣٢٦.

[128] الطبري ج٢ ص٣٢٧.

قرابة أو صهر أو نسب فتحركوا لنقض الصحيفة التـــي سـبق لقريـش ان وضعتها في صحن الكعبة. وبذلك انتهت المقاطعة، وعاد بنو هاشم إلى مكـة دون ان يتوقف اضطهاد قريش للمسلمين وإيذائهم للرسول عليه السلام [١٢٩].

لما رأى القريشيون ان جدالهم للرسول - عليه السلام - لـم يجدهـم نفعا ولم يضعف من نشاطه في نشر الدعوة الإسلامية، استعانوا عليه بأحبـار اليهود في يثرب ، فذهب بعضهم إلى هناك وطلبوا من هؤلاء الأحبار رأيـهم في الرسول فقيل لهم : سلوه عن ثلاثة فان أخبركم بهن فهو نبى مرسـل وان لم يجب فهو متقول، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهـر الأول، وعـن رجـل طواف، وعن الروح [١٣٠].

يذكر المؤرخون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتمكـن مـن الإجابة مباشرة على هذه الأسئلة مما افرح قريش، لكن الله سـبحانه وتعـالى أوحى إليه بعدة مدة بخبر الفتية الذين ذهبوا وهم أصحاب الكهف، وذكر الجل الطواف وهو ذو القرنين، وقال له عن الروح (ويسألونك عـن الـروح قـل الروح من امر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) [١٣١].

اشتد إيذاء قريش للنبي وللمسلمين واقبل سفهاء أهل مكة من الكفـار على المسلمين يعذبونهم ليردوهم عن دينهم حتى ان أبا جهل ابن هشـام بـن المغيرة قد مر يوما بسمية أم عمار بن ياسر وهى تعـذب فطعنـها بحربـة

---

[١٢٩] ابن سيد الناس ج١ ص٢٦٥.

[١٣٠] ابن سيد هشام ج١ ص٢٦٥.

[١٣١] ابن هشام ج١ ص٢٦٦ وما بعدها.

أصابت منها مقتلا، وكانت لذلك أول شهيدة في الاسلام وعمل بعض الصحابة الأغنياء على شراء العبيد من سادتهم القساة ثم يطلقون سراحهم بعد ذلك واخصهم في هذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ويصف الطبري حال المسلمين مع القريشيين فيقول: ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من ابنائهم واخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الاسلام، فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء [١٣٢].

ولم يسلم رسول الله نفسه من الأذى والسخرية فقد ألقيت عليه قاذورات شاه مذبوحة وهو قائم يصلى ، كما انهم تعرضوا له مرة وهو قائم يصلى وكادوا يخنقونه بثوبه لولا ان دفعهم عنه أبو بكر الصديق، وهزأوا به مرة أخرى في الحرم وكان معه أبو بكر وعثمان ثم ان أبا جهل سبه سبا شديدا عندما لقيه مرة عند الصفا وكان ذلك سبب إسلام حمزة بن عبد المطلب، والذي كان إسلامه رنة فرح عند المسلمين وحزن والم عند الكافرين.

حدث ذلك كله والرسول عليه السلام صابر ،مكافح ،مثابر على دعوة ربه وعدد المسلمين يتزايد سواء من احرار قريش أو من عبيدها وضعفائها وكان إسلام حمزة ثم من بعده عمر بن الخطاب الذي اسماه المسلمون فتحا، يقول عبد الله بن مسعود: (ما كنا نقدر على ان نصلى عند الكعبة وصلينا معه).

---

[١٣٢] الطبري ج٢ ص٣٢٨. وانظر أيضا ابن هشام ج١ ص٢٧٧ وما بعدها.

الهجرة إلى الحبشة :

كان رسوا اله صلى الله عليه وسلم يرى ويسمع بمـــا يتعــرض لـــه الصحابة من الأذى والسخرية والعذاب، وكان يشق عليه ذلـــك فســـمح لـــهم بالهجرة إلى ارض الحبشة لما سمع شهرة ملكها بـــالعدل والتســـامح، وكـــان النجاشي لا يظلم بأرضه أحد، وكان يثنى عليه مع ذلك صـــلاح (١٣٣) فكـــان أول من هاجر عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية بنـــت الرســـول عليـــه السلام (١٣٤) وتبعه المسلمون في الفرار من مكة فخرج أحـــد عشـــر رجـــلا واربع نسوة متسللين إلى شاطئ البحر وركبوا سفينتين لبعض التجـــار إلـــى بلاد الحبشة، وخرجت قريش في آثارهم فلم يدركوا منهم أحد(١٣٥).

ويبدو لن هذه المجموعة الأولى والتي اســـتقرت بـــأرض الحبشـــة ورحب بها ملكها، ووجدت في رحابه الامن والطمأنينة حيث يـــروى عنـــهم انهم قالوا: وقدمنا ارض الحبشة، فجاورنا خير جار، امنا على ديننا وعبدنـــا الله، لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه (١٣٦) وعندما تواتـــرت الأخبـــار عنـــهم خرجت مجموعات أخرى من المسلمين منهم جعفر بـــن أبـــي طـــالب ارض الحبشة حتى وصل عدد المسلمين هناك إلى حوالي اثنين وثمانين رجلا (١٣٧).

كان اختيار رسول الله لبلاد الحبشة اختيارا موفقا، فمن جهة عـــرف النجاشي بعدله وتسامحه، ومن جهة أخرى كانت ارض الحبشة متجرا لقريش

---

[١٣٣] الطبري ج٢ ص٣٢٨.

[١٣٤] ابن هشام ج١ ص٢١٨.

[١٣٥] الطبري ج٢ ص٣٢٩.

[١٣٦] الطبري ج٢ ص٣٢٩.

[١٣٧] نفس المصدر ج٢ ص٣٣٠ وجعلهم ابن هشام ٨٣ رجلا ج١ ص٢٨٦.

يتجرون فيها، يجدون فيها رفاهة من الرزق، وامنـــا ومتجــرا حســنا (١٣٨). ووجود المسلمين هناك قد يهدد هذه التجارة أو يسئ إلى ســـمعة القريشــيين هناك. علاوة على ذلك فانه قد يوحى للقريشيين باحتمـــالات أخـــرى أهمـــها خشيتها ان يستعين النبى بالأحباش مما يهدد سيادة قريش على ممرات قوافلها وتجارتهم، ولذلك سعت بكل جهدها إلى إعادة هؤلاء الذين هاجروا والى منــع غيرهم من اللحاق بهم، فأرسلت قريش وفدا من قبلها برئاســـة عمـــرو بـــن العاص إلى النجاشي محملا بالهدايا لكي يعمل على إعادة المسلمين إلى مكة.

بذل الوفد كل جهده من اجل إقناع النجاشي بإعادة المسلمين إلى مكــة وعرضوا الهدايا ففشلوا في ذلك فلجأوا إلى إثارة العواطف الدينيـــة للوقيعــة بينه وبين المسلمين قائلين للنجاشي بأنهم لا يعتقدون في ألوهية المسيح، لكـــن ذلك كله لم يقنع الملك المسيحي الحبشي بإعادة المسلمين إلى مكـــة وخاصـــة بعد نقاشه مع جعفر بن أبي طال حول رأى المسلمين في السيد المسيح عليـــه السلام ويروي ابن هشام على النحو التالي : -

كان للهجرة إلى الحبشة أثره الكبير في نشر الدعوة الإسلامية، لقـــد كان شيئا كبيرا ان يفر عدد من المسلمين بدينهم من تعذيب قريش وســـادتها فازداد تعذيبهم للمسلمين وتعرضهم للنبي.

وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلــى الله عليه وسلم إلى الحبشة، ويقول اليكائى نقلا عن عبد الله بن مســـعود: (ان إسلام عمر كان فتحا وان هجرته كانت نصرا، وان إمارته كانت رحمة، ولقد

---

١٣٨ الطبري ج٢ ص٣٢٨.

كنا ما نصلي الكعبة حتى اسلم عمر، فلما اسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وفاة أبي طالب والسيدة خديجة :

كان أبو طاب والسيدة خديجة خير عون لرسول الله، وكان لهما فضل حمايته من كثير مما تعرض له المسلمون من إيذاء وسخرية، ولقد سبقت الإشارة إلى ما قام به أبو طالب من حماية للنبي، ومن تعضيده وتجميع كل بنى هاشم خلفه ، وتحمله المقاطعة والعيش في الشعب ورضى بخصام قريش كلها، حتى انتهت هذه المقاطعة وعاد إلى أهله في مكة، واضطرار المسلمين إلى الهجرة للحبشة كما أشرنا، ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مقيما مع قرش بمكة يدعوهم سرا وجهرا، صابرا على آذاهم وتكذيبهم اياه، واستهزائهم به حتى ان كان بعضهم - فيما ذكر يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى ويطرحها في خيمته إذا نصيب له حتى اتخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم - فيما بلغنى - حجرا يستتر منهم إذا صلى، ويواصل الطبري الحديث فيقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج بذلك إذا رمى به في داره على العود فيقف على بابه ثم يقول: يا بنى عبد مناف، أي جوار هذا ثم يلقيه في الطريق (١٣٩).

ثم ان أبا طالب وخديجة هلكا في عام واحد قبل الهجرة بثلاث سنين، فعظم ذلك على الرسول، وكبرت عليه المصيبة بهلاكهما، وذلك ان قريشا وصلوا من آذاه بعد موت أبي طالب إلى مالم يكونوا يصلون إليه في حياته

---

١٣٩ الطبري ج١ ص٣٤٣.

منه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه [١٤٠]، وقد قال رسول الله صلـــى الله عليه وسلم - ما نالت منى قريشا شيئا اكرهه حتى مات أبو طالب [١٤١].

موقف الرسول من الدعوة :

ازداد تعرض قريش للرسول بعد وفاة عمه وزوجه كما انهم أصمــوا آذانهم عن دعوته، وكان عليه السلام ان يفكر في وسيلة يخرج بها من هـــذا الإطار وان يبحث عن طريقة ينشر بها دعوته بين النـــاس ، ورأى - صلـــى الله عليه وسلم - ان يسلك طريقين لتحقيق ذلك:

الطريق الأول: هو ان يخرج بالدعوة إلى مكان غير مكة.

الطريق الثاني: ان يتعرض لرجال القبائل من غير قريش القادمين إلى مكـــة في موسم الحج ليدعوهم إلى دين الله سبحانه.

خروج الرسول إلى الطائف:

خرج صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ومعه مولاه زيد بـــن حارثـــة يلتمس من أهلها الحماية ويدعوهم إلى نصرة دعوته والإيمـــان بـــها، عمـــد رسول الله إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافها وهم اخوة ثلاثـــة فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الاسلام والقيـــام معـــه على من خالفه ، فردوا عليه ردا غير كريم حتى قال أحدهـــم انـــه سيســـرق ثياب الكعبة ان كان الله قد بعثه. وقال الآخر اعجز الله على ان يرسل غـيرك

---

[١٤٠] ابن هشام ج٢ ص٤٥ ، الطبري ج١ ص ٣٤٣.

[١٤١] المصدرين السابقين ونفس الصفحات.

أما الثالث فانه رفض ان يكلمه قائلا، والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا كما تقول لأنت اعظم خطرا من ان أراد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي ان أكلمك، وتهزءوا به أفشوا في قومهم ما قالوه له، وقعدوا له صفين فلما مر الرسول رجموه بالحجارة حتى أدموا رجله، و أغروا به سفهائهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس والجأوه إلى حائط لعقبة ابن ربيعة القريشيين، وكانا هناك ى ذلك الوقت.

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: (اللهم اشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس . . . ألن ان يصل إلى قوله . . . ان لم يكن بك غضب على فلا أبالي) . . فيما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال رقا له أرسلا له عنقودا من العنب م عبد لهما.

انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الطائف راجعا إلى مكة حين يئس من ثقيف، وقدم مكة وقومه اشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ولم يستطع - عليه السلام - دخول مكة إلا في حماية المطعم ابن عدى الذي قبل جواره وحمل سلاحه ومكنه من العودة والصلاة في الكعبة[١٤٢].

---

[١٤٢] اقر قصة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أهل الطائف عند ابن هشام ج٢ ص٤٧. الطبري ج٣ ص٣٤٤ وما بعدها. اليعقوبي ج٢ ص٢٦. ابن سيد الناس ج١ ص١٣٤.

الإسراء والمعراج:

لم يمض وقت طويل بعد عودته عليه السلام من الطائف حتى أسـوى به الله سبحانه وتعالى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، كما عرج بـه إلى سدرة المنتهى ليرى من آيات ربه، يقول الله تعالى: (سبحان الذي أسـرى بعبده ليلا من المجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه مـن آياتنا ان هو السميع البصير) [١٤٣]. وكان لهذا الحادث دوى هائل فـي مكـة ولقد أنكروا ذلك على الرسول وشككوا في أقواله، ولم يقبل روايته إلا أبا بكـو الصديق، وسببت هذه المسألة كثير من المشاكل لرسول الله صلـى الله عليـه وسلم، واختلفت أقوال العلماء في الإسراء والمعراج هل هو بالروح والجسـد معا [١٤٤].

عرض الرسول نفسه على القبائل:

لم يحقق رسول الله نجاحا عندما خرج من مكة إلى الطـائف وكـان فشله هناك وما رواه عن حادث الإسراء سببا في زيادة الاذى والاستهزاء بـه من جانب القريشيين، ومن هنا بدأ طريقه الثاني وهو التعرض للقبـائل التـي ترد مكة في موسم الحج أو التجارة فأتى كندة في منازلهم فدعـاهم إلـى الله وعرض نفسه عليهم فأبوا عليه، فأتى كلبا، إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبـد الله فدعاهم إلى الله وعرض نفسه عليهم فأبوا عليه ولم يقبلـوا مـا عـرض عليهم، ثم انه أتى بنى حنيفة وعرض عليهم نفسه فقالوا لـه لا حاجـة لنـا بأمرك - ولم يزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعرض نفسه على كـل قادم له اسم وشرف ويدعوه إلى الله وكان كلما اتى قبيلة يدعوهم إلى الاسـلام

---

[١٤٣] سورة الإسراء الآية الأولى.

[١٤٤] ابن هشام ج٣ ص٣٢. ابن كثير : الفصول ص٩٣ ، ابن سيد الناس ج١ ص١٤٠.

تبعه عمه أبو لهب فإذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كلامه يقول لهم أبو لهب: يا بنى فلان، إنما يدعوكم هذا إلى ان تسلخوا اللات والعزى فلا تطيعوه ولا تسمعوا له [١٤٥]. كما قابل الرسول - عليه السلام - بعض سكان يثرب من الاوس وعرض عليهم ما عرض على القبائل الأخرى فلم يجد صدا ولا قبولا.

[١٤٥] ابن الأثير ج٢ ص٦٥.

بيعة العقبة الأولى :

آن لهذا الكفاح المرير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان يؤتي ثمـاره، وان يجد في النهاية من يستمع له ويستجيب لدعوته، وكذلك كـــانت إرادة الله ان يظهر دينه ويعز نبيه وينجز له وعده، فكان صلى الله عليه وسلم كعادتـــه يخرج للقاء القبائل والوفود، وفي هذه المرة لفي رهطا مـــن الخـــزرج عنـــد العقبة أراد الله لهم خيرا، فدعاهم الى الإسلام، وقرأ عليهم القـــرآن فأجـــابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقـــالوا له: انا قد تركنا قومنا. ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعســـى الله ان يجمعكم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك، ونعرض عليـــهم الـــذي أجبناك إليه من هذا الدين، فان يجمعهم الله عليك فلا رجل اعـــز منـــك ثـــم انصرفوا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – راجعين الى بلادهم وقـــد آمنوا وصدقوا. وكان هؤلاء ستة نفر. فلما قدموا المدينة على قومهم ذكـــروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبـــق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفى العام التالي وافى موسم الحج اثنا عشر رجلا من الأنصـــار مـــن الخزرج والاوس فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبـــة وبـــايعوه وهو ما يعرف باسم بيعة العقبة الأولى أو بيعة النساء وكان الجهاد لم يفـــوض بعد على المسلمين ويقول ابن اسحق نقلا عن عبادة بن الصامت قال: " كنـــت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلا، فبايعنا رسول الله صلـــى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل ان تفترض الحرب، علـــى ان لا

نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف(١٤٦).

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع هذا الوافد مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويدعوهم الى عبادة الله ويفقههم في الدين، وتمكن مصعب من إقناع سادة الاوس والخزرج وان يجذب الى الإسلام عددا كبيرا من أهل المدينة وخاصة سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضى الله عنهما، واللذان اسلم بإسلامهما جميع أهلهما وانتشر الإسلام في المدينة حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون(١٤٧).

بيعة العقبة الثانية :

في الموسم التالي لبيعة العقبة الأولى أي في نفس السنة الثالثة عشرة لبعثته صلى الله عليه وسلم - قدم مكة عدد من مسلمي يثرب ومعهم مجموعة الوثنيين واتفقوا على لقاء رسول الله- صلى الله عليه وسلم - عند العقبة فلما فرغوا من الحج وكانت الليلة التي تواعدوا فيها مع رسولا الله خرجوا يتسللون تحت جنح الظلام بعد مضى شطر من الليل الى ان التقوا عند العقبة وكانوا حوالي سبعين رجلا وامرأتين وهناك وافاهم رسولا الله عليه وسلم ومعه عمه العباس رغم ان العباس كان ما يزالا على الوثنية إلا انه احب ان يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ٠ وكان العباس أول من تكلم فناشد الأنصار التأكد من موقفهم وبصرهم بأهمية ما هم مقبلين علية وقال يا معشر الخزرج (يقصد بذلك الأوس والخزرج) ان محمدا منا حيث قد

---

١٤٦ الطبري ج٢ ص٣٥٣

١٤٧ ابن الأثير ج ج٢ ص ٦٨

علمتهم، وقد منعناه من هو على مثل رأينا، وهو في عز في قومه ومنعنه فـي بلدة وانه قد أبي الانقطاع واللحوق بكم، فان كنتم ترون إنكم وافون لــه بمــا دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم تـــرون إنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعــة في قومه وبلده "٠ قال: فقلنا له " سمعنا ما قلت، فتكلم يــا رســول الله وخــذ لنفسك وربك ما أحببت" فتكلم رسول الله عليه وسلم فتلا القران ودعا الــى الله ورغب في الإسلام ثم قال أبايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نســاءكم وابناكم[١٤٨] .

وافق الحاضرون على كلام رسول الله ، ورد عليه البراء بن معـــرور قائلا : " و الذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا " [١٤٩] ثم تســاءلت الأوس عن علاقتها مع اليهود والتي سيقطعونها وخشيتهم بعد ان يتم النصـر لرسول الله ان يتركهم فأجابهم الرسول صلي الله عليه وسلم" بل الدم الـــدم ، الهدم الهدم، انتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتم أسالم مـــن ســالمتم"[١٥٠] وحاول الأنصار ان يوضح لبعضهم البعض خطورة ما اقدموا عليه فتوجـــه العباس بن عبادة بن نضله النصارى الى الجميع قائلا ... يا معشر الخـزرج ، هل تقدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم قال : إنكم تبايعون علـــى حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم إذا نـــهلت أموالكـــم مصيبة ، وأشرافكم قتلا اسلتموة ، فمن الآن، فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون وافون له بما دعوتموه إليه على نهله الأموال،وقتل

---

١٤٨ الطبري ج٢ ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

١٤٩ نفس المصدر ج٢ ص ٣٦٢ .

١٥٠ نفس المصدر ج٢ ص ٣٦٣ وانظر إلينا ابن هشام ج٢ ص ٦٤ .

الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فأنا نـــأخذه علـــى مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينـــا ؟ قال : الجنة قالوا ابسط يدك فبايعوه [١٥١].

طلب الرسول عليه السلام – بعد ذلك من الأنصار ان يختاروا له اثنـــي عشر نقيبا فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس [١٥٢]وعاد الأنصـــار الى رحالهم والي باقي أهل يثرب.

موقف قريش من بيعة العقبة :

كان السبب الأساسي في حث قريش على معارضتها النبي ودعوته هـو حرصها على مكانتها وتجاربها بين العرب ولذلك كان اخشي ما تخشاه هـــو ان يخرج النبي من بين أظهرها الى مكان آخر أو ان يجد له سند عند قـــوم آخرين . لذلك ما ان تسرب خبر البيعة الى القريشيين حتى سعوا للتأكد مـــن ذلك ، وغدوا الى أهل يثرب فقالوا : يا معشر الخزرج – أنا قد بلغنـــا أنكـــم جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه علـــى حربنـــا ، وانه والله ما من حي من العرب ابغض إلينا ان تتشب الحرب بيننـــا وبينـــهم منكم " فاقسم لهم المشركون من أهل يثرب بأنه ل علم لهم بأي شي من ذلـــك ولكن القريشيين تأكدوا من الاتفاق وعادوا مرة ثانية للحديث مع أهل يـــثرب فوجدوهم قد رحلوا فانطلقوا في آثارهم وتمكنوا من القبض على ســـعد بـــن عبادة وأعادوا الى مكة مقيد وقاموا بإيذائه حتى خلصه من أيديهم جبير بـــن

---

[١٥١] ابن هشام ج٢ ص ٦١ – ق٩ .

[١٥٢] انظر أمر العقبة الثانية ابن هشام ج٢ ص ٦١ .

مطعم بن عدى والحارث بن حرب وذلك بسبب علاقة طيبة وكانت تربطـهما بسعد بن عبادة وانطلق سعد بعد ذلك عائد الى يثرب[١٥٣].

ويروى سعد قصته قائل : فوالله أني لفي أيديهم إذ طلع على نفر مـن قريش فيهم رجل وصبي ابيض شعشاع حلو من الرجل فقلت في نفسـي :ان يك عند أحد من القوم خير فعند هذا قال : فلما دنا مني رفع يـده فلكمنـي لكلمة شديدة ، قال : فقلت في نفسي : لا والله ما عندهم بعد هذا خيرا أبـدا . قال : فوالله أني في أيديهم يسحبونني إذ أتى الى رجل ممن كان معهم فقـال ويحك ، أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولعهد ؟ فقلت : بلـي والله لقـد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تجارة ، وامنعـهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، كذلك الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بـن عبد مناف قال : ففعلت ، وخرج ذالك الرجل إليهما فوجدهما في المسـجد – أي الكعبة – فقال لهل ان رجلا من الخزرج يضرب الآن بالا بطـح ويتـف بكما ، ويذكر ان بينكما وبينه جوارا . قالا ومن هو ؟ . قال :سعد بن عبـادة، قالا ! صدق والله ان كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم ان يظلموا ببلدة قال فجـاء مخلصا سعد من أيديهم فانطلق وكان الذي لكمه سهيل بن عمرو من لؤى .

نزول الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال :

بسم الله الرحمن الرحيم . قال : حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشـام، قال : حدثنا زياد بن عبد الله البكائى ، عن محمد بن اسحق المطلبي : وكـان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعه العقبة لم يؤذن له في الحـرب ولـم تتحلل له الدماء إنما يؤمر بالدعاء الى الله والصبر على الأذى ، والصفح عـن

[١٥٣] ابن هشام ج٢ ص ٦٨ – ٦٩ .

الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهـــم عن دينهم ونفوهم من بلادهم ، فهم بين مفتون في دينه ، و بين معـــذب فـــي أيديهم ،وبين هارب في البلاد فرار منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من فـــي المدينة ، وفي كل وجه ، فلما عنت قريش الله عز وجل ، وردوا عليـــه مـــا أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم وعذبوا ونفوا مَـــن عبده ووحده وصدق نبيه ، واعتصم بدينه، أذن الله عذ وجل لرسوله صلـــى الله عليه وسلم في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغي عليـــهم ، فكـــانت أول آية نزلت في آذانه في الحرب وإحلاله الدماء والقتال ، لمن بغي عليهم فيمـــا بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعـــالي (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله غلي نصرهم لقدير . الذين اخرجـــوا مـــن ديارهم بغير حق إلا يقولون ربنا الله ولولا دفـــع الله النـــاس بعـــهم لـــهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله مـــن ينصره ، ان الله لقوي عزيز. الذين ان مكناهم في الأرض أقـــاموا الصـــلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبـــه الأمـــور) * : أي أني أحللت لهم القتال لنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيمـــا بينـــهم وبيـــن الناس ، إلا ان يعبدوا الله وانهم إذا ظهروا أقاموا الصـــلاة وأتـــوا الزكـــاة ، وأمروا بالمعروف رضي الله عنهم أجمعين ، ثم انـــزل الله تبـــارك وتعـــالي عليه: (وقاتلوا حتى لا تكون فتنة) : أي حتى لايفتـــن مؤمـــن عـــن دينـــة (ويكون الدين لله) : أي حتى يعبد الله ، لا يعبد معه غيرة .

الإذن لمسلمي مكة بالهجرة الى المدينة :

قال بن اسحق : فلما أذن الله تعالي له صلـــى الله عليـــه وســـلم فـــي الحرب، وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعـــه، واوي إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه مـــن المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بـــالخروج الـــى المدينـــة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال : ان الله عز وجـــل قـــد جعل لكم أخوانا ودارا تأمنوا بها فخرجوا إرسالا ، و أقام رسول الله صلـــى الله عليه وسلم بمكة ينتظر له ربه في الخروج من الهجرة الى المدينة(١٥٤).

ازداد قلق قريش خاصة بعد ان سمح النبي لأصحابـــه بالـــهجرة الـــى يثرب وتوقعت هجرة الرسول نفسه وما يمكن ان يعنيه ذلك للقرشين . وكـــان أول المهاجرين ابوسلمه بن عبد الأسد وقد هاجر قبل العقبة بسنه ، وكان قـــدم على رسول الله صلي الله عليه وسلم مكة من ارض الحبشة فلما آذته قريـــش وبلغه إسلام من اسلم من الأنصار خرج الى المدينة مهاجرا .

وقد أشرنا الى ان اخشي ما تخشاه قريش هو ان يتمكن النبي صلـــي الله عليه وسلم من الخروج من بين أظهرهم الى مكان آخر وقوم آخرين وما قـــد يترتب على ذلك من احدث. لذلك سعت بكل جهدها الى منع المســـلمين مـــن الهجرة وخاصة رسول الله صلي الله عليه وسلم وإذا كان التخلص من النبـــي صلي الله عليه وسلم كان مجرد فكرة واردة في تفكير قريش إلا أنها لم تعمـــل على تنفيذها فعلا إلا حينما أحست بخطر خروج النبي من بين أيديها وخوفـــا من هجرته وهداهم تفكيرهم الى اختيار شاب من كل قبيلة ليشتركوا معا فـــي

---

١٥٤ ابن هشام ج٢ ص ٨٩ .

قتل رسول الله ، وبذلك يضيع دمه في القبائل ولا يجد بنو هاشم مناصا من قبول ديته واجمعوا على ذلك أمرهم ،واستعدوا لذلك وفي الليلة التي حددوها لتنفيذ غرضهم سبق علم الله بجعلها موعدا لخروجه عليه السلام من مكة وهجرته الى المدينة كما سنبين فيما بعد [١٥٥].

لماذا استجاب أهل يثرب الى الإسلام ؟ :

ليس هناك من يجادل في ان قبول أهل يثرب لدعوة النبي عليه السلام كان تحولا هاما في مسار الدعوة الإسلامية، مما دفع بكثير من المؤرخون إلى دراسة العوامل التي بأهل يثرب الى قبول الدعوة الإسلامية في الوقت الذي أنكرتها فيه قبائل العرب الأخرى . ولم يقتصر الأمر على المؤرخين المحدثين وإنما شاركهم في ذلك المؤرخين القدامى من أمثال الطبري حيث يحلل لنا ذلك قوله :" ان اليهود كانوا يهددونهم من حين لآخر بان نبيا الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وارم "[١٥٦] والى جانب أخبار اليهود لهم بقرب قدوم النبي، كانت معايشتهم لليهود سببا في تقريب فهمهم لرسالات السماء وذلك علاوة على ما كان بين الاوس والخزرج من خصومة جعل كل منهما يسعى لتأييد الدعوة الجديدة أما السبب الأساسي لذلك فهو أن الله سبحانه وتعالى أراد إظهار دينه وإعزاز نبيه فأتاح لأهل المدينة تقبل رسالة الإسلام.

---

[١٥٥] ابن هشام ج٢ ص٨٩ .

[١٥٦] تاريخ الطبري ج٢ ص ٨٩ .

هجرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – الى يثرب :

في بيعة العقبة الثانية تحدد وضع النبي – صلــى الله عليــه وســلم – بالنسبة لأهل يثرب، فقد اصبح بهذه البيعة واحدا منه دمــه كدمــهم وحكمــه حكمهم، وأصبح من المنطقي أن ينتقل الرسول – صلى الله عليـــه وســلم – ليعيش وسط أنصاره في يثرب وبدأ عليه السلام في الإعداد للهجرة واتخـــاذ أسبابها وترتيب أمورها تاركا موعدها لحين أمر الله سبحانه وتعـــالي، ولقــد تكلف بأمور الإعداد أبو بكر الصديق بعد أن سأل الرسول الصحبـــة، وظــل أمر هذه الترتيبات سرا كبيرا بين الرسول وصاحبه. وفي الليلة التي تجمـــهر فيها فتيان قريش ليقتلوا النبي – حفظه الله – خرج الرسول من بيـــن أيديـــهم دون ان يشعروا به بعد ان ترك في فراشه ابن عمه على بن أبي طالب لكـــي يتولى رد الودائع التي كانت لدى رسول الله للقرشيين.

ويحكي ابن هشام كيفية خروج الرسول عليه السلام – قـــائلا : لمـــا اجتمعوا له وفيهم أبوجهل بن هشام قال وهم على بابه: ان محمدا يزعم إنكـــم ان تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكـــم، فجعلت لكم جنات كجنات الأردن. وان لم تفعلوا كان لكم فيه ذبح، ثم بعثتـــم من بعد موتكم ثم جعلت عليكم نارا تحرقون فيها.

قال: وخرج عليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخذ حفنة مـــن تراب في يده ثم قال : أنا أقول ذلك ، أنت أحدهـــم وأخـــذ الله تعـــالي علـــى أبصارهم فلا يرونه فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يتلوا الآيات مـــــن "يس" " يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على سراط مستقيم ، تـــنزيل العزيز الرحيم " الى قوله تعالي : " فأغشيناهم فهم لا يبصرون " حتى فـــرغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من هذه الآيات ولم يبق منهم رجلا إلا قد

وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف الى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟ قالوا : محمدا قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمدا ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق إلى حاجته ، أما ترون ما بكم ؟ . قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فإذا عليه تراب . ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا في الفواش متسجيا ببرد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيقولون : والله إن لمحمدا نائما عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى اصبحوا فقام على رضى الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا[١٥٧].

ويروى ان هشام قصة أخرى عن هجرة المصطفى عليه السلام قائلا ان الله قد أذن لنبيه بالهجرة وكان أبو بكر - رضى الله عنه - رجلا ذا مال، فكان حين استأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الهجرة فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا تعجل لعل الله يجد لك صاحبا قد طمع بان يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعني بنفسه حين قال ذلك، فابتاع راحلتين، فأحتبسها في داره يعلفهما إعدادا لذلك.

قال ابن اسحق : فحدثني من لا اهتم عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنهم جميعا - أنها قالت : كان لا يخطئ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأتي ببيت أبي بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله صلى

---

[١٥٧] ابن هشام ج٢ ص ٩١ - ٩٢ .

الله عليه وسلم بالهجرة في ساعة لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر قـــال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قال : فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله صلـــى الله عليه وسلم وليس عند أبو بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر - رضـــى الله عنهم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج عني من عندك، فقال يـــا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك ؟ فداك أبي وأمي. فقال ان الله قـــد أذن لي في الخروج والهجرة. قالت : فقال أبو بكر : الصحبة يـــا رســـول الله : قال: الصحبة. قالت : فوالله ما شعرت قط قبل هذا اليوم أن أحدا يبكـــى مـــن الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ ثم قال: يا نبي الله، أن هاتين راحلتيـــن قد كنت أعددتها لهذا فاستأجرا عبد الله بن أريقط - رجلا من بني الدئل مـــن بكر - وكانت أمه امرأة من بنى سهم من عمرو، وكان مشركا - يدلهما علـــى الطريق فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

قال ابن اسحق: ولم يعلم فيما بلغني بخروج رســـول الله - صلـــى الله عليه وسلم - أحد حين خرج إلا على بن أبي طالب، وأبو بكر الصديـــق وآل أبي بكر. فأما على فإن رسول الله - صلى الله عليه وســـلم - فيمـــا بلغنـــي أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عـــن رســـول الله - صلى الله عليه وسلم - الودائع التي كانت عنده للناس. وكـــان رســـول الله - صلى الله عليه وسلم - ليس بمكة أحدا عنده شيئ يخشى عليـــه إلا وضعـــه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته.

حينما علمت قريش بخروج الرسول من بين أيديهم هاجت واضطربت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حيا أو ميتا مائة ناقة، فذهبت تلك الرسل يمينا وشمالا لكنهم لم تظفر به.

اختفى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصاحبه بغار ثور ثلاثة أيام حتى سكن الطلب عنهما وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذاك اليوم من الخبر، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى غنمه في المنطقة حتى يزيل آثار عبد الله، وتولت أسماء بنت أبي بكر تزويدهما بالطعام. وبعد الأيام الثلاثة جاءهما الدليل بالراحلتين. وتوجه ثلاثتهما الى يثرب عبر طرق ملتوية حتى وصلوا الى قباء لبنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الأول لثلاث وخمسين سنة من مولده، الموافق العشرين من شهر سبتمبر عام ٦٢٢ ميلادية . واستمر هناك أربعة أيام أسس فيها مسجد قباء. ولحق به في هذا المكان ابن عمه على بن أبي طالب بعدما رد الأمانات الى أصحابها في مكة. خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من قباء في وسط أصحابه من الأنصار والمهاجرين، وقد أدركته صلاة الجمعة وهو في الطريق فصلى بالناس لأول مرة، ثم تابع سيره الى يثرب فوصل إليها في السادس عشر من ربيع الأول، ونزل عند أبي أيوب خالد بن يزيد وكان أول أعماله أن شرع في بناء مسجده وبيتا له ملاصقا للمسجد. ومنذ ذلك الحين تبدأ مرحلة جديدة من النزاع الإسلامي تعرف بالطور المدني[١٥٨]. كما اتخذ عمر بن الخطاب

[١٥٨] انظر تفاصيل الهجرة عند ابن هشام ج٢ ص ٩٢ والطبري ج٢ ص ٣٧٢، ابن الأثير ج٢ ص ٧١.

رضي الله عنه من ذلك الحدث الخطير بداية للتاريخ عند المسلمين، وغدا هذا اليوم مهما بل غاية في الأهمية في التاريخ الإسلامي.

الطور المدني:

تضمن مجتمع المدينة حين وصول الرسول صلى الله عليه وسلم إليـها عدة عناصر رئيسية هى :

١- المسلمون وينقسمون الى مجموعتين :

أ - المهاجرون وهم مسلمو مكة الذين هاجروا الى يثرب.

ب -الأنصار وهم من دخل الإسلام من أهل يثرب وينقسمون الى أوس وخزرج.

٢ - اليهود وكانوا ينقسمون الى ثلاثة قبائل رئيسية هى :

أ - بنو قنيقناع. ب - بنو النضير. ج - بنو قريظة.

٣ - الوثنيون من الأوس والخزرج ممن لم يدخلوا الإسلام بعد.

ولذلك كان من أهم المشاكل التي واجهها الرسول عليه السلام بعـد وصولـه الى المدينة تتمثل في مسألتين أساسيتين الى جانب هدفه الرئيسي المتمثل فـي مواصلته الدعوة الى الله وهداية الناس.

وأولى هاتين المسألتين هي تنظيم العلاقة بين المـهاجرين والأنصـار والثانية تنظيم العلاقة بين المسلمين وغير خاصة اليهود. ولقد قام رسـول الله صلى الله عليه وسلم - بعدة أعمال عظيمة في المدينة ، و التي غدت منذ ذلك الحين أول عاصمة إسلامية بل و أصبحت هي مركز الدعوة الى الإسـلام ، و مقصد السفارات و الرحلات . و تحولت منذ ذلك الحين الى اسمها الجديـد

(المدينة) أو (المدينة المنورة) . و قد ذكر ياقوت الحموي أن للمدينة تسعة و عشرون اسما منها : طيبة ، و المحببة ، و الحبوبة ، و الناحية ، و المباركة ، و العاصمة ، و الشرفية ، و يثرب .

أهم أعمال الرسول صلي الله عليه و سلم بالمدينة :

١- المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار : نزل المهاجرون ضيوفا على أخوا نهم في الدين من الأنصار و شاركوهم عملهم و رزقهم ، و لقد طلب الرسول من المسلمين أن يتآخوا في الله أي أن يتخذ كل واحد من المهاجرين أخا له من الأنصار و جعل هذا التآخي حقيقيا و اخذ بيد على بن أبي طالب و قال هذا أخي . و يذكر ابن سيد الناس ، أ ن المؤاخاة كانت مرتين الأولي بين المهاجرين بعضهم و بعض قبل الهجرة و كانت على الحق و المواساة حيث آخي بينهم رسول الله صلي الله عليه و سلم أما الثانية فكانت حين نزل صلي الله عليه و سلم المدينة فآخي بين المهاجرين و الأنصار على المواساة و الحق في دار أنس بن مالك فكانوا يتوارثون بذلك دون القرابات أي أنة إذا مات الأنصاري ورثه المهاجر والعكس[١٥٩] ظل التوارث بالمؤاخاة قائما حتى غزوة بدر و الى حين قول الله تعالي " وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله"[١٦٠] فرجع كل مسلم الى نسبه وورثه قرباه . وعلى هذا النحو من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، توثقت وحدة المسلمين في المدينة بعد أن كان المسلمون فيها قبائل مختلفة

[١٥٩] ابن سيد الناس ج١ ص ١٩٩ .

[١٦٠] الأنفال الآية ٧٥ .

فيما بينهم وأصبح المسلمون المتآخون يشكلون قوة خطيرة يحسب مشـــــركوا مكة لها حسابا كبيرا (١٦١).

٢- العلاقة مع يهود يثرب : كتب الرسول - عليه السلام - كتابا ينظـم فيه العلاقة بين المسلمين و غير المسلمين و خاصـــــة اليـــهود ، و يتضمـــن الكتاب عدة أمور رئيسية أهمها :

أ - أن جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم و قبائلهم أمة واحدة مـــن دون الناس و ان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

ب - قرر حرية العبادة لليهود " لليهود و للمسلمين دينهم و مواليـــهم و أنفسهم ، كما فتح أمامهم باب الدخول في الإسلام و في هذه الحالة لـــــهم مـــا للمسلمين و عليهم ما عليهم . أنة من تبعنا من يهود فان له النصر و الأســـوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

ج - جعلت الصحيفة من رسول الله صلي الله عليه و سلم - حكما بيـــن كل الأطراف في الخلاف دون رؤساء القبائل من العرب أو زعمـــاء اليـــهود فقالت الصحيفة : و أنة ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشـــــتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والي محمد رسول الله .

و تعني هذه العبارة من جانب آخر أن الرسول عليه السلام قد وضــــع اللبنات الأولي في سبيل بناء الدولة الإسلامية ، الدولة التي لا تشتمل علـــــى المسلمين فقط و لكن يقطن معهم فيها سكان الأديان السماوية الأخرى .

---

[١٦١] عبد العزيز سالم: الدولة العربية ج٢ ص ٨٢ .

د – تضمن الكتاب بعد ذلك نصوصا تبين العلاقة التي يجب ان تكون بينهم وبين قريش على وجه خاص لأنها كانت اكبر أعدائه في ذلك الحين ، وكذلك بينت الصحافة ما يجب ان يتبع في حالة الحرب، وقررت ان على كل جماعة نفقتها فقال : وان على اليهود نفقتهم وان بينهم النصر على ما حارب أهل هذه الصحيفة.

ويقرر الكتاب حرمة المدينة، أي انه يحرم فيها ما يحرم في مكة.

((نص كتاب الرسول عليه السلام))

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، انهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنون، وبنو عوف على ربعتهم[١٦٢] يتعاقلون معاقلهم الأولى. وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنون، ولا يحالف مؤمن دونه. وان المتقين على من يفي منهم أو ابتغى دسيعة (عطية) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيدهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن. وإن ذمة الله وحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وانه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعض، وإن المؤمنين يبيئ بعضهم (يمنع ويكف على بعض بما نال دماءهم في سبيل

---

[١٦٢] انظر تحليل د. سالم للكتاب في المصدر السابق المشار إليه ص ٨٤ .

الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجـــير مشـــرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اغتبط مؤمنا قتـلا عن بينة فإنه قود به إلا ان يرضى ولى المقتول. وإن المؤمنين عليه كافـــة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هـــذه الصحيفـــة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وإنه من نصـــره أو آواه فإن عليه لعن' الله وغضبه يوم القيامة ... وإنه لا يخرج منهم أحدا إلا بـــإذن محمد – صلى الله عليه وسلم – . وأنه لا يجوز على ثأر جرح، وإنـــه مـــن فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم .. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفـــة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده الى الله عز وجل وإلـــى محمـــد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى ما فـــي هـــذه الصحيفـــة وأثره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وإن من بينهم النصر علـــى مـــن دهم يثرب. وإذا دعوا الى صلح يصالحونـــه ويلبســـونه فإنـــهم يصالحونـــه ويلبسونهم، وإنهم إذا دعوا الى مثل ذلك فإنه لهم علـــى المؤمنيـــن الا مـــن حارب في الدين الى أناس حصنهم من جانبهم الذي قبلهم.

٣ – بناء المسجد : بعد أن نزل الرسول عليه السلام في دار أبي أيـوب شرع في تأسيس مسجده وعمل فيه الأنصار والمهاجرون كمـــا عمـــل فيـــه الرسول بيديه الكريمتين.

وكان ذلك إشارة واضحة الى أهمية المسجد في الإسلام، وما من شـــك ان المسجد كمؤسسة إسلامية قد لعب دورا هاما في حيـــاة المســـلمين وفـــي التاريخ الإسلامي لان المسجد أصبح الى جانب كونه مخصصا للعبادة، مركز للاجتماعات، وللقضاء وللتعليم .. الخ. وكان المسلمون يجتمعون في المســـجد للصلاة لا ينادى بها أحد فيهم، فتكلموا مرة في ذلك الأمر لعلهم يصلون الـــى

وسيلة ينادى بها للصلاة فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصـــارى، وقال بعضهم اتخذوا قرنا "بوقا" مثل قرن اليهود. فقال عمـــر: أولا تتبعـون رجلا ينادى للصلاة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يابلال - قم فنـادي بالصلاة، فكان إذا جاء وقت الصلاة يقول بلال: الصلاة جامعة، وكـان مـن المنادين عبد الله من زبد من ثعلبه الأنصاري، فبينما هو بين النائم واليقظـان يرى شخصا يلقنه الأذان - فحضر الى رسول الله صلـى الله عليـه وسـلم وقص عليه ما رأى فقال له: إنها لرؤيا حق، لقن ذلك بلالا فإنه أندى صوتـا، ولما أذن بلال، حضر عمر، يجر رداءه فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسـول الله. وهناك آراء أخرى لبعض الفقهاء في قضية إثبات الأذان ولكن هذا هـو أرجح الأقوال.

جهاد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خلال الطور المدني:

" تبينا من هذه الدراسة مدى الأذى الذي لقيه الرسول والمسلمون مـن القريشيين والذي تصاعد الى حد إجبار المسلمين علـى الـهجرة أولا الـى الحبشة وثانيا الى يثرب وخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يـثرب وحيدا إلا من عون الله وصحبه وصديقه أبي بكر بن قحافة. ومع كل ذا لـم يواجه الرسول هذا العنف بالمثل بل تلمس طريق دعوته بالحسـنى والقـول الطيب وتحمل الأذى والصبر على المكروه ولقد ظل على ذلك ما يقرب مـن ثلاث عشرة سنه يدعو الناس بالحجة والموعظة الحسنة. وحثـه الله تعـالى على التذرع بالصبر بما أنزله عليه من الآيات مثل قوله تعالى " فاصبر كمـا صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم"[١٦٣].

[١٦٣] الأحقاف الآية ٣٥.

وبعد ان وصل المسلمون الى درجة معقولة مـــن المنعـــة وتفـــاقم أذى قريش سمح الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالدفاع عن أنفســـهم والجـــهاد فـــي سبيل دينهم وذلك في آيات نزل بعضها في مكة أواخر الفترة المكية وبعضـــها في المدينة وقد لخص الدكتور حسن إبراهيم حسن الأسباب التي يـــرى ان الله قد شرع من اجلها الجهاد فيما يلي: -

١ - الدفاع عن النفس، وفى ذلك يقول الله تعالى" أذن للذيـــن يقـــاتلون بأنهم ظلموا وان الله علـــى نصرهم لقـــدير الذين اخـــرجوا من ديارهم بغير حـــق إلا ان يقـــولوا ربنـــا الله" (سورة الحج:٢٩:٢٢-٤٠).

وقوله تعالى: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم ولا تعتـــدوا ان الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم و أخرجوهم مـــن حيـــث أخرجوكـــم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فـــاقتلوهم كذلك جزاء للكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكـــون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين"(ســـورة البقـــرة ٢:١٩-١٩٣). (وما لكم لا تقتلون في سبيل الله والمستضعفين مـــن الرجـــال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القريـــــة الظـــالم أهلـــها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا)(سورة النساء ٤ : ٧٥).
من ذلك نرى ان القتال لم يشرع إلا دفاعا عن النفس وما الى ذلـــك حفاظـــا على العرض والمال.

٢ – تامين الدعوة والدفاع عنها أمام من يقف في سبيلها، حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام الفتنة عن دينه، كما حدث لعمار بن ياسر وبلال وغيرهما من المستضعفين من المسلمين.

ولما تمالا أهل مكة مع غيرهم من العرب على قتال الرسول، أمره الله بقتال المشركين كافة (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)(سورة التوبة ٩ : ٣٦).

ولما نقض يهود المدينة العهد الذي أخذه الرسول عليهم وانضما الى مشركي قريش لقتاله، نزل قوله تعالى" و إما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين"(سورة الأنفال ٩ : ٥٨).

وقد وعد الله المسلمين النصر أعدائهم وبشرهم بالنعيم في الآخرة فقال"فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا والآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما"(سورة النساء ٤ : ٧٤)، وقوله تعالى "ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون"(سورة النساء ٤ : ١٠٤)، وقوله تعالى"يأيها الذين أمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا، فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير"(سورة الأنفال ٨ : ١٥ – ١٦).

بدأ الرسول عليه السلام بعد ذلك إرسال السرايا والبعوث والخروج في الغزوات للتصدي لقوافل قريش المارة بالقرب من المدينة وكان أول لواء عقده في الإسلام كما يقول ابن هشام سرية أرسلها بقيادة عبيده بن الحارث

بن عبد المطلب وتتكون من ٦٠ الى ٨٠ مهاجرا ليس فيهم من الأنصار أحد. فسارت السرية حتى بلغت مكانا يسمى ماء الحجاز فلقي هناك جمعا من قريش فلم يكن بينهم قتال (١٦٤) أما الطبري فانه ينقل عن الواقدى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لحمزة بن عبد المطلب لواء ابيض في ثلاثين رجلا م المهاجرين ليعترض عير قريش وانه لقي أبا جهل في ثلثمائه رجل فحجز بينهم عدى بن عمرو الجهني فافترقوا ولم يكن بينهم قتال(١٦٥).

واصل رسول الله عليه الصلاة والسلام إرسال السرايا والبعوث وخوج بنفسه لأول مرة الى منطقة ودان يريد قريشا فوادع بني ضمير وعرفت هذه الغزوة بالأبواء (١٦٦) وتكررت هذه الغزوات من رسول الله وإرساله السرايا مما سبب لقريش قلقا شديدا وبدأت ترى بعينيها ما كانت تخشاه من قبل. ولذلك نجد ان التوتر يسود مكة وبرزت فكرة ضرورة تسوية الحساب مع المسلمين بالقوة لكي تبقى لقريش هيبتها ومكانتها بين العرب وترتب الى ذلك وقوع عدة معارك هامة بين المسلمين والمشركين نشير إليها باختصار فيما يلي:-

١- غزوة بدر الكبرى:

وتعرف بهذا الاسم تميزا لها عن غزوة بدر الأولى والتي خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة العشيرة بعدة ليالي وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثانية من الهجرة، لكي يلحق بكرز بن جابر

---

١٦٤ ابن سيد الناس ج١ ص ١٧١.

١٦٥ الطبري ج٢ ص ٤٥٢.

١٦٦ المصدر السابق ج٢ ص٤٠٤.

الفهري والذي أغار على المدينة ولكن الرسول لم يلحق به. وهناك من جعل بدرا الأولى في ربيع الأول من السنة الأولى الهجرة [١٦٧].

علم رسول الله عليه السلام بمقدم أبي سفيان بن حرب على راس عير لقريش تحتوى على معظم ما لها وتجارتها و أراد الرسول عليه السلام الاستيلاء على القافلة تعويضا للمهاجرين عما تركوه من الأموال في مكة أو ما استولى عليه القريشيون ولهذا ندب أصحابه للخروج معه قائلا لهم: "هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ان ينفلكموها" فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك انهم لم يظنوا ان رسول الله عليه السلام يلقى حربا" [١٦٨]. وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلا من المهاجرين والأنصار.

أحس أبو سفيان بالخطر المتربص بالقافلة فأرسل يستغيث بقريش فخرج المشركون من أهل مكة سراعا ومعهم القيان والدفوف ووصل عددهم الى حوالي تسعمائة وخمسين فردا أما أبو سفيان فقد انحاز الى طريق آخر وتمكن من النجاة بالقافلة وأرسل الى قريش يعلمها بنجاة القافلة ويطلب منها العودة الى مكة. لكن العنجهية والحرص على مكانة قريش بين القبائل جعل القريشيين يصرون على إظهار مكانتهم ولذلك حينما أرسل لهم أبو سفيان قائلا :" إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا" قال أبو جهل بن هشام :" والله لا نرجع حتى نرد بدرا. فنقيم ثلاثا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان. وتسمع بنا العرب

---

[١٦٧] الطبري ج٢ ص٤٠٧، ابن سيد الناس ج١ ص٢٧٢.

[١٦٨] ابن سيد الناس ج ١ص٢٤٢.

وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها". ولكن فريقا من المشركين عاد الى مكة وخاصة بنو زهرة وبنو عدي وعاد طالب بن أبو طالب وسار باقي القوم حتى أتوا بالقرب من بدر. أما رسول الله عليه السلام فقد سار في أصحابه وعدتهم حوالي الثلاثمائة رجل حتى وصل الى أدنى ماء من بدر فنزله فأشار عليه حباب من المنذر ان يسير حتى يصل الى أدنى ماء من القوم. حتى يستطيع ان يمنع المشركين من استغلال الماء بينما يكون ميسرا للمسلمين. واستجاب رسول الله للرأي والمشورة فنزل أدنى ماء من القوم ثم غور غيره وبنى له رسول الله حوضا على القليب الذي نزل عليه. وكذلك اقترح سعد بن معاذ ان يبنى للرسول عليه السلام عريشا يكون فيه خلف الناس يشجعهم ويأمن فيه على نفسه "لأنك يا رسول الله. ان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن ورائنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا انك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك". فأثنى عليه رسول الله عليه السلام ودعا له بالخير ثم بنى له عرشا فكان فيه [١٦٩] استشهار عليه السلام المهاجرين والأنصار في القتال فوجد عندهم الثقة والتأييد والإصرار على الجهاد في سبيل الله وكانت هذه المشورة حين علم بخروج قريش للقتال. فتكلم عمر وأبا بكر فاحسنا، وقال له المقداد بن عمرو: "امض يا رسول الله لما أمرك به الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى" اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون، ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد لجا لدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا. ثم قال أشيروا على أيها الناس، و إنما كان يريد

[١٦٩] ابن هشام ج٢ ص١٩٠.

الأنصار لان العدد فيهم وللشروط التي كانت بينه وبينهم فلم تكن بيعتهم إلا على انهم يمنعونه مادام في ديارهم. فكان صلى الله عليه وسلم يتخوف انهم لا يرون نصرته إلا على من دهمه في المدينة من عدوه، وليس من حقه عليهم ان يسير بهم الى عدو لهم خارج مدينتهم. ولكن رد عليهم سعد بن معاذ رضي الله عنه والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال: اجل : فقال له سعد : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل وما نكره ان تلقى بنا العدو غدا، انا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله فسر عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال سيروا وابشروا فان الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني انظر الى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتى وصل قريبا من بدر.

التقى الجمعان عند ماء بدر في السابع عشر من شهر رمضان في العام الثاني لهجرته صلى الله عليه وسلم وكاد الأمر ينتهي دون قتال حيث جرت بين القريشيين دعوة الى السلم تزعمها حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة الذي قام في الناس خطيبا وقال:" يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا عليه السلام و أصحابه شيئا والله لان أصبتموه لا يزال الرجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن خاله ورجلا من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فان أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك الفاكم ولم تعرضوا منه مما تريدون" (١٧٠) لكن أبا جهل رفض الفكرة وعير

[١٧٠] ابن هشام ج٢ ص ١٩٦.

عتبة بالخوف أثار مسألة الثأر لعمرو بن الحضرمي الـــذي ســبق ان قتلتــه سرية مسلمة بقيادة عبد الله من جحش. وكان أمر الله بالمعركة.

تراءى الجيشان: فلم يكن بد من الحرب صبيحـــة يــوم الثلاثــاء ١٧ رمضان (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة - حسب القواعــد العربية - فخرج من صفوف المشركين ثلاثة:عتبة بن ربيعة بن عبد شـــمس وابنه الوليد و أخوه شيبه فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصــار فقال لهم القريشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفانا مني بنى عمنا فخـــرج لـــهم حمزة بن عبد المطلب وعبيده بن الحارث بن المطلب وعلى بن أبي طـــالب فكان عبيده بازاء عتبة وحمزة بازاء شيبه وعلى بازاء الوليـــد فأمـــا حمـــزة وعلى فلم يمهلا صاحبيهما ان قتلاهما -وأما عبيده وشيبه فاختلفــا ضربتيـــن كلاهما أثبت من صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فتغلبا عليه واحتمـــلا عبيده وهو جريح الى صفوف المسلمين، ثم بدأ الهجوم بين الصفـــوف ولـــم تطل الحرب في ذلك النهار، فان الهزيمة قد حلت بصفوف قريـــش، بعـــد ان قتل جمع صناديد هم فيهم أبو جهل بن هشام رأس هذه الفتن كلها واسر مـــن قريش نحو السبعين وهرب الباقون لما انتهت الموقعة أمر عليه السلام بدفـــن الموتى من قريش والمسلمين، وكانت هذه عادته في حروبه، ثم أمـــر بجمـــع الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين الى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهمـــا - وهو عبد الله بن رواحه - الى أهل العالية، والآخر - يزيد بن حارثه - الـــى أهل السافله ثم عاد عليه السلام الى المدينة، وفى عودته قتـــل رجليـــن مـــن الأسرى أحدهما النضر بن الحارث، لأنه كان ضاريا في عـــداوة المســـلمين بمكة يكثر آذاهم ويعلم القيان الشعر الذي يهجو به المســـلمون ليغنيـــن بـــه، والثاني عقبة بن أبي معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل مـــن الأسرى غيرهما.

ولما اقبل بالأسرى فرقهم بين أصحابه، وقال استوصوا بهم خيرا قـــال أبو عزيز بن عمير: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بـــي مـــن بـــدر فكانوا إذا قدم غداؤهم أو عشاؤهم خصوني بالخبز وأكلـــوا التمـــر لوصيـــة رسول الله إياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بـــها قـــال فاستحى فأرادها على أحدهم فيردها على ما يمسها وكان أبـــو عزيـــز هـــذا صاحب لواء المشركين ببدر.

ثم استقر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان استشار أصحابـــه على قبول الفداء من قريش في الأسرى، وكان بعض الصحابة ومنهم عمـــر وسعد بن معاذ - يريدون قتلهم، وكان رأى أبي بكـــر واكـــثر الصحابـــة لا يريدون ذلك، ويريدون قبول الفداء (وذلك كله قبـــل ان تـــنزل آيـــة القتـــال) فرضى عليه السلام رأى أبي بكر، ولما لم يكن ذلـــك عـــن أمـــر مـــن الله خصوصا انه لم يسبق لنبي ان أكل شيئا من الغنائم، فان موسى عليه الســـلام كان يحرقها ولا يبقى شيئا منها لذلك كان هذا القرار سببا لعتاب الله ســـبحانه وتعالي بقوله (ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد عرض الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب مـــن الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم) وكان رأى سعد حين القتال ان المسلمين لا يأســـرون ثـــم أمره الله ان يتلطف بهؤلاء الأسرى فقال (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم مـــن الأسرى ان يعلم الله في قبولكم خيرا مما اخذ منكم ويغفر لكـــم والله غفـــور رحيم).

علمت قريش بما كان فأرسلت في فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسـل ومنهم من بغير فداء منهم أبو عزة الجمحى الشاعر بعد ان تعهد ان لا يكـــون

ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذي يكتبون ان يعلم عشـــرة من صبيان المدينة الكتابة.

وكان لهذه الغزوة أثرها القوى في رفع مكانة المسلمين بين العرب كمـا إنها كانت أول صدام جدي بين القوتين الإيمان والشرك نصـــر الله خلالــها الإيمان وخذل الشرك والمشركين وبلغ من اعتزاز المسلمين بها ان أســـموها غزوة الفرقان لان الله سبحانه فرق بها بين الحق والباطل(١٧١).

كان لغزوة بدر وقع الصاعقة على قريش خاصة والمكيين عامة لأنــها ضربتها في صميمها وأضاعت هيبتها بين العرب. وليس أدل على ذلك مـــن ان قريش منعت البكاء على القتلى حتى تثأر لهم وحتى لا يشمت المســـلمين فيهم (١٧٢) كما أنها رصدت جميع أموال القافلة التي نجت لحرب رســـول الله والقضاء عليه. وكان لابد من واقعة أخرى تسعى لها قريـــش وتســـتعد مـــن اجلها.

(٢) غزوة أحد :

خرجت قريش في العام التالي لقتال المسلمين بقيادة أبـــي ســـفيان بـــن حرب على رأس جيش يضم حوالي ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وممن خـــرج لمساعدتهم على إدراك ثأرها من ثقيف وكنانــــة وتهامـــة والأحـــابيش. كمـــا اخرجوا معهم نساءهم لتحميسهم في المعركة وعلى رأسهن هند زوجة أبـــي

---

[١٧١] اليعقوبي ج٢ ص ٣٤.

[١٧٢] حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج١ ص ١٠٩.

سفيان واخرج جبير من مطعم غلامه وحشي الحبشي خصيصا لقتل حمـــزة من عبد المطلب.

ويصف ان هشام خروج قريش على النحو التالي:-

خروج قريش :

فخرجت قريش بحدها وجدها وحديدها واحابيشها ومن تابعها من بنَــي كنانة، وأهل تهامة وخرجوا بالظعن - أي بالنساء -؟ التماس الحفيظـــة، وألا يفروا فخرج أبو سفيان بن حرب، وهو قائد الناس، بهند بنت عتبـــة وخـــرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بـــن المغـــيرة وخـــرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفـــوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمر لبن عمير الثقفية، وهى أم عبـــد الله بـــن صفوان بن أمية.

قال ابن هشام : ويقال : رقية.

قال ابن إسحاق : وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج وهـى أم عُبد الله بن عمرو، وخرج طلحة بن أبي طلحة وأبو طلحة عبد الله بن عبد العزيز بن عثمان بن عبد الدار بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية وهـى أم بنى طلحة: مسافع والجلاس وكلاب، قتلوا يومئذ هم وأبوهم، وخرجت خنـلس بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بنى مالك بن حسل مع ابنها أبي عزيـــز بن عمير وهى أم مصعب بن عمير، وخرجت عمرة بنت علقمة إحدى نســاء بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة. وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشـــي أو مر بها قالت : ويها أبا دسمة أشف، واستشف وكان وحشي يكنـــي بـــأبي دسمة، فاقبلوا حتى نزلوا بعينين، بجبل ببطن السبخة قناة شفير الوادي، مقـابل المدينة.

رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشاورته القوم :

قال فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين : أني رأيت والله خيرا، رأيت بقرا ورأيت في ذباب سيفي ثلما، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة.

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رأيت بقرا لي تذبح ؟ قال: فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي، فهو رجل من أهل بيتي يقتل.

قال ابن إسحاق: فان رأيتم ان تقيموا ان تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فان أقاموا أقاموا بشر مقام، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان رأى عبد الله ابن أبي سلول مع رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى رأيه في ذلك، وألا يخرج إليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين ممن اكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره، ممن كان فاته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا الى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا؟ فقال عبد الله بن أبي سلول: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فو الله ما أخرجنا منها الى عدو لنا قط إلا أصحاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فان أقاموا أقاموا بشر محبس وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا. فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس لامته، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له: مالك بن عمرو، أحد بني النجار فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج عليهم،

وقد ندم الناس، وقالوا: استكر هنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكـــن لنا ذلك.

فلما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا يا رسـول الله: استكر هنالك ولم يكن ذلك لنا، فان شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رســـول الله صلى الله عليه وسلم ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته ان يضعها حتى يقـــاتل، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه.
قال ابن هشام: واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس.

انخذال المنافقين:

قال ابن إسحاق: حتى إذا كانوا بالشروط بين المدينة واحد، انخـــزل عنه عبد الله بن أبي سلول بثلث الناس، وقال أطاعهم وعصاني، مـــا نـــدرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفـــاق والريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، أخو بنى سلمة، يقول: يـــا قـــوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلـــم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى انه يكون قتال. قال: فلما اســـتعصوا عليه وأبوا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فســـيغنى الله عنكـــم نبيه.

التقى الجمعان وعسكر المسلمون بجوار جبل أحـــد ناحيـــة ســـفحه المواجه للمدينة والمنحدر الى بطن الوادي الذي عسكرت فيه قريـــش، و أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحرم المشركين من قوة فرسانهم والتـــي كانت تقدر بحوالي مائتي فارس فجعل على الجبل عددا من رماة المســـلمين يقدر عددهم بخمسين راميا و أمر عليهم عبد الله ابن جبير وقال له: انضـــح

عنا الخيل بالنبل لا يأتون من خلفنا ان كانت لنا أو علينا. وأثبـــت مكـــانك لا نؤتين من قبلك [١٧٣].

كانت حماسة المسلمين في اوجها ورغبتهم صادقة في إحراز النصـــر كما حدث يوم بدر وكان لشدة هجمتهم ان أوقع الله الهزيمـــة فـــي صفـــوف المشركين فتقهقروا وهربوا وبدا المسلمون في جمع الغنائم فلما رأى الرمـــاة ذلك أسرعوا لمشاركة المسلمين جمع الغنائم مخالفين بذلك أوامـــر الرســـول وكانت فرصة اغتنمها خالد بن الوليد قائد خيالة قريـــش فـــدار مـــن خلـــف المسلمين وهاجمهم من حيث لا ينتظرون.

اضطرب المسلمون لهذه المفاجأة واختل نظامهم وكثرت القتلى بيـــن صفوفهم، وقتل مصعب بن عمير بين يدي الرسول وصـــاح قائلـــه: " ألا ان محمدا قد قتل " وسقط رسول الله – صلى الله عليـــه وســـلم – فـــي حفـــرة، وكسرت له سنتان، وجرح في شدقيه جرحا شديدا، وقتل وحشي حمـــزة بـــن عبد المطلب ومثلت بجثته هند بنت عتبة، واستشهد من المسلمين اكـــثر مـــن سبعين شهيدا ويصف الطبري الموقف بقوله: " وكان المسلمين لما أصابـــهم من البلاء أثلاثا: ثلث قتيل وثلث جريح وثلث منهزم، وقد أجهدتـــه الحـــرب حتى ما يدرى ما يصنع ٠٠ [١٧٤] .

كان خبر وفاة النبي الذي انتشر بين القريشيين أحد الأســـباب التـــي جعلت القريشيين يكفون عن القتال على أساس انهم ثأروا لأنفسهم مما وقـــع

---

[١٧٣] ابن هشام ج٣ ص ١٨ ابن كثير ج٢ ص ١٠٥.

[١٧٤] الطبري ج٢ ص ٥١٤.

يوم بدر فكفوا عن القتال و بدءوا يستعدون للعودة الى مكة، وتأكد أبو سـفيان من ان النبي - عليه السلام - مازال حيا و أدرك انه إنما تمكن فقط من الثـار ليوم بدر دون ان يعنى ذلك عودة مكانة قريش الى ما كانت عليه قبـل بـدر وان كفة المسلمين مازالت تعادل كفة المشركين. ومن هنا كان لابد من يـوم ثالث تحسم فيه الأمور لصالح المكيين حتى تعود لقريش مكانتها بين العـرب. لذلك قال أبو سفيان للمسلمين قبل قفوله الى مكة: " ان موعدكم بـدر للعـام المقبل "، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه: قـل نعـم هى بيننا وبينك موعد " [١٧٥].

استشهاد حمزة رضى الله عنه :

دعا جبير بن مطعم غلاما حبشيا يقال له: وحشي، يقذف بحربة لـه قذف الحبشة قلما يخطئ بها فقال له: اخرج مع الناس، فان أنت قتلت حمـزة عم محمد بعمى طعيمه بن عدى، فأنت عتيق، وهناك آراء أخرى بان التـي استأجرته لقتل حمزة رضى الله عنه هى هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بـن حرب.

كان حمزة فارسا لا يشق عليه غبار، أوقع في صفـوف المشـركين رعبا هائلا، وانتصر على كل من تصدى له، وتربص به وحشـي حتـى إذا وجد فرصة اهتبلها وسدد إليه طعنة رمح قاتله لم ينج منها أسد الله حمزة بـن عبد المطلب رضى الله عنه ولخطورة هذا الحادث، وتأثيره على نفس رسـول الله صلى الله عليه وسلم فانه يجدر بنا ان نورد رواية ابن هشام عن حبشـي وقتله لحمزة وما جرى لحبشي بعد ذلك قال ابن هشام نقلا عن ابن اسـحق:

---

[١٧٥] الطبري ج٢ ص ٥٢٧.

قال: عبد الله بن الفضل خرجت وزميلا لي في عمل فلما قفلنا مررنا بحمص - وكان وحشى، مولى جبير بن مطعم، قد سكنها و أقام بها فلما قدمناها، قال لي عبيد الله بن عدى: هل لك في ان نأتي وحشا فنسأله عن قتل حمزة كيف قتله ؟ قال: قلت له: ان شئت. فخرجنا نسأل عنه بحمص، فقال لنا رجل ونحن نسأل عنه: إنكما ستجدانه بفناء داره، وهو رجل غلبت عليه الخمر، فان تجداه صاحيا تجدان رجلا عربيا، وتجدان عنده بعض ما تريدان، وتصيبا عنده ما شئتما من حديث تسألانه عنه، وان تجداه وبه بعض ما يكون به، فانصرفا عنه ودعاه،قال فخرجنا نمشى حتى جئناه، فإذا هو بفناء داره على طنفسة له فإذا شيخ كبير مثل البغاث.

قال ابن هشام: البغاث ضرب من الطير الى السواد.

فإذا هو صاح لا باس به. فلما انتهينا إليه سلمنا عليه، فرفع رأسه الى عبيد الله بن عدى، فقال: ابن لعدى بن الخيار أنت ؟ قال نعم: أما و الله ما رايتك منذ ناولتك أمك السعدية التي أرضعتك بذي طوى، فأني ناولتك وهى على بعيرها فأخذتك بعرضيك فلمعت لي قدماك حين رفعتك إليها، فو الله ما هو إلا ان وقفت على فعرفتهما. قال: فجلسنا إليه، فقلنا له: جئناك لتحدثنا عن قتلك حمزة، كيف قتلته ؟ فقال: إما إني سأحدثكما كما حدثت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألني عن ذلك، كنت غلاما لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش الى حد قال لي جبير. ان قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق قال: فخرجت مع الناس وكنت رجلا حبشيا لقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها شيئا ! فلما التقى الناس خرجت انظر حمزة واتبصره، حتى رايته في عوض الناس مثل الجمل الأوراق، يهد الناس بسيفه هذا، ما يقوم له شئ، فو الله أنى لا تهيا له، أريده واستتر منه بشجرة أو حجر لأدنو منه إذ تقدمني إليه سباع

بن عبد العزي، فلما رآه حمزة قال له: هلم الى يا ابن مقطعة البظور، قـــال، فضربه ضربة كأن ما اخطأ رأسه. قال: وهززت حربتي حتى إذا رضيـــت منها. دفعتها إليه، فوقعت في ثنيته، حتى خرجت من بيـــن رجليـــه، وذهــب لينوء نحوي، فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتـــي، ثــم رجعت الى العسكر، فقعدت فيه ولم يكن لي بغيره حاجة، و إنما قتلته لأعتق. فلما قدمت مكة أعتقت ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة هربت الى الطائف فمكثت بها، فلما خرج وفد الطائف الـــى رســـول الله صلى الله عليه وسلم تعيت على المذاهب فقلت: الحـــج بالشـــام واليمـــن، أو ببعض البلاد: فو الله أني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك و الله مـــا يقتل أحد من الناس دخل في دينه، وتشهد شهادته.

فلما قال لي ذلك، خرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليـــه وسلم المدينة، فلم يرعه إلا بي قائما على رأسه أشهد بشهادة الحق، فلما رآني قال: أوحشي؟ قلت يا رسول الله قال: اقعد فحدثني كيف قتلت حمـــــزة، قـــال فحدثته كما حدثتكما، فلما فرغت من حديثي قال: ويحك! غيب عني وجـــهك. فلا أرينك، قال: فكنت أتنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان لئـــلا يراني، حتى قبض رسول الله صلي الله عليه وسلم.

وحشي يقتل مسيلمة :

فلما خرج المسلمون الى مسيلمة الكذاب صـــاحب اليمامـــة خرجـــت معهم، و أخذت حربتي التي قتلت بها حمزة ! فلما التقى الناس رأيت مســـيلمة الكذاب قائما في يده السيف وما اعرفه، فتهيأت له، وتـــهيا لـــه رجـــل مـــن الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يريده فهزت حربتي حتـــى إذا رضيـــت منها دفعتها عليه، فوقعت فيه، وشد عليه الأنصاري فضربه بالسيف، فربـــك

اعلم أينا قتله فان كنت قتلته: فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قتلت شر الناس.

قام - رسول الله صلى الله عليه وسلم - بدفن شهداء يوم أحد بعد ان صلى عليهم ثم انصرف عائدا الى المدينة، وفي اليوم التالي آذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بالاستعداد للقتال وخرج من شهد معه أحد حتى وصل الى حمراء الأسد خشية ان يكر القريشيون على المدينة وبلغ ذلك القريشيين فعادوا الى مكة.

وعند انصراف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من حمراء الأسد ظفر بأبي عزه الجمحي الذي من عليه بعد بدر، فقال له أقلني يا محمد فقال صلى الله عليه وسلم، والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها تقول خدعت محمدا مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ثم أمر بضرب عنقه. والذين استشهدوا بأحد من المسلمين ٧٠ رجلا أربعة من المهاجرين وباقيهم من الأنصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلا.

انزل الله في هذا اليوم ستين آية من القرآن في سورة آل عمران، وهى السورة الثالثة من أول قوله تعالى " وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد القتال و الله سميع عليم " الى قوله ... " فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجرا عظيم ".

وقد جمعت هذه الآيات أمورا : (١) اجمل تعزية لهم على ما أصابهم يوم أحد . (٢) ان صفة الصبر وعلو النفس ليتبين أثرهما إلا عند النكبات. (٣) توبيخ لهم بألطف إشارة على ما كان من ضعفهم حينما أشيع ان محمدا

قتل. (٤) بيان الأسباب الحقيقية لما كان يوم أحد "ولقد صدقكم الله وعـــده إذ تحثونه بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم مـا تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكـم ولقد عفا عنكم و الله ذو فضل على المؤمنين". وكل هذه متى حصل أمر منها في جيش فقد النظام والروح التي بها يستحق الظفر، وهى الفشـل والتنـازع والعصيان. (٥) ما كان منهم حين الانصراف عـن الموقعـة وكيـف كـان يدعوهم الى الثبات والصبر.(٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين اكـثروا مـن غمز المسلمين والشماتة بهم. (٧) إعلان العفو عن المنـهزمين " ان الذيـن تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استذلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم " الثناء على شهداء الموقعة والأحبار انهم "أحيـاء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشـرون بـالذين لـم يلحقوا بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشـرون بنعـم من الله وفضل وان الله لا يضيع اجر المؤمنين" وأخيرا أشار الى ما كان مـن خروجهم ثاني يوم أحد بعد ان أصابهم القرح ووعد الذين احسنوا منهم واتقوا أجرا عظيما.

وقد قيل في هذه الموقعة كثيرا من الشعر العربـي، قالتـه قريـش والمسلمون: نقله ابن هشام في سيرته.

ولقد كانت غزوة أحد درسا لا ينسـى علمـهم الطاعـة والاتحـاد، ومحص قلوبهم وزادهم أيمانا على أيمانهم وكانت من ناحية أخـرى فرحـة لغير المسلمين من اليهود والمشركين حتى انهم استهزءوا بالمسلمين، ونظروا إليهم بشماتة واستخفاف مما ترتب عليه قيام المسلمين بحـرب ليـهود بنـى النضير وإجلائهم عن المدينة، وقد سبق لهم إجلاء بنى قوينقاع بعـد غـزوة

بدر، ولم يتبقى في المدينة من اليهود إلا بنو قريظة الذيــن قاتلــهم الرســول صلى الله عليه وسلم بعد الأحزاب، وسنبين موقف المسلمين من اليهود فـــي الصفحات التالية.

٣ - غزوة الأحزاب:

كان لقريش ان تستعد لهذه الغزوة استعدادا يكفل لها النصر النـــهائي على المسلمين بعد ان ثارت يوم أحد ليوم بدر ولذلك لم تذهب في العام التالي كما قال أبي سفيان، وخرجت في العام الخامس مـــن هجـــرة الرســول فـــي جيوش. لم ترها شبه الجزيرة العربية من قبل بقيادة أبي سفيان بـــن حـــرب وصل عددها الى اكثر من عشرة آلاف مقاتل تضم قريشا وحلفائـــهم و مـــن اليهود ومن غطفان. سمع الرسول عليه السلام بهذه الأخبار فشاور أصحابـــه، وكان الرأي هذه المرة متفقا على الدفاع عن المدينة مـــن داخلـــها، و أشـــار سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة من شمالها حيـــث قـــامت الجبـــال بحمايتها من الجهات الأخرى.

قام الرسول - عليه السلام - والمسلمون بحفر الخندق وفرغوا منـــه قبل وصول القريشيين، الذين قاموا بحصار المدينة من الخارج بينمـــا وقـــف الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون يدافعون عنها من داخلها.

في تلك اللحظات العصيبة تمكن حي ابن اخطب زعيم يـــهود بنـــي النضير من إقناع كعب بن أسد زعيم بني قريظة بنقد عـــهده مـــع الرســـول والاشتراك مع قريش في القضاء على الإسلام والمسلمين. ورغم تردد كعـــب في بداية الأمر إلا انه رآى في ذلك فرصة سانحة لشفاء ما في قلوب اليـــهود من غل على المسلمين، وحين شاهد ضخامة جيش قريش ومن معها و تـــأكد

من انتصارهم على المسلمين. نقض عهده مع الرسول -صلى الله عله وسلم - وانحاز الى المشركين وكان هذا موقفا صعبا يصفه ابن الأسير بقوله " فعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف وآتاهم عدوهم من فوقهم ومن اسفل منهم ونجم النفاق من بعض المنافقين [١٧٦] " كان الموقف حرجا، وحاول الرسول - صلى الله عليه وسلم - تفتيت وحدة الأحزاب فأرسل الى غطفان يعرض عليها ثلث ثمار المدينة على ان ترجع، ولكن رفض الأنصار وفضلوا الجهاد. وظل حصار المشركين للرسول ومن معه حوالي شهر كان طعمه بالنسبة للمسلمين مر المذاق، صعبا، لكن الله سبحانه وتعالى شملهم برعايته حين جاء نعيم بن مسعود الأشجعي الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلن إسلامه فطلب إليه الرسول ان يغزل عنه لان الحرب خدعة وكان سيدا في قومه ومعروف بين القريشيين واليهود فذهب الى بنى قريظة وحظرهم من خطاهم في تعاونهم مع قريش دون ضمان في أيديهم من جانب القريشيين، وقال له "قد ظاهرتم قريشا وغطفان على حرب محمد، وليسوا كأنتم، البلد بلدكم به أموالكم ونساءكم لا تقدرون ان تتحركوا عنهم ٠٠ وليس الأمر كذلك بالنسبة لقريش" [١٧٧] ونصحهم بان يطلبوا من قريش وغطفان رهائن تكون عندهم حتى يضمنوا ما بينهم من تحالف، فرأى اليهود ان ذلك رأى سديد وعملوا به.

أما نعيم فقد حذر قريشا وغطفان من ان اليهود قد ندموا على نقضهم عهدهم مع محمد وانهم سيطلبون منكم عددا من الرهائن سيقومون بتسليمها

---

[١٧٦] ابن الأثير ج٢ ص ١٢٣.

[١٧٧] نفس المصدر ج٢ ص ١٥٢.

إليه حتى يثبتوا له بقاءهم على حلفهم معه فان طلبــــوا منكـــم رهـــائن فـــلا تعطوهم.

وكانت تلك إرادة الله، فقد أرسل أبو سفيان الى بنى قريظـــــة يطلـــب منهم القتال فرفضوا إلا ان يعطوهم رهائن من بينهم فرفضت ذلـــــك قريشـــا وغطفان. وتبدد الحلف الذي كان بين الفريقين.

يئس القريشيون من الحصار، و أرسل الله الريـــاح تقلـــب قدورهـــم وتنزع خيامهم، فرفعوا الحصار، وعادوا الى مكة دون تحقيق غرضهم أدرك رسول الله روعة هذا النصر الإلهي، وان قريشا لـــن تتمكـــن مـــرة أخـــرى من العودة إليـــه بمثـــل هـــذه الإعـــداد فقـــــال: اليـــــوم نغـــــزوهم ولا يغزونا[١٧٨].

موقف الرسول عليه الصلاة والسلام من اليهود:

سبق ان أشرنا الى قيام المصطفي – صلى الله عليه وسلم – بوضـــــع كتاب يحدد فيه العلاقة بين المسلمين و اليهود، وارتضى الجميـــع ذلـــك بـــل ودخل بعضهم في الإسلام ومنهم عبد الله ابن سلام رضي الله عنـــــه، وكـــان حبرا عالما من سادة اليهود، واسلم بإسلامه أهل بيته ثم لم يلبـــث اليـــهود ان نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وافصحوا عـــن عدائـــهم له،وبدءوا يحاربونه بسلاح الدس والخديعة، وخاصة عندما رأوه ينجـــح فـــي توثيق الصلة بين الأوس والخزرج ويذيل ما كان بينهم من عداوة وشقاء، كما أشعرهم بالعجز ما توصل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من مؤاخاة بيـــن

---

[١٧٨] ابن الأثير ج٢ ص١٢٦.

المسلمين المهاجرين وإخوانهم من الأنصار، وهي المؤاخاة التي جعلت من المسلمين قوة كبيرة تعجز عن مواجهتها أي قوة أخرى في المدينة ، فدخل بعضهم في الإسلام نفاقا وخاصة بعض أهل بني قوينقاع، واخذوا يشجعون المنافقين من الاوس والخزرج على تكذيب النبي عليه السلام، والسخرية به وبدينه وجاء القرآن الكريم كاشفا للكثير من زيفهم ونفاقهم وخداعهم. و أحاط الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بما تنطوي عليه قلوب هؤلاء المنافقين فأخذ في الاحتراز منهم والجذر من كيدهم.

وجاء أمر الله سبحانه وتعالى الى نبيه بان يتحول بالقبلة الى البيت الحرام في مكة المحرمة بعد ان كان يصلى الى بيت المقدس ليكون بمثابة الشرارة التي أشعلت غضب اليهود، وجعلتهم يفصحون علانية عن كراهيتهم لرسول صلى الله عليه وسلم وحاولوا ان يثنوا رسول الله عن تغيير القبلة، ودعوه الى عودته الى قبلة بيت المقدس لعلهم يصدقونه ويتبعونه فنزل قول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى سراط مستقيم * وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم * قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون * ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما

تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك إذا لمن الظالمين " [١٧٩].

اندفع اليهود بعد ذلك يثيرون بزور الشقاق بين المسلمين ويشككونهم في عطيتهم، ويسخرون من مبادئهم كما عمدوا الى إثارة الخلافات القديمة والحزازات التي كانت قائمة بين الاوس و الخزرج حتى كاد الفريقان ان يقعا في الفخ ووصل الأمر بهما الى الالتجاء الى السلاح والمناداة بالقتال لولا ان تداركهما الله برحمته وحنكة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بصرهم باخوة الدين وفرقة الجاهلية فأدركوا عمق الهوة التي كانوا سيقعون فيها، وبكوا، وتعانقوا.

وكانت نتيجة معركة بدرا سببا آخر لا يغار صدور اليهود على المسلمين فعمدوا الى الطعن في محمد - صلى الله عليه وسلم - وفي المسلمين، وبغوا، وقطعوا ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود حتى وصل بهم الأمر الى القول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - "يا محمد لا يغرنك ما لقيت، انك قهرت قوما أغمارا. وانا و الله أصحاب الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمن انك لن تقاتل مثلهم. وهكذا ارتفع هدير الصدام بين الفريقين. ومضت الأمور على النحو التالي:

يهود بنى قوينقاع :

قصدت امرأة من المسلمين سوق بنى قوينقاع لحاجة لها عند صائغ منهم، وكان هؤلاء القوم من اشد قبائل اليهود بغيا على المسلمين، وجلست

---

[١٧٩] البقرة : الآيات ١٤٢ - ١٤٥.

المرأة تنتظر انتهاء الصائغ من إصلاح حليها، فجاء يهودي من بني قينقاع وجلس من خلفها وعبث بثيابها دون ان تفطن وظهرت بعض عروتها عند قيامها، وضحك عليها من رآها فأخذت الحمية رجلا مسلما كان شاهدا فهجم على اليهود على المسلم فقتلوه، ونبذوا عهد النبي بعد ذلك فنادى رسول الله في المسلمين، وخرج لحصارهم فتحصنوا داخل ديارهم فأقام عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لمدة خمسة يوما حتى أرغمهم على الاستسلام والنزول على حكمه وقضائه، فأمر فربطوا من أكتافهم، ولكنه صلى الله عليه وسلم أمر بفك وثاقهم بعد أن توسط فيهم عبد الله بن سلول على شرط أن يخرجوا من المدينة بأموالهم فتوجهوا شمال الحجاز ونزلوا بمنطقة أذرعات.

بنو النضير :

بعد حادث بئر معونة المشئومة في السنة الرابعة من الهجرة ومقتل عدد من المسلمين هناك، ونجاة عمرو بن أمية الضميري والذي حاول الرجوع الى المدينة فلقي رجلين من بني عامر عقدا من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم به عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا، ممن أنتما ؟ فقالا من بني عامر، فأمهلهما حتى إذا ناما، عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأرا من بني عامر انتقاما لأصحابه، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد قتلت قتيلتين لأدينهما.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بني النضير يستعينهم في دية زينك القتيلين من بني عامر الذين قتلا عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما: وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد و حلف، فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه

وسلم يستعينهم في دية القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم الى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم - الى جنب جدار أحد بيوتهم ينتظر ردهم - فما من رجل منا يعلوا هذا البيت؟، فيلقى عليه صخوة، فيرحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحش بن كعب، أحدهما، فقال:انا لذلك، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم.

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم - الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعا الى المدينة، ثم ما لبس أصحابه ان لحقوا به هناك، و أمر الرسول بالاستعداد لحرب بنى النضير.

شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحصار على بنى النضير، وتخلى عنهم من كان وعدهم بالمساعدة من المنافقين من أهل المدينة. حتى اضطر بنو النضير الى الاستسلام، وسألوا الرسول عليه السلام ان يجليهم، ويكف عن دمائهم، على انهم ما حملت الإبل من أموالهم، وان يتركوا سلاحهم للمسلمين فقبل منهم رسول اله ذلك، وسمح لهم بالخروج بأموالهم والجلاء عن المدينة فخرج غالبيتهم الى خيبر وسار بعضهم الى الشام. وتركوا للمسلمين غنائم كثيرة، لكن اليهود لن ينسوا ذلك للمسلمين وحاولوا الانتقام بعد ذلك.

بنو قريظة:

عمد يهود بنو النضير الى قريش وغطفان وغيرها من قبائل العرب يحرضونهم ضد المسلمين في المدينة، ويبذلون لهم الوعود والأموال حتى

نجحت خطتهم في توحيد الأحزاب وخروجهم لحصار المدينــــة فـــي الســـنة الخامسة للهجرة، وكان يوما صعبا جدا على المسلمين حيث اضطـــروا الـــى حفر خندق من ناحيتهم للدفاع عن أنفسهم مطمئنين الى العهد الذي بينهم وبين بني قريظة في الدفاع عن ناحيتهم.

نجح يهود بني النضير في إغراء زعماء بني قريظة في نقد عـــهدهم مع المسلمين والانضمام الى جانب الأحزاب مما زاد الأمر ســـوء ا بالنســـبة للمسلمين واصبح موقفهم محفوفا بالمخاطر الشديدة لأنهم اصبحوا بين عدوين خطيرين.

لكن يوم الأحزاب انتهي بفشل ذريع - كما بينــــا - ســـواء بالنســـبة لقريش وحلفائها أو اليهود ايا كانت قبيلتهم، ولذلك عندما رحلت قريش عائده، خرج الرسول عليه السلام و أصحابه لحصار بني قريظة فلما طـــال عليـــهم الحصار اضطروا الى الاستسلام وخاطبوا الرسول عليه السلام في الــــنزول على حكمه على ان يحكم فيهم سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه، فحكم فيهم بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أن تقتـــل الرجـــال، وتقـــس الأموال، وتسبى الذرارى والنساء. وتم تنفيذ الحكم فيهم جـــزاء لمـــا كـــانوا يدبرونه و يكيدونه لرسول الله والمسلمين.

وهكذا تخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود المدينة، ولـــم يبقى منهم إلا من كان في أماكن بعيدة عنها.

كان لعودة قريش فاشلة من غزوة الخندق وانتصار الرسول على بني قريظة أثره الواضح في رفع معنويات المسلمين وهيبتهم بين العرب ولذلـــك

صمم الرسول عليه السلام ان يخرج لأول مرة لزيارة مكة و أداء العمرة فـــي بيت الله الحرام.

صلح الحديبية:

في نهاية العام السادس من الهجرة خرج رســـول الله فـــي أصحابـــه لأداء العمرة، واستنفر الناس للخروج معه لزيارة مكة وحينما اقترب من مكـة أرسل زعماء قريش يخبرهم برغبته في العمرة وزيارة البيت الحرام وليـــس في نيته قتال أو حرب، وحمل رسالته الى القوم عثمان بن عفان رضـــى الله عنه.

هاجت قريش و أصرت على ان لا يدخل محمد عليهم مكـــة لبـدا و أرسلوا الرسل الواحد بعد الأخر ليصدوه عن القيام بهذه الزيارة، وكان آخـــر رسلهم سهيل بن عمرو الذي كلفوه بالتفاوض مع النبي على أيـــة شـــروط إلا دخوله عليهم مكة هذا العام. فإنها رفضت ذلك حتى ولو أدى الأمر الى قيـــام الحرب. وحينما تأخر عثمان بن عفان في العودة و أشيع انه قـــد قتـــل دعـــا رسول الله صلى الله عليه وسلم – الناس الى البيعة. فكانت بيعـــة الرضـــوان تحت الشجرة، فبايعه كل من معه. وتبين بعد ذلك كذب الإشـــاعة الخاصـــة بعثمان رضى الله عنه. وكان الأمر شاقا على المسلمين مـــن ناحيـــة وعلـــى القريشيين من ناحية أخرى لذلك تداعا الفريقان الى الصلح.

الصلح :

أرسلت قريش سهيل بن عمرو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم - ليصلحه وقالوا له "ايت محمدا فصالحه ولا يكن في صلحه إلا ان يرجع عنا عامة هذا فو الله لا تحدث العرب عنا انه دخلها علينا عنوة أبدا [١٨٠] كان - رسول الله صلى الله عليه وسلم - يدرك نفسية قريش وبواعثها في صده عن البيت الحرام . و في الوقت الذي كان يسعى فيه للحفاظ على سلامة رجاله والمسلمين فانه كان يحاول أيضا ان يتألف قلوب الناس كافة لانه - عليه السلام - بعث للناس رحمة، ولذلك فانه تفاوض مع قريش ووقع معها صلح الحديبية على الشروط التالية: -

١ - وضع الحرب بين الناس لمدة عشر سنوات يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٢ - من يأتي من المشركين الى النبي - عليه السلام - دون إذن وليه فإنه يرده عليهم، أما من يأتي قريشا فلا يرد عليهم.

٣ - من احب ان يدخل في عقد قريش وعهدها فله ذلك، ومن احب ان يدخل في عقد محمد وعهده فله ذلك.

٤ - أن يعود الرسول هذا العام دون أن يدخل مكة، على ان يعود في العام القادم ليدخلها بسلاح المسافر فقط لمدة ثلاثة أيام [١٨١].

---

[١٨٠] ابن هشام ج٢ص٢٠٢.

[١٨١] ابن الاثير ج ٢ص١٣٨.

تضايق بعض المسلمين من شروط الصلح - وخاصة حين جاء أبــو جندل بن سهيل مسلما وطلبه والده فرده الرسول احتراما لقواعد الصلح حينما رأوا أن النبي - عليه السلام - قد قام بحلق شعره ونحر هديه قام المســلمون بذلك أيضا، وعاد الجميع الى المدينة: وكان لتلك الهدنة أثر كبير في انتشــار الإسلام، يقول ابن هشام " فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وآمن النــاس بعضهم بعضا، والتقوا فتعارضوا في الحديث والمنازعــة، فلــم يكلــم أحــد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ولقد دخل تينك السنين مثل مــن كــان فــي الإسلام قبل ذلك وأكثر.

ودلت الحوادث التي تلت ذلك على بعد نظر رســول الله صلــى الله عليه وسلم ففي أثناء العودة الى المدينة نزلت عليه الآيات البينات:

" انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ومــا تــأخر ويتم نعمته عليك ويهديك الى صراط مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا ".
قال عمر بن الخطاب وكان من اشد المعارضين لصلح الحديبية، أهو فتح يــا رسول الله ؟ قال:نعم. وأثبتت الأيام أن كل ما قبله رسول الله صلى الله عليــه وسلم من شروط اشترطتها قريش حتى ظنت إنها حققت مكاسب كبيرة ضــد المسلمين، وأن كل ما شعر المسلمين بأنه ظلم لهم، ما لبث الجميع ان تبينــوا ان ذلك كان فتحا جديدا لانتصار الإسلام وانتشاره في جزيرة العرب بســوعة لم يسبق لها مثيل، وكانت بابا الى فتح مكة ودعوة ملوك العالم ومنهم قيصــر وكسرى والنجاشي والمقوقس وامراء العرب، وصدق الله إذ قال: " وعســى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلــم وانتم لا تعلمون ".

كان من مكاسب هذا الصلح اعـــتراف قريـــش بمكانـــة المســـلين ، وتسليمهم لهم كقريتين قري كريم، تبرم معه المعاهدات، ويتفق معـــــه علـــى مفاوضات، ثم كان من افضل ثمار هذه الهدنة ان اســـتراح المســـلمون مـــن الحروب، وتفرغوا للدعوة في جو من السكينة والهدوء مما جعـــل الكثـــيرين يقبلون على الإسلام، وليس أدل على ذلك من ان الرسول عليه السلام خـــرج الى الحديبية في ألف وأربعمائة من أصحابه ثم خرج بعد ذلك بعـــامين فقـــط لفتح مكة ومعه عشرة آلاف من أصحابه[182]. ومن ابرز من اسلم في تلـــك الفترة خالد بن الوليد رضى الله عنه قائد فرسان قريش، وعمرو بن العـــاص سفير قريش لإرجاع المهاجرين من الحبشة، وقد قدما المدينـــة بعـــد صلـــح الحديبية وأسلما وحسن إسلامها وغدا من كبار الفاتحين الإسلاميين، وســـجلت أسماؤهما رضى الله عنهما في سجل الخالدين.

مكاتبة الملوك والأمراء :

بعد هذه الانتصارات الواضحة للرسول – عليه الصلاة والســـلام – وللإسلام على المشركين واليهود، بدأ رسول الله في مكاتبة الملوك والأمـــراء علي عصره ليدعوهم الى الإسلام، فكتب الى كسرى فـــارس والـــى قيصـــر الروم والى المقوقس حاكم مصر – والى نجاشي الحبشة. فمنهم مـــن رد ردا جميلا ومنهم من رد غير ذلك مثل كسرى فارس، أما مقوقـــس مصـــر فقـــد أهدى الرسول عليه السلام، جارية هي مارية القبطية و التي منح الله للرســـول منها ولده إبراهيم [183] فكان رسوله الى قيصر ملك الروم هو دحية الكلبـــي وعبد الله من حذافة السهمي الى كسري فارس وعمرو بن أمية الضمري الـــى

[182] ابن هشام ج ٣ص٢٠٦ والطبري ج٢ ص٦٣٨.

[183] ابن سيد الناس ج٢ ص١٤٧.

نجاشي الحبشة، وحاطب بن أبي بلتعه الى مقوقس مصر، وعمرو بن العـاص الى أمراء عمان، و العلاء الحضرمى الى المنذر بن معاوي و شـــجاع بـــن وهب الأسدي - الى الحارث بن أبي شمر ملك الغساسنة وغيرهم.

غزوة خيبر :

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم - في أول العام السابع للــهجرة لقتال يهود خيبر وتمكن عليه السلام بعد حصارهم من اجبارهم على التســليم على ان يحقن دماءهم ويحوز اموالهم وقد صالح رسول الله صلى الله عليـــه وسلم - أهل فدك على نفس الشروط، ثم انصرف الرسول بعد ذلك الـــى وادي القرى فحاصر أهله ليالي ثم انصرف راجعا الى المدينة[١٨٤].

عمرة القضاء :

في العام السابع من الهجرة خرج المصطفي صلى الله عليـــه وســلم ومعه المسلمين الى مكة لاداء العمرة،وكانت هذه هى أول مرة يـــؤدى فيـــها الناس العمرة بعد الهجرة، وقامت قريش بـــاخلاء مكـــة، واقفلـــوا بيوتـــهم و صعدوا الى الجبال لمدة ثلاثة ايام ، قام خلالها الرسول و مـــن معـــه بـــأداء العمرة في سكينة و هدوء و دون أية مضايقة من القريشين اعتمادا علي مـــا وقعوه من عهد في العام الفائت اى في صلح الحديبية. ونزلت على رســـول الله صلى الله عليه وسلم آيات بينات تثبت قلبه وقلب من معه علـــى الايمـــان ومنها:

---

[١٨٤] ابن الأثير ج٢ ص ١٤٧.

" لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شـــاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل مـــن دون ذلك فتحا قريبا "

غزوة مؤتة:

في هذه الغزوة بعث رسول الله زيد بن حارثة، وجعفـــر بـــن أبـــى طالب، وعبد الله بن رواحة على رأس جيش من المسلمين تبلغ عدتـه ٣ ألاف مقاتل للأخذ بثأر من قتل من المسلمين عند بئر معونة والتقى هنـــا الجيــش بقوات الروم ومن معها من العرب المنتصرة. فاستشهد القادة الثلاثـــة الذيـــن عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - وتكمن خالد بن الوليد وكان قد اســلم وانضم الى المسلمين. من تولى زمام القيادة والانسحاب بالجيش دون خســائر تذكر. وعاد الجيش الى المدينة، فلقاهم رسول الله صلى الله عليـــه وســلم - والمسلمون ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله صلى الله عليه وســلم علـــى دابة فقال: خذوا الصبيان واحملوهم، واعطوني ابن جعفر فاتى لـــه بعبـــد الله فاخذه وحمله بين يديه.

وجعل الناس يحثون التراب على الجيش، ويقولون: يا فرار ! فررتـــم في سبيل الله، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليسوا بالفرار، ولكنـــهم الكرار ان شاء الله تعالى. وكان الناس قد اشتد عليهم عودة هؤلاء دون قتال.

فتح مكة :

بعد توقيع صلح الحديبية، دخلت بنوا خزاعة في عهد النبي- عليـــه السلام - ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وكان بينهما صراع سابق وبعد ان مضي ما يقرب من العامين على الصلح هاجمت بنو بكـــر خزاعـــة وقتلـــت

بعض افرادها وأجبرتهم على الاحتماء بالحرم. وقامت قريش بـــامداد بكـــر بالسلاح وبعض الرجال وكان ذلك نقضا صريحا لشروط الصلح، واســـتغاثت خزاعة بالرسول فوعدهم خيرا.

أدركت قريش مغبة عملها فأرسلت أبا سفيان الـــى المدينـــة لتجديـــد الصلح وتوسيع مدته، ولكنه فشل في ذلك وعاد دون ان يحقق شيئا (١٨٥).

بدا الرسول الاستعداد للخروج الى مكة سرا، ثم تحرك فـــي شـــهر رمضان من السنة الثامنة من هجرته وكان جنده حوالي عشرة آلاف رجـــل وفي الطريق الى مكة لقيه عمه العباس بن عبد المطلـــب مـــهاجرا مســـلما وبعض القريشيين، وبالقرب من مكة لقى العباس أبا سفيان ابن حرب فحملـــه الى رسول الله حيث اسلم وعاد الى مكة يحمل لها أخبـــار قـــوة رســـول الله صلى الله عله وسلم - ويطلب اليهم ألا يقاتل أحد وسار نداء رسول الله الـــى مكة: من دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن (١٨٦).

ومع ثقة الرسول عليه السلام في موقفه و عدم وجود آية مقاومة مـــن قبل المكيين إلا أنة أراد أن يحسم الموقف فجهز جيشه تجهيزا قويا و قســـمه الى أربعة أقسام أمر عليها أبو عبيده بن الوليد و الزبير بن العوام وقاد القلـــب بنفسه، ودخلت الجيوش سلما ماعدا خالد بن الوليد فانه التقى بعكرمة بن أبـــي جهل ومعه عدد من القريشيين فتصادما قليلا، وانتهى الأمر بدخول المســـلمين مكة من جميع جبهتها.

---

[١٨٥] ابن هشام ج٤ ص ٢٧.

[١٨٦] نفس المصدر ج٤ ص٣٣.

ونزل صلى الله عليه وسلم - واغتسل في بيت أم هانئ بنـــت أبـــي طالب عم النبي - وصلى ثمان ركعات، وخرج الى البيت فطاف به، ودعــــا بالمفتاح فدخل البيت وامر بالقاء الصور ومحوها منه، وأذن بلال يومئذ علـــى ظهر الكعبة، ثم رد مفتاح البيت الى عثمان بن طلحة واقرهم علـــى ســـدانة البيت .

اجتمعت قريش عند البيت وظلوا ينتظرون ماذا يصنع بهم رســول الله صلى الله عليه وسلم فاخذ عليه السلام بعضادتي البيت والجميع من تحتــــه، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصـــر عبـــده، وهـــزم الأحزاب وحده.

يا معشر قريش ! ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهليـــة، وتعظمـــها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية:

" يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شــــعوبا وقبـــائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير ".

نبي المحبة ورسول الرحمة:

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش! ما ترون أنـــي فاعلا بكم !

قالوا ! خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم !
قال: فاني أقول لكم كما قال يوسف لإخواته: " لا تثريب عليكم اليوم اذهبـــوا فانتم الطلقاء ".

وامر بلالا ان يصعد، فيؤذن على الكعبة، ورؤساء قريش وأشرافهم يسـمعون كلمة الله تعلوا، ومكة ترج بالأذان.

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أم هانئ بنت أبي طـالب، فاغتسل، وصلى ثمان ركعات صلاة شكرا لله تعالى.

عفو عن الأعداء الألداء :

ولما استقر الفتح، وآمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس كلـهم، إلا تسعة نفر، أمر بقتلهم وان وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم من ارتد عـن دينه ومنهم من قتل مسلما غلية، ومنهم كان يشتغل ويتسلى بهجائـة ويذيعـه بين الناس وكان منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قد ارتد.

ومنهم عكرمة بن أبي جهل، وكان قد خرج الى اليمن كارها لدولـة الإسلام وخائفا على نفسه ، فاستأمنت له امرأته بعد ان فـر ، فأمنـه النبـي صلى الله عليه وسلم وهو ابن أعدى عدو له في الدنيا - وثب اليه رسـول الله صلى الله عليه وسلم وما عله رداء ، فرحا به ، وترحيبا، واسـلم عكرمـة، فسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم سرورا عظيما، وحسن اسلامه ،وكان له مواقف عظيمة في حروب الردة وحروب الشام. ومنهم وحشـي مولـى جبير بن مطعم، وقاتل عم الرسول واسد الله ورسوله حمزة ابن عبد المطلـب وكان رسول الله صلى الله ليه وسلم قد أهدر دمه - فاسلم وقبـل رسـول الله صلى الله عليه وسلم اسلامه - ومنهم هبار بين الأسود ، وكان قـد عـرض لزينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم حين هاجرت ، فنخس بـها حتـى سقطت على صخرة، و أسقطت جنينها ، ففر ثـم اسـلم، وحسـن اسـلامه، واستؤمن لسارة ولاحدى القينتين التين كانتا تغنيان بهجائة، فأمنهما فأسلمتا.

بيعة هند بنت عتبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

واجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام فجلي لهم، على الصفا واخذ على الناس السمع والطاعة لله. ولرسوله فيما استطاعوا. ولما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهن : بايعنني على ألا تشركن بالله شيئا، فقالت هند و الله انك لتأخذ علينا ما لا تأخذ من الرجال.

" ولا تسرقن " ، فقالت : والله انى كنت أصبت من مال أبى سفيان الهنة بعد الهنة، وما كنت أدرى ان كان ذلك حلالا أم لا ؟ فقال أبو سفيان - وكان شاهدا لما تقول أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - " وانك لهند بنت عتبة ؟" قالت نعم فاعف عن ما سلف، عفا الله عنك.

ثم قال: " ولا تزنين " فقالت : يا رسول الله ؟ وهل تزنى الحرة؟.
ثم قال : " ولا تقتلن أولادكن " قالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا، فأنت وهم اعلم، فضحك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حتى استغرق.
ثم قال : " ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن و أرجلهن " فقالت : والله ان اتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز امثل.
ثم قال : " ولا يعصيننى " فقالت : في معروف.
المحيا محياكم والممات مماتكم.

ولما فتح الله مكة على رسوله – وهى بلده ووطنه ومولده – تحدث الأنصار فيما بينهم، فقالوا : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح الله عليه أرضه وبلده، فهو مقيم بها ، لا يعود الى المدينه.

وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار عن حديثهم، ولا يعرف غيرهم، فاستحيوا ثم اقروا به، فقال : معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم.

إزالة آثار الجاهلية وشعائر الوثنية :

وبث رسول الله صلى الله عليه وسلم سراياه الى الأوثان التي كانت حول الكعبة فكسرت كلها، منها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ونادى مناديه بمكة.

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنما إلا كسره"، وبعث رجالا من أصحابه الى القبائل، فهدموا أصنامها، قال جابر كان بين في الجاهلية يقال له " ذو الخلصة " ، والكعبة اليمنية والكعبة الشامية، فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم: ألا تريحنى من " ذى الخلصة " ؟ يقول جابر: فنفرت في مائة وخمسين راكبا من أحمس،" وكانوا أصحاب خيل" فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فدعا لنا ولأحمس.

اثر فتح مكة :

وكان لفتح مكة اثر عميق في نفوس العرب ، فشرح الله صدر كثير منهم للإسلام، وساروا يدخلون فيه أرسالا ، وكانت عدة قبائل بينها وبين قريش حلف، وكانت ممتنعة عن الدخول في الاسلام لمكانة هذا الحلف ، وكانت قبائل ترهب قريشا وتجلها ، فلما رأتهم استسلموا للاسلام ورغبوا فيه ذال الحاجز ، وكانت قبائل تعتبر مكة لا يفتحها ولا يدخلها ملك جبار أو من يريد فيقولون: اتركوه وقومه. فانه وان ظهر عليهم فهو نبي صادق.

فلما فتح الله لنبيه مكة ، خضعت قريش للاسلام طوعا أو كرها، اقبل العرب على الاسلام اقبالا لم يعرف قبل ذلك ، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجا: " إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا".

أمير شاب حديث السن :

و أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يغادر مكة عتاب بن أسيد، يدبر أمورها، ويقيم الموسم والحج بالمسلمين، وهو دون العشرين سنة، أو فوقها قليلا ، وذلك بمحضر من أهل الأسنان والفضل ، فدل على ان الناصب على الجدارة والقوة ، واقره أبو بكر في خلافته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فتح مكة

ذكر الأسباب الموجبة للسير الى مكة
وذكر فتح مكة في شهر رمضان سنة ثمان

القتال بين بكر وخزاعة :

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد بعثه الى مؤتة جماد الآخرة ورجبا . ثم أن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت الى خزاعة ، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير ، وكان الذي هاج ما بين بنى بكر وخزاعة أن رجلا من بنى الحضرمي واسمه مالك بن عباد – وحلف الحضرمي يومئذ الى الأسود بن رزن – خرج تاجرا ، فلما توسط ارض خزاعة ،عدوا عليه فقتلوه واخذوا ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بنى الأسود بن رزن الديلى – وهم منخر بنى كنانة وأشرافهم – سلمى كلثوم وذؤيب – فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم .

قال ابن إسحاق : وحدثني رجلا من بنى الديل ، قال : كان بنو الأسود بن رزن يودون في الجاهلية ديتين ديتين . ونؤدي دية دية ، لنفضلهم فينا .

قال ابن إسحاق : فبينا بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام ، وتشاغل الناس به : فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبين قريش ، كان فيما شرطوا لرسول الله – صلى الله

عليه وسلم – وشرط لهم ، كما حدثني الزهري ، عن عروة بن الزبير ، عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم . وغيرهم من علمائنا : انه من احب ان يدخل في عقد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعهده فليدخل فيه ، ومن احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعهده.

قال ابن إسحاق : فلما كانت الهدنة التي اغتنمها بنو الديل من بني بكر وخزاعة ، أرادوا ان يصيبوا منهم ثارا باؤلئك النفر الذين أصابوا منهم ببني الأسود بن رزن ، فخرج نوفل بن معاوية الديلى في بنى الديل ، وهو يومئذ قائدهم ، وليس كل بنى بكر تابعه حتى بيت خزاعة وهم على الوتير ، ماء لهم ، فأصابوا منهم رجلا ، وتجاوزوا واقتتلوا ، ووفدت بنى بكر قريش بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيا . حتى حازوا خزاعة الى الحرم ، فلما انتهوا إليه ، قالت بنو بكر : يا نوفل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك ، فقال : كلمة عظيمة ، لا اله له اليوم ، يا بنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمري أنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟ وقد أصابوا منهم ليلة بيوتهم بالوتير رجلا يقال له منبه رجلا مفئودا خرج هو ورجلا من قومه يقال له تميم بن أسد وقال له منبه : يا تميم ، انج بنفسك فأما أنا فو الله أني لميت قتلوني أو تركوني ، قلد انيت فؤادي ، وانطلق تميم فافلت ، و أدركوا منبها فقتلوه ، فلما دخلت خزاعة مكة ، لجئوا الى دار بديل بن ورقاء ، ودار مولى لهم يقال له رافع.

خزاعة تستنجد بالرسول صلى الله عليه وسلم :

قال ابن إسحاق : فلما تظاهرت بنو بكر وقريش خزاعة و أصـــابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسـلم من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانوا في عقده وعهده ، خــرج عمرو بن سالم الخزاعى ، ثم أحد بنى كعب ، حتى قدم رسول الله صلــى الله عليه وسلم المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة ، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهرانى الناس ، فقال:

ذهاب ابن ورقاء الى الرسول شاكيا :

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا رســـول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فاخبروه بما أصيب منهم ، بمظاهرة قريش بـن بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين مكة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم للناي :كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيـــد فـــي المــدة . ومضى بديل بن ورقاء و أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب ، بعسفان قـد بعته قريش رسول الله صلى الله عليه وســلم ليشــد العقــد ، ويزيــد فــي المدة،وقد رهبوا الذي صنعوا : فلما لقى أبو سفيان بديل بن ورقــاء ، قــال : من أين أقبلت يا بديل ؟ وظن انه قد أتى رسول الله صلى الله عليه وســـلم ، قال: تسيرت في خزاعة في هذا الساحل ، وفى بطن هذا الوادي ، قال أو مــا جئت محمدا ؟ قال : لا ، فلما راح بديل مكة قال أبو سفيان : لئن جاء بديــل المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرهـــا ففتــه ، فرأى فيه النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا .

ذهاب أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم طالبا الصلح :

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فدخل ابنته أم حبيبه بنت أبي سفيان ، فلما ذهب ليجلس فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته ، فقال يابنية ، ما أدرى ارغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس ولم احب ان تجلس فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : والله لقد اصابك يابنية بعدى شر . ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، ثم ذهب أبي بكر ، فكلمه أن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما انا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فو الله لو لم أجد الا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل بن أبي طالب رضوان الله عليه، وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها، وعندها حس ابن غلام يدب بين يديها، فقال : يا انك أمس القوم بي رحما، وأني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائبا، فاشفع لي إلى رسول الله ، فقال : ويحك يا ابا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه : فالتفت الى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ، هل لك ان تامرى بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ بنى ذلك أن يجير بين النلس وما يجير احدا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أبا الحسن ، أنى ارى الامور قد اشتدت ، فانصحنى قال : والله ما اعلم لك شيئا ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ قال : لا والله ما اظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك فقام ابى سفيان في المسجد ، فقال : ايها الناس ، أنى أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق ، فلما قدم إلى قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمدا

فكلمته ، فو الله ما رد شيئا ، ثم جئت ابن ابى قحافة ، فلم أجد فيه خـــيرا ، ثم جئت ابن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو .

قال ابن هشام : أعدى العدو .

قال ابن إسحاق : ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، وقد أشـــار علـــى بشـــئ صنعته ، فو الله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئا أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك؟ قال : أمرنى أن أجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمدا ؟ قـال : لا ، قالوا . ويلك !

والله ان زاد الرجل على أن لعب بك فما يغنى عنك ما قلت ، قـــال : لا و الله ما وجدت غير ذلك .

الاستعداد لفتح مكة :

وأمر رسول الله صلى الله عليه وســـلم بالجـــهاز، وأمـــر أهلـــه ان يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضى الله عنها، وهى تحرك بعـض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : أي بنية، أأمركم رســـول الله - صلى الله عليه وسلم - أن تجهزوه؟ قالت: نعم، فتجهز، قال: فـــأين ترينـــه يريد؟ قالت: لا والله ما أدرى. ثم أن رسول الله أعلم الناس انه سائر الى مكـة وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عـــن قريـــش حتـــى نبغتها في بلادها، فتجهز الناس.

تحريض حسان للصحابة :

فقال حسان بن ثابت يحرض الناس ، ويذكر مصاب رجال خزاعة :

عناني ولم أشهد ببطحـــاء مكــة	رجال بنى كعب تحز رقابهـــا
بأيدي رجال لم يسلـــوا سيوفهـــم	وقتلـــى كثير لم تجـــن ثيابهـــا
ألا ليت شعري هل تنالن نصرتي	سهيل بن عمرو وخزها وعقابها
وصفوان عود حن من شفـــر إسته	فهذا أوان الحرب شد عصابها
فلا تأمننـــا يابـــن أم مجالـــــد	إذا أحتلين صرفا وأعصل نابها
ولا تجزعوا منا فـــان سيوفنـــا	لها وقعه بالموت يفتـــح بابهـــا

قال ابن هشام : قول حسن : " بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم " يعنـــي قريشا ، " وأبن أم مجالد " يعنى عكرمة بن أبى جهل .

رسالة حاطب الى قريش :

قال ابن إسحاق . وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بـن الزبير وغيره من علمائنا ، قالوا : لما اجمع رسول الله صلى الله عليه وســلم المسير إلى مكة ، كتب حاطب بن ابى بلتعة كتابا الى قريش يخبرهم بـــالذي أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمر في السير إليـــهم ، ثـــم أعطاه أمراة ، زعم محمد بن جعفر انها من مزينة ، وزعم لى غـــيره انـــها سارة ، مولاة لبعض بنى عبد المطلب ، وجعل لها جعــــلا علـــى ان تبلغـــه قريشا، فجعلته في رأسها ، ثم فتلت عليها قرونها ، ثم خرجت بـــه : وأتـــى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حـــاطب ، فبعـــث على بن ابى طالب والزبير بن العوام رضى الله عنهما ، فقال : ادركا امـــراة

قد كتب معها حاطب بن ابى بلتعة بكتاب الى قريش ، يحذرهم ما قد أجمعنـــا له في امرهم فخرجا حتى ادركا بالخليقة ، خليقة بنى أبى أحمد ، فاستزلاها ، فالتمسا في رحلها ، فلم يجدا شيئا ، فقال لها على بن أبى طالب: أخي أحلــف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، ولتخرجن لنـــا هــذا الكتاب أو لنكشفنك .

فلما رأت الجد منه ، قالت : أعرض ، فـــأعرض ، فحلــت قــرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه ، فأتى به رسول الله صلـــى الله عليه وسلم: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا ، فقال : يا حــاطب ، ما حملك على هذا ؟ فقال رسول الله ، أما والله انى مؤمن بالله ورسوله ، مـــا غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءا ليس لى في القوم من اصل ولا عشــوة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم : فقال عمر بن الخطــاب، يا رسول الله ، دعنى فلاضرب عنقه، فان الرجل قد نافق : فقال رســـول الله صلى الله عليه وسلم: وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع الى أصحاب بــدر يوم بدر ، اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم فأنزل الله تعالى فـــي حــاطب : " يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة " ، الـــى قوله . " قد كنت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم انـــا براء منكم وما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننـــا وبينكــم العــداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده " الى آخر القصة .

خروج الرسول الى مكة :

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهـــرى عــن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبه بن مسعود ، عن عبد الله بن عباس ، قال ثـــم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره ، واستخلف على المدينـــة ابـــا

رهم ، كلثوم بن حصين بن عتبه بن خلف الغفارى ، وخرج لعشر مضين من رمضان ، فصام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصام الناس معه ، حتى إذا كان بالكديد ، بين عسفان وأمج أفطر .

قال ابن إسحاق : ثم مضى حتى نزل من الظهران في عشرة آلاف من المسلمين ، أسبعت سليم وبعضهم يقول ألفت سليم ، وألفت مزينة ، وفي كل القبائل عدد واسلام ، وأوعب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون والأنصار ، فلم يتخلف عنه منهم احدا ، فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرت الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش فلم ياتهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يدرون ما هو فاعل ، وخرج في تلك الليالي أبو سفيان ابن حرب ، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء ، يتحسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به ، وقد كان العباس بن عبد المطلب لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق.

قال ابن هشام : لقيه بالجحفه مهاجرا بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيما بمكة على سقايته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض ، فيما ذكر ابن شهاب الزهرى .

إسلام أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى أمية :

قال ابن إسحاق : وقد كان ابى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله ابن ابى أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا بنيق العقاب ، فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه ، فكلمته أم سلمة فيهما، فقالت : يا رسول الله ، ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، قال لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضي ، وأما ابن عمتي وصهري فهو

الذي قال لى بمكة ما قال . قال : فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومـــع أبـــى سفيان بنى له فقال : والله ليأذن لى أو لآخذن بيدى هذا ، ثـــم لنذهبـــن فـــي الأرض حتى نموت عطشا وجوعا ، فلما بلغ ذلك رسول الله رق لهما ، ثـــم أذن لهما : فدخلا عليه ، فأسلما .

قصة إسلام أبى سفيان :

فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الظهران ، قال العبـــاس بن عبد المطلب : فقلت : وا صباح قريش . الله لئن دخل رسول الله صلــــى الله عليه وسلم " مكة عنوة قبل أن يأتوا فيستأمنوه انه لهلاك قريش الى آخـــر الدهر . قال : فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضــــاء . فخرجت عليها . قال ، حتى جئت لأراك ، فقلت : لعلى أجد بعض الحطابـــة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رســـول الله صلـــى الله عليه وسلم، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل ان يدخلها عليها عنوة ، قال: فـــو الله أنى لأسير عليها ، وألتمس ما خرجت له ، إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديـــل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانـــا قـــط ولا عسكرا ، قال . يقول بديل : هذه و الله خزاعة حمشتها الحرب . قـــال : يقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانـــها وعســـكرها ، قال: فعرفت صوته ،فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتي فقال : أبو الفضـل؟ قال : قلت : نعم ، قال : مالك ؟ فداك أبى و أمي ، قال : قلت : ويحك يا أبـــا سفيان ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في النـــاس ، واصبـــاح قريـــش والله. قال : فما الحيلة ؟ فداك أبى وأمي، قال قلـــت : والله لئـــن ظفـــر بـــك ليضربن عنقك ، فأركب في عجز هذه البغلة حتى أتى بك رسول الله صلـــى الله عليه وسلم فأستأمنه لك ، قال : فركب خلفي ورجع صاحباه ، قال: فجئـت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هـــذا ؟ فـــإذا رأوا بغلـــة

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بغلته، حتى مـــررت بنـــار عمـــر بـــن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من هذا ؟ وقام الى .

فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال أبو ســـفيان عـــدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ثم خرج يشتد نحـــو رســـول الله صلى الله عليه وسلم . وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجـــل البطيء قال : فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليـــــه وسلم ودخل عليه عمر ، فقال يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكـــــن منــــه بغير عقد ولا عهد ، فدعني فلاضرب عنقه ، قال : قلت : يـــا رســـول الله ، انى قد أجرته ، ثم جلست الى رسول الله صلى الله عليــــه وســـلم ، فـــأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه اليوم دوني رجل ، فلما اكثر عمر في شـــأنه ، قال : قلت : مهلا يا عمر ، فو الله ان لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلــت هذا ، ولكنك عرفت انه من رجال بنى عبد مناف، فقال : مهلا يا عباس ، فـــو الله لاسلامك يوم أسلمت كان احب الى من إسلام الخطاب لو اسلم ، وما بـــى الا انى عرفت ان إسلامك كان احب الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من إسلام الخطاب لو اسلم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: اذهـب به يا عباس الى رحلك ، فإذا أصبحت فأتي به، قال فذهبت به الــــى رحلـــي فبات عندي فلما اصبح غدوت به الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فلمـــا رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، ويحك يا أبا سفيان . ألم يأن لـك أن تعلم أنه لا اله الا الله ؟ قال بأبي وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلـــك، والله قد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد ، قال : ويحـــك يا ابا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمــــي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شـيئا. فقال العباس : ويحك ! أسلم وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمـــدا رســـول الله

قبل أن تضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق ، فأسلم ، قال العباس : قلت: يا رسول الله ، ان أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر . فاجعل له شيئا قال: نعم ، من دخل دار ابى سفيان فهو آمن ، زمن أغلق بابه فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو آمن ، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا عباس ، احسبه بمضيق الوادي عند خطم الجبل ، حتى تمر به جنود الله فيراها . قال . فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي ، حيث أمرني رسول الله أن صلى الله عليه وسلم أحسبه .

عرض الجيش على ابى سفيان:

قال : ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس ، ما هذه ؟ فأقول سليم ، فيقول : مالي ولسليم ، ثم تمر القبيلة فيقول يا عباس، من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ، حتى نفدت القبائل ، ما تمر بى قبيلة الا يسألني عنها ، فإذا أخبرته بهم ، قال مالي ولبني فلان ، حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء .

قال ابن هشام : و إنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها: قال الحارث بن حازة إلى شكري :

ثم حجرا أعنى ابن أم قطام   وله فارسية خضراء

يعنى الكتيبة وهذا البيت في قصيدة له ، وقال حسان بن ثابت الأنصاري :

لما رأى بدرا تسيل هلاهه   بكتيبة خضراء من الخزرج

وهذا البيت في أبيات له كتبناها في أشعار يوم بدر .

قال ابن إسحاق : فيها المهاجرون و الأنصار ، رضى الله عنـهم ، لا يرى منهم الا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس ، من هـؤلاء ؟ قال : قلت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المـهاجرين والأنصـار ، قال : ما لاحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا ابا الفضل ، لقد اصبح ملك ابـن أخيك الغداة عظيما ، قال : قلت : يا ابا سفيان ، أنها النبـوة قال : فنعم أذن.

تحذير أبو سفيان لاهل مكة :

قال : قلت : النجاء الى قومك ، حتـى إذا جـاءهم صـرخ بـأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمـن دخـل دار ابى سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، فقـالت : اقتلوا الحميت الدسم الاحمس قبح من طليعة قوم قال: ويلكم لا تغرنكم هـذه من أنفسكم فانه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار ابى سـفيان فـهو آمن ، قالوا قاتلك الله ، وما تغنى عنك دارك ، قال : ومن اغلق عليـه بابـه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس الـى دورهـم والـى المسجد .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن ابى بكر : ان رسول الله صلـى الله عليه وسلم ما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجرا بشقة بـرد حبرة حمراء وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسـه تواضعـا لله حين رأى ما أكرمه الله من الفتح ، حتى ان عثنونـه ليكـاد يمـس واسـطة الرحل.

إسلام أبى قحافة :

قال ابن إسحاق : وحدثنى يحي بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عـن أبيه ، من جدته أسماء بنت أبي بكر ، قالت ، لما وقف رسول الله صلـى الله عليه وسلم بذي طوى قال أبو قحافة لابنه مـن اصغـر ولـده : أي بنيـه ، أظهري بي على أبي قبيس قالت : وقد كف بصره ، قـالت : فأشـرفت بـه عليه، فقال أي بنيه ماذا ترين ؟ قالت : ارى سوادا مجتمعـا ، قـال : ذلـك الخيل ، قالت ، وارى رجلا يسعى بين يدي ذلك مقبلا ومدبرا ، قـال : لـى بنية ، ذلك الوازع يعنى الذي يأمر الخيل ، ويتقدم إليها ، ثم قالت : قـد والله انتشر السواد ، قالت : فقال : قد والله أذن دفعت الخيل ، فأسرعي بـي إلـى بيتي ، فانحطت به ، وتلقاه الخيل قبل ان يصل الى بيته ، قالت : وفى عنـق الجارية طوق من ورق ، فتلقاها رجل فيقتطعه من عنقها ، قالت : فلما دخـل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ودخل المسجد ، أتى أبو بكـر بابيـه يقوده ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هلا تركت الشيخ فـي بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ قال أبو بكر ، هو أحق ان يمشى إليك مـن ان تمشى إليه أنت ، . قال : قلت : فأجلسه بين يديه ، ثم مسح صدره ثم قال لـه اسلم ، فاسلم ، قالت : فدخل به أبو بكر وكأن رأسه ثغامة ، فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : غيروا هذا من شعره ، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أختـه ، وقال : أنشد الله والإسلام طوق أختي ، فلم يجبه أحد ، قـالت : فقـال : أي أخيه ، احتسبي طوقك ، فو الله ان الأمانة في الناس اليوم لقليل .

دخول جيوش المسلمين مكة :

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي نجيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرق جيشه من ذي طوى ، أمر الزبير بن العوام ان يدخل في بعض الناس من كدي ، وكان الزبير على المجنبة اليسرى ، وأمر سعد بن عبادة ان يدخل في بعض الناس من كداء .

غزوة حنين :

كانت هذه الغزوة بعد فتح مكة، وذلك ان قبائل هوازن حينما سمعت بانتصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على القريشيين تجمعت مع القبائل الاخرى منن بينها ثقيف سكان الطائف، فخرج إليهم رسول الله في اثنى عشر ألف مقاتل وحين انحدر جيوش رسول الله في الوادي انقضت عليهم هوازن ومن معها فجأة، فأوقعوا الهزيمة في صفوف المسلكين و أجبروهم على الفرار وثبت الرسول في مجموعة من أصحابه وأل بيته، ونادى العباس يا معشر الأنصار، فعاد الناس إلى رسول الله وقاتلوا حتى انتصروا وتتبعوا الفارين قتلا وأسرا، ثم ذهب عليه السلام في اثر الهاربين إلى الطائف فتحصنوا بها وحاصرها رسول الله حوالي خمسة عشر يوما ثم تركهم إلى حيث يوزع أموال هوازن التي غنمها بعد انتصاره عليهم يوم حنين.

ولقد وزع الرسول أموال هوازن على قريش والمؤلفة قلوبهم مما اثار في قلوب بعض الأنصار الريبة من ان الرسول قد عاد إلى اهله نسيهم ولما بلغه ذلك جمعهم وقال لهم : الا ترضون يا معشر الأنصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا الأنصار اللهم ارحم الأنصار وابناء الأنصار. قال فبكى القوم

حتى اخضلت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا [187]. اسـلمت هوازن بعد ذلك ورد عليهم سول الله نساءهم وأولادهم اما أهل الطائف فقـد شعروا بعد ذلك بعزتهم وسط بحر المسلمين الذي اتسع حتى يكاد يطبق علـى كل شبه الجزيرة كلها ـ لهذا جاءت وفودهم إلى الرسول صلى الله عليه وسـلم تعلن اسلامها وذلك في العام التاسع الهجرية.

غزوة تبوك :

وهي في العام التاسع من الهجرة حيث خرج الرسول عليه الصـلاة والسلام الى حرب الروم انتقاما لمقتل أصحابه الثلاثة في غزوة مؤتة، فلمـا وصل الى تبوك أقام فيها اياما فصالحه اهلها، وجـاءت الوفـود مـن ايلـة وغيرها وصالحوه على دفع الجزية كما بعث خالد بن الوليد بفريق من الجنـد فاسر صاحبها واستولى عليها، ثم عاد الرسول الى المدينـة وكـانت غـزوة تبوك آخر غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام.

عام الوفود :

هو العام التاسع من الهجرة وفي هذا العام قدمت وفود القبائل العربيـة من كل جانب لتعلن اسلامها ولذلك يسمى العام التاسع عـام الوفـود ويعلـن الدكتور احمد شلبي قائلا: وهكذا يلاحظ الباحث امـرا عجبـا. ففـي عشـر سنوات – وما أقصرها في عمر الدول – ترى الرجل الذي كان يعرض نفسـه على القبائل قد اصبح يجلس في داره تفد له وفود القبائل التي تقطن قريبا مـن المدينة أو بعيدا عنها ... الى ان يصل الى القول. وهكـذا عمـت الدعـوة

---

[187] ابن كثير الفصول ص ١٨.

الاسلامية شبه الجزيرة العربية، ونعم محمد عليه الصلاة والسلام بأن رأى زرعه يثمر ودين الله ينتشر على يديه.

حجة الوداع :

وفي العام التاسع من الهجرة أرسل الرسولُ عليه الصلاة والسلام أبا بكر الصديق أمير على الحج ليقيم للمسلمين حجهم وفي هذا العام نزلت سورة براءة التي حرمت على المشركين الاقتراب من الكعبة منذ ذلك الحين. وفي العام التالي خرج الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه على رأس مائة ألف مسلم أو يزيد ليؤدي بهم فريضة الحج والقي فيهم رسول الله خطبة الوداع التي تعد أساسا من أسس الدستور الإسلامي لما بين فيها صلوات الله عليه من أحكام وآراء، ومما جاء في خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم.

خطبة الرسول في حجة الوداع :

قال ابن إسحاق : ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حجه فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته التي بينِ فيها ما بين، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : أيها الناس، اسمعوا قولي : فأني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف ابدا، أيها الناس، ان دماءكم واموالكم حرام الى ان تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وانكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها، وان كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا وان ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله. وأن كل دم في الجاهلية موضوع. وان أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعا في بني ليث. فقتلته هذيل فهو أول ما أبدا به من دماء الجاهلية اما بعد أيها

قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه ابدا، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلـــك فقــد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، ايـــها النـــاس (أن النسئ زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا. يحلونه عاما ليواطئوا عدة مـــا حرم الله فيحلوا ما حرم الله. ويحرموا ما أحل الله. وان الزمان قـــد اســتدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشـــر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر الـــذي بيـــن جمـــادى وشعبان، اما بعد ايها الناس، فان لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكـــم عليهن ان لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليـــهن ان لا يـــأتين بفاحشـــة مبينة، فان فعلن فان الله قد أذن لكم ان تهجروهن في المضاجع وتضربوهـــن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واســـتوصوا بالنساء خيرا. فانهن عندكم عوان لا يملكن لانفســـهن شـــيئا. وانكـــم انمـــا أخذتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاعقلوا ايـــها النـــاس قولي. كأني بلغت وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابدا. كتـــاب الله وسنة نبيه. ايها الناس. اسمعوا قولي واعقلوه تعلمون ان كـــل مســـلم أخ للمسلم. وان المسلمين اخوة. فلا يحل لامرئ من أخيه الا ما اعطاه من طيـب نفس فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت ؟

فذكر الناس قالوا : اللهم نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : اللهم أشهد.

اسم الصارخ :

قال ابن إسحاق: وحدثني يحي بن عباد عبد الله بن الزبير. عن أبيـــه عباد قال كان الرجل الذي يصرخ في الناس يقول رسول الله صلى الله عليـــه وسلم وهو بعرفة. ربيعة بن أمية ابن خلف قال: يقول رسول الله صلـــى الله عليه وسلم : قل يا ايها الناس، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هلا

تدرون أي شهر هذا ؟ فيقول لهم. فيقولون : الشهر الحرام : فيقول قل لـــهم : ان الله قد حرم عليكم دمائكم واموالكم الى ان تلقوا ربكم كحرمة شهركم هـذا. ثم يقول قل يا ايها الناس. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـــول : هـــل تدرون أي بلد هذا، قال : فيصرخ به. قال: فيقولـــون البلــد الحـــرام: قـــال: فيقول. قل لهم: ان الله قد حرم عليكم دماءكم واموالكم الى ان تلقـــوا ربكـــم كحرمة بلدكم هذا.

قال: ثم يقول: قل يا ايها الناس ان رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم يقول: هل تدرون أي يوم هذا؟ قال: فيقولوا: يوم الحج الأكبر، قال: فيقولـــوا: قل لهم: ان الله قد حرم عليكم دماءكم واموالكم الى ان تلقوا ربكـــم كحرمـــة يومكم هذا.

قال ابن إسحاق: حدثني ليث بن ابي سليم عـــن شـــهر بـــن حوشـــب الاشعري، عن عمرو بن خارجة قال: بعثني عتاب بن أسيد الى رســـول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة، ورسول الله صلى الله عليه وســـلم بعرفـــه، فبلغته، ثم وقفت تحت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لغامها ليقـــع على رأسي، فسمعته وهو يقول: ايها الناس، ان الله قد ادى الى كل ذي حـــق حقه وانه لا تجوز وصية لوارث، والولد للفراش، وللعـــاهر الحجـــر، ومـــن ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنـــة الله والملائكـــة والنـــاس اجمعين. لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا.

بعض تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم للحاج :

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله ابن أبي نجيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقف بعرفة. قال: هذا الموقف، للجبل الذي هو عليه وكل عرفة موقف وقال حين وقف على قزح صبيحة المزدلفة: هذا الموقف: وكل المزدلفة موقف. ثم لما نحر بالمنحر بمنى قال هذا المنحر. وكل منى منحر، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج وقد اراهم مناسكهم. وعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم: من الموقف ورمي الجمار وطواف البيت، وما أحل من حجهم، وما حرم عليهم، فكانت حجة البلاغ، وحجة الوداع، وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحج بعدها.

عاد الرسول عليه الصلاة والسلام الى المدينة وما لبث ان أدركه المرض حتى لم يقو على الصلاة فندب أبا بكر ليؤم الناس في الصلاة ثم توفاه الله سبحانه وتعالى في يوم الاثنين الثالث عشر ربيع الأول في العام الحادي عشر لهجرته وعمره ٦٣ عاما بعد ان أدى رسالة ربه. وبلغ الأمانة ورضى الله عنه وأرضاه.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالا للانسان الكامل والمعلم العظيم والزوج النادر والصديق الصادق والأخ الودود. والمبشر الهادي والمنذر الرحيم والمبلغ الصادق وكم في سيرته من عظة وعبرة تضئ حيلة البشر منذ الحين وستظل الى ما شاء الله وإذا كان عملنا لا يسمح بتناول هذه الجوانب في هذا الكتاب فالعزاء أن كتب السيرة والتاريخ حافلة بأخباره صلى الله عليه وسلم لكل من يرغب في الاطلاع والقراءة.

وكانت وفاته صلى الله عليه وسلم صدمة واجهـها بعضـهم بإيمـان وصبر وبعضهم بشك وعدم رضا وآخرون لم يدروا ما يفعلون.

وتبدأ بعد ذلك فترة جديدة من تاريخ المسلمين وهى فـترة مـا بعـد رسول الله وأول هذه الفترة ما يعرف بعهد الخلفاء الراشدين فلنتنـاول ذلـك باختصار.

الباب الثالث

الخلفاء الراشدون

- عصر الخليفة أبي بكـــــر الصديـــــق ((رضـــى الله عنـــه))
- عصر الخليفة عمـــــر بن الخطـــــاب ((رضـــى الله عنـــه))
- عصر الخليفة عثمـــــان بن عفـــــان ((رضـــى الله عنـــه))
- عصر الخليفة علـــــى بن أبي طالـــــب ((رضـــى الله عنـــه))

صدى موت الرسول صلى الله عليه وسلم :

تحدث أبو بكر بن العربي رحمه الله في كتابه العواصم من القواصم عن قاصمة الظهر التي ألمت بالمسلمين بوفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الشهر الثالث من العام الحادي عشر لهجرته عليه السلام.

ورغم فترة مرضه والتي أعقبت عودته من حجة الوداع، وتهيئ الناس لاستقبال ذلك الحدث الجلل إلا أنه يبدو أن الوفاة كانت مفاجأة للمسلمين لم تتهيأ لها عقولهم وصدورهم بالدرجة الكافية، ومن ثم رفضت تلك العقول أن تتقبل هذه القضية ولو حتى بمجرد التفكير فيها لدرجة أن رجلا صحابيا جليلا مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو من هو قريبا من رسول الله، وشدة إيمان، ومصاهرة للنبي، وغير ذلك من الصفات التي تؤهله ليكون أول المصدقين، وأول الثابتين عند سماع الخبر اليقين إلا أننا نجده على العكس من كل ذلك يقول: بأن رجلا من المنافقين يزعمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد توفى. وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما رجع موسى، والله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد مات. واضطرب الناس، وذهبت بهم الظنون، وتدارك الله برحمته الناس بمجيء أبي بكر الصديق رضى الله عنه حتى نزل بباب المسجد حين بلغه خبر الوفاة، وكان عمر في ذلك الوقت يتكلم مع الناس، فلم يلتفت أبو بكر لشيء مما يقوله عمر أو يقوله

الناس حتى دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مسجي فـــي بيت عائشة رضى الله عنها في ركن من المنزل وعليه بردة من ثياب اليمــن، فأقبل أبو بكر وكشف عن وجهه عليه الصلاة والسلام، ثم مال علـــى جبينــه فقبله، ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله. أما الموتة التي كتب الله عليـــك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا ثم رد البردة على وجهه. وفي رواية أخرى أنه قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، طبت حيا وميتا. ثم قرأ قولـــه سبحانه وتعالى: "يا أيتها النفس المطمئنة، أرجعي إلى ربك راضية مرضيـــة، فأدخلي في عبادي وأدخلي جنتي".

خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس فقال له: على رسلك يا عمر، أنصــت. فأبى عمر أن ينصت وظل يتحدث مع الناس، فلما رآه أبو بكـــر لا يســتجيب لكلامه ولا ينصت لما يريد أن يقوله أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامــه قبلوا عليه وتركوا عمرا، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، انه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبـد الله فإن الله حي لا يموت. ثم أردف تاليا قول الله ســـبحانه وتعــالى: " ومــا محمدا إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فإن مـــات أو قتــل انقلبتــم علـــى أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسنجزى الله الشـــاكرين". (آل عمران الآية ١٤٤).

نزلت هذه الكلمات على الناس نزلة شديدة وكأنهم لم يسمعوا بها مـــن قبل أثابتهم إلى رشدهم، ويقول ابن هشام: فو الله لكان الناس لم يعلما أن هــذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، قال: وأخذها الناس على أبو بكر فإنمــا هي في أفواههم. قال: فقال أبو هريرة: قال عمر: والله ما هو إلا أن ســمعت

أبا بكر يتلوها فعقرت - أي دهشت - حتى وقعت إلى الأرض مـــا تحملنـــي رجلاي، وعرفت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد مات.

كان هذا هو الموقف في المدينة، أما في مكة فحينما وصلها خبر وفـــاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد اضطرب الناس اضطرابا شديدا حتى اضطر عامل رسول الله عليه السلام، وهو عتاب بن أسيد بن أبي العاص بـن أمية إلى الاختفاء، وكان أهلها يرتدون عن الإسلام حتى قام فيهم سهيل بـــن عمر على باب الكعبة وخطبهم قائلا: يا أهل مكة لا تكونوا آخر مـــن أســلم وأول من أرتد " وأخبرهم بوعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يتـــم الله هذا الأمر، فامتنع الناس عن الردة.

أما باقي أجزاء شبه الجزيرة العربية فإن أهلها وكانوا حديثـــي عـــهد بالإسلام تعرضوا لشدة قاسية، فقد كانت درجة اقتناعهم بمبادئ الإسلام غـــير كافية لعصمتهم أو لتهيئتهم لمواجهة مثل هذا الموقف.

وليس بعيدا أن نشير إلى أنهم في حياة النبي - صلى الله عليه وســلم - قد نازعتهم أنفسهم إلى مشاركة الرسول عليه السلام في دعوته، وأن يكـــون لهم ما كان للنبي - صلى الله عليه وسلم - من الشأن والمنزلة، فادعوا النبوة واستعانوا على ذلك بضروب من الحيل والعبقريـــة الشـــخصية، وآزرتـــهم العصبية العربية، وأفادتهم النعرة القبلية، فشدت مـــن أزرهـــم وزادت مـــن اتباعهم، فوجد طلحة بن خويلد أنصار من بني أسد، واستجاب لسجاح كثـــير من بني تميم، واستطاع مسيلمة أن يجد من بني حنيفة اتباعا يتحمســـون لـــه لرفع دعوته. وأما الأسود العنسي فإستولى على اليمن كلـــها، وطـــرد منـــها

عمال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ودانت له البوادي والحواضر ما بين مغازة حضرموت إلى الطائف ومن البحرين إلى الاحساء وعدن.

وجاءت وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لتزيد الأوضاع ترديـا، فزادت مكانة المتنبئين في قومهم، وارتد أقوام آخرون عن الإسـلام ارتـدادا تاما وسعى بعضهم إلى التغيير في قواعد الدين وأسسه فـامتنعوا عـن دفـع الزكاة وتلقى عبارات ابن هشام التي ينقلها عن السيدة عائشة بنت أبـي بكـر رضى الله عنهما لتصف لنا الحالة بعد وفـاة المصطفـى صلـى الله عليـه وسلم:-

" ولما توفى رسول الله - صلى الله عليـه وسـلم - ارتـد العـرب، واشرأبت اليهود والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطـيرة في الليلة الثانية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم، حتى جمعهم الله علـى أبـي بكر " (١٨٨).

موقف المسلمين بعد وفاة الرسول عليه السلام : -

ثاب الناس إلى رشدهم بعد تأكدهم من وفاة النبي - صلـى الله عليـه وسلم - ولكنهم انقسموا فيما يجب عليهم عمله من بعده وخاصة في اختيـار من يخلفه وكانوا في ذلك ثلاث شعب: الأنصار وقد اجتمعوا في شعيفة بـني ساعدة يبايعون سعد بن عبادة الأنصاري رضى الله عنه. وغالبية المـهاجرين انحازوا إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه ممثلا لحـق المـهاجرين فـي خلافة النبي - صلى الله عليه وسلم - والمجموعة الثالثة ضمـت بعـض آل

[١٨٨] ابن هشام ج٤ ص١٧٩.

بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم على والعباس ومن شايعهما. وكان كل فريق يرى له الحق خاصة أنه لم يعهد عن الرسول عليه السلام أنه أوصى صراحة لأحد بالخلافة بعد موته.

شقيفة بني ساعدة :

يعتبر يوم شقيفة بن ساعدة من الأيام البارزة في التاريخ الإسلامي، وهو علامة مضيئة في تاريخ المسلمين، لأنهم على الرغم من الظروف القاسية التي كانت تمر بالمسلمين بسبب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، إلا أنهم اجتمعوا في هذا المكان وهذا اليوم لاختيار خليفة رسول الله، وأنهم في هذا المكان قد تجادلوا بالحسنى والرأي والحجة حتى حدث الإقناع بشخصي ما فبايعوا من اقتنعوا به.

اجتمعوا الأنصار في تلك السقيفة يقلبون الأمر على وجوهه، وكان سعد ابن عبادة زعيم الخزرج مريضا في بيته فأخرجوه إليهم ليكون صاحب الرأي فيهم فتكلم بينهم وشرح لهم سابقتهم في الإسلام فقال بعد أن حمد الله أثني عليه: " يا معشر الأنصار أن لكم لسابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، وأن محمدا عليه السلام للبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا قليل... ".

كانت خطبة سعد بن عبادة طويلة تحاول ان تبين فضل الأنصار وتدعوهم إلى المسارعة إلى مبايعته باعتباره زعيما لهم، ولكن المقالة لم تؤت ثمارها كما كان متوقعا، فقد ردوا عليه بكلمات طيبة، ثم راجعوا أنفسهم فيما ينبغي أن يكون لو دار الجدل بينهم وبين إخوانه من المهاجرين حتى

توصلوا إلى ان أبت مهاجرة قريش أن يتركوا لهم الخلافة، وأن رفعـوا فـي مواجهتهم حجة القول بأننا نحن المهاجرون، وصحابة رسـول الله الأولـون فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده ؟ وتوصل الأنصار إلى أن أقصى ما يمكـن أن يردوا على المهاجرين هو الاقتراح بأن يكون من المهاجرين أمير ومـن الأنصار أمير، ولن يرضى الأنصار بدون هذا الأمر أبدا. وتعجب سعد بـن عبادة من هذا الموقف وأعتبره أول الوهن في صفوف الأنصار.

علم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما بما يجرى في شقيفة بن سـاعدة فذهبا إلى هناك وفي الطريق قابلهما أبو عبيدة بن الجراح فرافقهم إلى هنـاك حيث وجدوا القوم مازالوا يتجادلون ولم يصلوا إلى قرار بعد.

تحدث أبو بكر فأبان فضل المهاجرين والأنصار، وأكد علـى.أن هـذا الأمر لا يمكن أن يكون إلا لهذا الحي من قريش لأنهم أول من عبد الله فـي الأرض وآمن بالله ورسوله، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمـر من بعده ولا ينتازعهم في ذلك إلا ظالم.

ثم بين فضل الأنصار ومكانتهم عند المسلمين وعند رسول الله ثم ختـم قوله: فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشـورة، ولا تقضـى دونكـم الأمور.

تجادل الناس كثيرا، وتدخلت عدة عوامل أدت في النهاية إلى قيام القـوم بمبايعة أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

البيعة الخاصة :

هي تلك البيعة التي تمت لأبي بكر رضى الله عنه فـــي شـــقيفة بنـــي ساعده حيث تقدم لبيعة بشير بن سعد من الخزرج ثم عمر وأبو عبيـــدة ثـــم جميع الأنصار المجتمعين في السقيفة في ذلك اليوم. ويقول الأستاذ الدكتـــور حسين مؤنس - رحمة الله عليه - أن هذه هي المرة الأولى والأخـــيرة التـــي اجتمع المسلمون فيها اجتماعا حرا لاختيار حاكمهم.

البيعة العامة :

تمت هذه البيعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين أتى أبو بكر وعمر إلى المسجد وأقام عمر بن الخطاب يعتذر إلى الناس عمـــا فرط منه بالأمس من إنكار موت رسول الله عليه السلام، ثم قال: ان الله قـــد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم كما هـــداه بـــه وان الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب الرسول صلى الله عليه وســـلم، وثاني اثنين إذ هما بالغار فقوموا فبايعوا.

بايع الحاضرون جميعا أبا بكر بالخلافة، وأصبح منذ ذلك الحين خليفـــة المسلمين دون منازع. وهناك عدد من الآراء حول موقف بعـــض الصحابـــة من أمثال على والعباس والزبير وأبي سفيان بن حرب من البيعة لأبي بكـــر، لكن الخلاصة التي لا يختلف حولها اثنان هو عدم وجود معارضـــة حقيقيـــة لأبي بكر رضى الله عنه وأن الجميع سرعان ما أنضوا تحت لوائه، وصفـــت له الأمور تماما.

ما معنى الخلافة :

هي نظام للحكم اختاره المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعني النيابة عن صاحب الشرع - صلى الله عليه وسلم - في حفظ الدين وسياسة الدنيا كما يقول الماردي، وهي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا كما يقول ابن خلدون [١٨٩]. واشترط أيضا في الخليفة خمس شروط هي: العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء، مما يؤثر في الرأس والعمل، وأخيرا النسب لقريش [١٩٠] وحينما ظهرت الفرق الإسلامية بعد ذلك كان لكل منها فكره عن الخلافة وشروطها وما يشترط في الخليفة.

شروط الخلافة : -

لابد لمن يتولى هذا المنصب الخطير أن يكون جامعا لشروط أربعة:

١ - العلم : لأنه منفذ لأحكام الله تعالى ولا يقوم بها جاهل.

٢ - العدالة : لأن الإمامة منصب وبني ينظر صاحبها في الأحكام التي يشترط فيها العدالة فكانت أولى باشتراطها.

---

[١٨٩] عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ج٢ ص ١٥١.

[١٩٠] نفس المصدر ص ١٥٢.

٣ - الكفاية : أي يكون قادرا على إقامة الحدود، واقتحام الحــروب بصــيرا بأساليب السياسة وغير ذلك من المؤهلات التي تمكن من حماية الدين، وجهاد العدو، وإقامة الأحكام وتدبير المصالح.

٤ - أن يكون سليم الحواس والأعضاء مما يؤثر فَقدانه في الــرأي والعَمــل، ويلحق بذلك العجز عن التصرف، وصغر السن أو غير ذلك.

٥ - وهناك من اشترط أن يكون قريشيا لقول الرسول عليه السلام الأئمة مــن قريش.

ولكل فرقة من فرق المسلمين آراء واشتراطات لمن يتولى الخلافة.

يبين ابن خلدون في مقدمته حقيقة الملك بأنه اجتماع ضروري للبشــر. وحتمية وجود قوانين سياسية مفروضة يسلم بها الكافة وينقادون إلى حكمــها، وبين الفرق بين السياسة التي يضعها العقلاء والحكمــاء أو السياســة التــي يفرضها الله سبحانه وتعالى إلى أن يصل إلى القول: ان الملك الطبيعي هــو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة علــى مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، والخلافة هــي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيويــة الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصــالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا.

ثم يواصل شرحه قائلا : -

وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب، وأنه نيابة عن صاحب الشــريعة فــي حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة، والقائم به خليفــة وإمامــا،

فأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله، وأختلف في تسميته خليفة الله [191].

وجوب إقامة الخليفة :

وقد أجمعت الأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول عليه السلام على وجوب إقامة هذا الخليفة، ولم يشذ عن هذا الإجماع أحد من المسلمين إلا قلة من الخوارج وأصحاب الهوى.

كما أجمعت الأمة على أنه لا يصح أن يكون لهم في عصر واحد خليفتان لما يجره ذلك من التنافس والتباغض، وان كانت الأحوال والظروف قد أجبرت الناس على تغيير رأيهم في هذا المعتقد بعد ذلك، فأصبح هناك خليفتان ثم ثلاثة ثم أكثر من ذلك.

وكان من الطبيعي أن يختلف المسلمون حول من يتولى هذا المنصب الخطير، وليس هذا مجال شرح مواقف كل فئة من المسلمين ووجهة نظرهم في ذلك.

خلافة أبي بكر الصديق :

هو عبد الله بن عثمان وهو أبو قحافة بن عامر بن كعب بن سعد ابن تيم بم مرة بن كعب لؤى، وأمه هي أم الخير سلمى بنت صخر، وكان والده أبو قحافه من سادات قريش في الجاهلية وكذلك نشأ ابنه أبو بكر حيث تمتع بمكانة كبيرة في قريش قبل إسلامه.

---

[191] المقدمة : ص ١٥٠ – ١٥١.

ولد أبو بكر بعد عامين من مولد الرسول - عليه السلام - وكان صديقا له وهناك يقول بأنهما تزاملا في التجارة.

كان الصديق أول من آمن من الرجال، وأعلن إسلامه ودعا إليه وكان مؤلفا لقومه سهلا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها وبما كان منها من خير وشر، وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف وحسن مجالسته، فجعل يدعوا إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يخشاه ويجلس إليه فأسلم على يديه: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله حين استجابوا له فأسلموا، وكان هؤلاء مع على وزيد وأبو بكر النفر الثمانية الذين بقوا بالإسلام وصدقوا رسول الله [١٩٢].

لأسباب عديدة مال المسلمون إلى أبي بكر الصديق نذكر منها :-

١ - تكليفه الصلاة حينما مرض الرسول عليه السلام.

٢ - ندبه للقيام بالحج في العام التاسع من الهجرة.

٣ - جاءت امرأة إلى النبي - عليه السلام - في حاجة لها فطلب منها النبي أن ترجع إليه في العام القادم فقالت: " أرأيت إن جئت فلم أجدك " فقال لها: "إن لم تجديني فآت أبا بكر".

تولى أبو بكر الخلافة منذ اليوم الأول لوفاة الرسول عليه السلام وألقى خطبة قصيرة بين فيها سياسته التي سيسير عليها وتعد نبراسا للنهج

---

[١٩٢] محمد أسعد طلى: الخلفاء الراشدون ص٨.

السياسي الذي اختطه الصديق وهو الالتزام بخطى رسول الله عليه السلام ومما قاله في الخطبة: "أما بعد. أيها الناس فإني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني. وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إنشاء الله والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"[193].

ومن هذا المنطلق كان على أبي بكر الصديق أن يواجه المشاكل التي نجمت عن وفاة رسول الله وهي :

١ – إنفاذ بعث أسامة بن زيد.

٢ – مواجهة المرتدين والمتنبئين.

٣ – مواصلة رسالة رسول الله عليه السلام في دعوة الناس إلى الإسلام ولنتناول هذه النقاط باختصار فيما يلي : –

١ – إنفاذ بعث أسامة :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعد الجيش قبل وفاته لإرساله إلى أطراف الشام وجعل فيه كبار الصحابة، وأمر عليه السلام أسامة بن زيد بن حارثة وكان هدف الجيش فتح أطراف الشام والانتقام لقتلى غزوة مؤتة ومنهم زيد بن حارثة والد أسامة لكن الرسول عليه السلام مرض مرضه الأخير، ولم يكن الجيش قد بارح المدينة وانتظر أسامة بالناس حتى أدركت

---

[193] ابن هشام ج٤ ص ٢٢٨.

الوفاة الرسول عليه السلام. وكان أمام بكر مشكلتين في جيـــش أســامة: أن يمضي الجيش أو لا يمضي في تلك الظروف الصعبة وخاصــــة وأن أنبــاء ارتداد القبائل كانت قد بدأت تترى على المدينة، والثانية إمارة أسامة نفســـه، وكان صغيرا بالنسبة لكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، لكن أبا بكــر الصديق كما عرف عنه من حب رسول الله صلى الله عليـــه وســلم واتبــاع لسياسته أصر على ان يخرج جيش أسامة، وأن يخرج بــأميره الــذي أمـــره الرسول عليه السلام، ولذلك نادى مناديه من بعد الغد من وفاة رســـول الله – صلى الله عليه وسلم – ليتم بعث أسامة. "ألا لا يبقين بالمدينة أحد مـــن جنـــد أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف" [١٩٤] وقام بعد ذلك في النـــاس خطيبــا يحثهم على التمسك بما كانوا عليه على عهد الرسول، ويعظمهم ويحذرهـــم، وقال ردا على المتخوفين من إرسال البعث: " والذي نفس أبي بكر بيـــده لـــو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله صلــــى الله عليه وسلم ولو لم يبقى في القرى غيري لأنفذته" [١٩٥]. وحين كلمه عمـــر ان الناس تطالبه ان يؤمر عليهم من هو اقدم سنا من أسامة قال أبو بكـــر: "لـــو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله"، وحيـــن جادلـــه عمر أخذ أبو بكر بلحيته وقال له: "ثكلتك أمك وعدمتك يـــا أبـــن الخطـــاب! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه" [١٩٦].

وخرج أبو بكر ماشيا يودع الجيش وأميره راكبـــا ووقـــف يوصــــي الجنود: "لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا طفلا صغيرا ولا شـــيخا

---

[١٩٤] الطبري ج٣ ص٣٢٥.

[١٩٥] نفس المصدر ص٣٢٦ – ٣٢٧.

[١٩٦] نفس المصدر ص٣٢٦.

كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه ولا تقطعوا شـــجرة مثمـــرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفســـــهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا من أنفسهم له، وسوف تقومون على قـــوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شئ فاذكروا اســـم الله عليه" [197].ثم استأذن أسامة في أن يترك له ابن الخطاب في المدينة ليساعده، وعاد ومعه عمر، أما أسامة فمضى مغذا في السير. وانتهى إلى مـــــا أمـــره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من بث الخيول في قبائل قضاة والغـــارة على آيل فسلم وغنم وكان فراغه في أربعين يوما سوى مقامه ومنقلبه [198].

يجمع المؤرخون على أن رأي أبي بكر كان صائبا فـــي إنفـــاذ هـــذا الجيش لأن خروجه من المدينة للقتال أوهم المرتدين من العرب بوجود قـــوة في المدينة كافية للدفاع عنها، كما أ،ه أثار الخوف لدى القبائل فلم تقبل علـــى مهاجمة المدينة، وكان ذلك منة عظيمة من من الله، وحسن رأي ونفاذ بصيرة من الخليفة رضى الله عنه.

٢ – الموقف من المرتدين : –

لم يشهد الإسلام إقبالا واسعا من القبائل العربية إلا بعد فتح مكة حتى أن العام التاسع من الهجرة يسمى عام الوفود لكثرة الوفود التي قدمت علـــى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تعلن اعتناقها الإسلام ومعنـــى ذلـــك ان وفاة الرسول – عليه السلام – قد فاجأت هذه القبائل ولم تكن قد تعودت بعـــد على النظم الإسلامية. وخاصة فكرة التنظيم الذي يجعل من المسلمين جميعـــا

---

[197] نفس المصدر ص٣٢٦ – ٣٢٧.

[198] الطبري ج٣ ص٣٢٧.

صفا واحدا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. وإنما مـــا زالت جنوبـــهم تغلي بما طبعوا عليها آجالا طويلة من عصبية قبلية. لذلك ما ان انتشر خـــبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتشرت الردة في شـــبه الجزيـــرة العربية، وأخذت هذه الردة ثلاث صور: -

ارتداد كامل عن الإسلام - اتساع حركة المتنبئين - الامتناع عن أداء الزكاة.

وكان أبو بكر الصديق مواجهة هذا الموقف العصيب، فحاول بعـــض الصحابة التفرقة بين من أرتد عن الإسلام، وبين ما بقى مـــن الزكـــاة لكـــن الصديق قال: "والله لاقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعوني عناقـا أو عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها" (١٩٩).

بدأ أبو بكر جهاده ضد هؤلاء جميعا بمحاولة كسب الوقت أملا فـــي أن يعود بعث أسامة ومعه المسلمون فحينما قدمت كتب أمراء النبي صلـــى الله عليه وسلم من كل مكان بانتقاض العرب عامة أو خاصة، وتســـلطهم علـــى المسلمين فحاربهم أبو بكر بما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاربـــهم بالرسل فرد رسلهم بأمره واتبع وسلهم رسلا. وانتظـــر بمصادماتـــهم قـــدوم أسامة (٢٠٠).

من ناحية أخرى حاول ان يحصن المدينة بمن بقى معـــه فيـــها مـــن الرجال وكانوا قليل. وحينما جاء وفد عبـــس وذبيـــان يعرضـــون الطاعـــة ويطلبون الإعفاء من الزكاة، رفض الصديق، وقال لهم: "والله لـــو منعونـــي

---

[١٩٩] محمد سعد طلى: الخلفاء الراشدون ص ٢٠.

[٢٠٠] ابن الأثير ج٢ ص ٢٣١.

عقالا لجاهدتم عليه"، فقام الوفد بعد ان أدرك قلة الرجال بالمدينـــة وضعفـــهم فإحتمر شرا، وتنبأ بذلك الصديق فجعل عليا والزبير وطلحة وعبـــد الله بـــن مسعود على مشارف المدينة ونبه على كل من في المدينة بالاستعداد وفعـــلا عندما هاجموا أطراف المدينة كان الصديق ومن معه في انتظارهم فناوشـوهم حتى ردوهم، وكاد النصر يتم للمسلمين عليهم لولا أنهم لجأوا إلى إزعاج إبـل المسلمين مما اضطرهم إلى العودة إلى المدينة. وأستعد أبو بكر طوال الليـــل وفي الصباح الباكر خرج بنفسه على رأس من معه من المســـلمين ففـــاجئوا المرتدين وأجبروهم على الابتعاد عن المدينة وعاد جيش أسامة فتركهم أبـــو بكر للراحة في المدينة، وخرج على رأس من كان معه حتى بلغ الربذة فقـاتل من فيها من المرتدين، وهزمهم وأسر منهم جماعة، وكان الصديق رضـــى الله عنه مثالا للبطولة والشجاعة.

بعد ذلك بدأ الصديق يعد الجيوش للقضاء على المرتدين والمتنبئيـــن وكانت على الوجه التالي : -

خالد بن الوليد ووجهته طليحه بن خويلد ثم مالك بن نويرة.
عكرمه بن أبى جهل وأمره بمسيلمة الكذاب باليمامة.
المهاجر بن أبى أمية ووجهته الأسود العنسي.
حذيفة بن محصن ووجهته من أهل دبا.
عرفجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة.
سويد بن مقرن ووجهته تهامة اليمن.
طريفة بن حاجز ووجهته إلى بني سليم ومن معهم من هوازن.
عمر بن العاص ووجهته قضاعة.
خالد بن سعيد بن العاص ووجهته عرب مشارف الشام.
شرحبيل بن حسنة: ومضى في أثر عكرمة بن أبى جهل.

وزود الصديق هؤلاء الأمراء بكتب يوصيهم فيها ألا يقـــاتلوا حتـــى يدعوا إلى الله، وطلب منهم أن يؤذنوا قبل القتال فإن سمعوا أذنا من الجهـــة الأخرى علموا أنهم باقون على إسلامهم فلا يقاتلوا وأن لـــم يســمعوا آذنـــا حاربوهم.

مضت هذه الجيوش إلى حالها، وخاضت عدة معارك حاســمة مــن أشهرها قتال خالد بن الوليد لطليحة بن خويلد الأسدي وكان طلحة قد تنبأ فــي حياة الرسول عليه السلام، وزاد جمعه بعد وفاته وبدأ القتال بين قوات خـــالد وبني أسد وكان على رأسهم عيينه بينما كان طلحة يقيم في بيت من الشـــعر يتنبأ لهم، وأشتد القتال، وأوقع المسلمون هزيمة قاسية بـــالمرتدين، وهـــرب طليحة وزوجته إلى الشام، ثم عاد إلى الإسلام، وحسن إسلامه واشترك فـــي الجهاد في فتح العراق.

أما مسيلمة الكذاب فهو متنبئ به حنيفة، وكان عددهـــم يصـــل إلـــى حوالي ٤٠٠٠٠ مقاتل، وكان المكلف به شرحبيل ابن حسنة وعكرمة بن أبـــي جهل، ولم يكتب النصر أولا لجيوش المسلمين على بني حنيفة، ومن ثم كلـــف الصديق رضى الله عنه خالد بن الوليد بعد ان انتهى من بني أسد وبني تميـــم أن ينضم إلى شرحبيل وعكرمة لمواجهة ردة مسيلمة وقومـــه خاصـــة وأن سجاح بقواتها قد انضمت إلى مسيلمة مكونين بذلك جبهة قوية ضد المسلمين.

ولقد افترى هؤلاء المرتدين حين زعموا أنه يوحى إليهم وأنهم يـــنزل عليهم الوحي الذي كان ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وبينما مســـيلمة وسجاح يتنبآن ويشيعان أقوالهما بين الناس ويشجعانهم على قتـــال المســـلمين

فاجأهم خالد بن الوليد بجيوشه وتمكن من قتل مسيلمة أما سجاح فقد أسـلمت وحسن إسلامها بعد ذلك. ولم يمض أكثر من عدة أشهر حتى تمكنت جيـوش المسلمين من إعادة توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، وطاعـة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٠١).

٣ – مواصلة رسالة الرسول عليه السلام فور عودة الناس إلى السلام : –

يتمثل جوهر الدعوة الإسلامية في إبلاغ رسالة الله سبحانه وتعـالى إلى الناس كافة بدءا من الأقربين إلى رسول الله، ومن هنـا كـان انطـلاق رسول الله بعد ان فرغ من شبه جزيرة العرب إلى إرسال الرسل إلى الملـوك والأمراء على عصره، ثم إرساله البعوث بعد ذلك حدود الشام، فكانت سـرية مؤتة وغزوة تبوك، وتجهيز بعث أسامة بن زيد.

وحينما تولى أبو بكر الخلافة نهض بإنفاذ جيش أسـامة، ثـم واجـه محنة المرتدين ومن ثم بدأ يستعد لتوجيه العرب إلى الجهاد وإبلاغ رسـالة الله إلى الشعوب المجاورة من الفرس والروم، ومنذ هذه اللحظة بدأ ما يعـوف ف التاريخ الإسلامي باسم " الفتوحات الإسلامية ".

الجهاد على جبهة العراق وفارس :

بعد انتهاء المسلمين من القضاء على الردة في منطقة البحرين، وجـد المسلمون أنفسهم بالقرب من عرب الحيرة وبعض القبائل العربيـة المقيمـة بجنوب العراق وبرز هناك المثنى بن حارثه الشيباني الذي تمكن من إحـراز بعض الانتصارات على ساحل الخليج العربي لكنه وجد ألا طاقة لـه بذلـك

[٢٠١] انظر أبن الأثير ج٢ ص٢٦١ وما بعدها.

فأرسل إلى أبي بكر يطلب الأذن له بالقتال في العراق وكان ذلـــك فـــي أول السنة الثانية عشر من الهجرة.

توجه خالد بن إلى الحيرة حيث دعاهم إلى الإسلام أو الجزية فوافـــق اياس بن قبيصة الطائي أمير الحيرة حينذاك على دفع الجزية، ويقـــول ابـــن الأثير أنه أمر خالد أن يذهب إلى الأبلة على رأس الخليج بينما أمر عيـــاض بن غانم أن يقصد العراق، وانه كتب إلى المثني بأن يلحق بخالد في الأبلـــة، حيث التفت القوات هناك وكان عددها معا حوالي ١٨ ألف مقـــاتل وجـــرت بينهما وبين الفرس عدة مواقع أهمها معركة المذار والولجـــة وعيـــن التمـــر ودومة الجندل وتم له إلى جانب الحيرة فتح بلاد السواد مـــن أرض العـــراق والأنبار، وأماكن أخرى.

وحينما احتاج المسلمون في بلاد الشام إلى النجدة والمدد طلـــب أبـــو بكر الصديق من خالد بن الوليد أن يتجه إلى بلاد الشـــام، وأن يـــترك جهـــة العراق لقيادة المثنى بن حارثة الذي التقى مع الفرس بقيادة هرمـــز وانتصـــر عليه، ثم شغلت بلاد فارس في مشاكلها الداخلية مما مكن المثنى من فـــرض سيطرت المسلمين على غربي الفرات. احتاج المثنى إلى المدد فرحـــل إلـــى المدينة يتشاور مع الخليفة فوجده على فراش الموت لكنه أوصى عمـــر بـــن الخطاب بالمثنى وبجبهة العراق، وتوفى الصديق والمثنى بـــن حارثـــة فـــي المدينة.

الجهاد على جبهة الشام وفلسطين :

كانت بلاد الشام من البلاد المعروفة للمسلمين قبل الإسلام فكثيرا ما وطئوها بتجارتهم ورحالاتهم، وكانت هذه البلاد تحت السيطرة البيزنطية، ولقد حدثت عدة مصادمات بين الروم حكام هذه البلاد وبين المسلمين على أواخر عهد النبي عليه السلام، وأوائل عهد أبي بكر الصديق.

وحين فرغ الصديق من حروب الردة وبدأ للاتجاه لفتح البلاد المجاورة ووجه خالد بن الوليد إلى بلاد العراق بدأ أيضا في توجيه الجيوش لبلاد الشام، وهي شجاعة فريدة تذكر لأبي بكر الصديق حيث تصدى في وقت واحد لأكبر إمبراطوريتين عرفهما التاريخ حينذاك الفرس والروم.

يقول الواقدي متحدثا عن أبي بكر أنه قاتل بني حنيفة وأهل الردة وأطاعته العرب، عزم أن يبعث جيشه إلى الشام، وصرف وجهته لقتال الروم[٢٠٢] فجمع صحابة رسول الله وخطبهم بعزم فأجابوه إلى ذلك فكتب رضى الله عنه إلى القبائل الحميرية يدعوهم إلى الجهاد فقدمت إليه هذه القبائل كلها مع أمرائها، وانضم إليهم من يرغب الجهاد من المسلمين. فقام أبو بكر الصديق بتقسيمها إلى أربعة جيوش أساسية أمر عليها أولا يزيد بن أبي سفيان ومعه ربيعة بن عامر في ألفين من الفرسان. ثم أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص، فعقد للجميع وقال لهم: إذا اجتمعتم بأمير الناس أبو عبيدة، ثم أنفذهم جيشا بعد جيش فلما قدمت الجيوش الشام كتب أبو عبيدة إلى أبي بكر يعلمه إقبال ملك الروم فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يسير

---

[٢٠٢] الواقدي: فتوح الشام ص٥.

إلى الشام فنفذ خالد من أهل القوة ممن كان معه وسار في البريـــة والمفــازة ثمانية أيام حتى وافاهم[٢٠٣].

ولقد وقعت بين المسلمين والروم ملاحم كثيرة جدا يصعب حصرهــا أو تنسيقها، وأختلف المؤرخون في تحديد زمانها ومكانها اختلافا بينــا، وقــد خصص لها الواقدي كتابا ضخما بعنوان فتوح الشـــام [٢٠٤] وســنذكر أهــم المعارك التي دارت في هذه المنطقة:

معركة أجنادين:

وقعت هذه المعركة الهامة يوم السبت الثاني من جمادى الأولى ســنة ثلاثة عشرة من الهجرة، ولقد انقسم المؤرخون قسمين في تســمية المعركــة الهامة التي وقعت في هذا التاريخ، فاليعقوبي والواقدي يؤكدان أنها أجنـــادين [٢٠٥] أما الطبري وابن الأثير فجعلاها معركة اليرموك[٢٠٦].

---

[٢٠٣] اليعقوبي ج٢ ص ١٢٢.

[٢٠٤] الواقدي : فتوح الشام مجلدان. ٦٢٠ صفحة من الحجم المتوسط والخط الصغير نشر دار الجيل.

[٢٠٥] الواقدي : فتوح الشام ج١ ص ٦٦ اليغقوبي ج٢ ص١٢٢.

[٢٠٦] الطبري : ج٣ ص٣٩٤ وص ٤٣٥. أبن الأثير ج٢ ص٢٨٠.

وكان الأمر كذلك بالنسبة للمؤرخين المحدثين بعضهم جعلها أجنـادين [٢٠٧] والبعض الآخر جعلها اليرموك [٢٠٨] ويرجع هذا الالتباس إلـى كـثرة المعارك والمواقع ومهما كان الأمر فإنه لم يغير من الواقع التـاريخي شـيئا والذي يثبت أنه في العام الثالث عشر من الهجرة التقى المسلمون والروم فـي معركة غير متكافئة حيث حشد الروم كل قواتـهم بقيـادة تيـودوس شـقيق الإمبراطور هرقل وكان جيشهم يصل إلى ما يقرب من مائة ألـف مقـاتل، بينما كانت قوات المسلمين مقسمة بين القـادة الأربعـة والتـي لا تصلفـي مجموعها إلى ٤٠ ألفا، ولذلك طلبوا المدد من الخليفة أبـي بكـر الصديـق فأمدهم بخالد بن الوليد وبعض قواته العاملة في العراق، وحينما وصل خـالد إلى أرض المعركة ووجد القادة كل منهم بازاء قسم من قوات الروم خطبـهم وناشدهم الله توحيد صفوفهم وأقترح عليهم أن يتركوا له القيادة هـذا اليـوم. على ان يكون كل منهم قائدا عاما يوما آخر. وتمكن خالد بتنظيمه العسـكري وبراعته الحربية ان يوقع بالروم هزيمته شديدة جعلت عددا كبيرا من المـدن الشامية تسقط في أيدي المسلمين، وجعلت الروم يفكرون في معركة أخـرى يستردون بها مكانتهم في هذه البلاد. وفي نهاية هذه المعركـة جـاء الـبريد بموت أبي بكر الصديق وتولية عمر بن الخطاب الخلافة وكذلك كذلك عـزل خالد عن الولاية وتعيين أبا عبيدة بن الجراح قائدا عاما لجيـوش المسـلمين بالشام، وكان الروم بأجنادين تسعين ألفا فقتل منهم في ذلك اليـوم خمسـون ألفا، وتفرق من تبقى منهم فمنهم من انهزم إلى دمشق ومنهم من انهزم إلـى

---

[٢٠٧] أحمد شلبي : الموسوعة ج١ ص٥٨٤ – السيد عبد العزيز سالم: الدولة العربية ج١ ص٢٠٣ محمد أسعد طلس الخلفاء الراشدون ص٦٣. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج١ ص١٧٨.

[٢٠٨] حسن إبراهيم : التاريخ الإسلامي ج١ ص٢٢٥. فتحية النبراوي : الخلفاء الراشدون ص٤٣. الشيخ الخضري – محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ج٢ ص٣.

قيسارية، وغنم المسلمون غنيمة لم يغنم مثلها وأخذوا منهم صلبـــان الذهـب والفضه، فجمع خالد ذلك كله مع تاج وردان إلى وقت القسمة، وقال خـــالد: " لست أقسم عليكم شيئا إلا بعد فتح دمشق إن شاء الله تعالى "، وكانت الوقعـــة بأجنادين ليلة ست خلت من جمادي الأولى سنة ثلاث عشـــرة مـــن الـــهجرة النبوية وذلك قبل وفاة أبي بكر بثلاث وعشرين ليلة[٢٠٩].

وفاة الصديق :

أصيب أبو بكر بالمرض في السنة الثانية لخلافته لثلاث عشر ســـنة خلت من هجرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحينما أشتد عليه المـــرض دعا إليه كبار الصحابة واستشارهم في تولية عمر بن الخطاب من بعده بعـــد أن كان قد أمره على الصلاة فيهم خلال مرضه، كما كان يعهد إليـــه أيضـــا بأمور القضاء.

وافق الصحابة الذين شاورهم على ذلك فكتب بذلك عهده وطلب مـــن المسلمين الموافقة على ما في الكتاب، ثم أنه أوصـــى عمـــر بـــن الخطـــاب بالمسلمين، وجاءه بعض الصحابة بعد علمهم بعهده إلى عمر يشكون إليه شدة عمر لكنه أقنعهم بأن تلك الشدة إنما كان يبديها عمر لما كان أبو بكر من ليـــن فإذا ما انتهى الأمر إلى عمر زالت تلك الشدة.

ومات أبو بكر رضوان الله عليه وعمره ثلاث وستون ســـنة وكـــانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر.

---

[٢٠٩] الواقد فتوح الشام ج١ ص ٦٦.

الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

١٣ هـ - ٢٤ هـ ٦٣٤ م - ٦٤٤ م

من أبرز الخلفاء الراشدين، بل من أعظم الشخصيات في التاريخ، ويعترف بفضله ومكامنه أعداؤه وأصدقاؤه على السواء، ولا تكف الكلمات هنا مهما كثرت للتعبير عما نحسه من احترام وتقدير لتلك الشخصية الفذة التي أخرجتها مدرسة الإسلام، وصاغتها تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي العدوي القرشي وكنيته أبو حفص، ولقبه الفاروق، لقبه بذلك سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية القريشية، فهو حسيب أصيل أما وأبا.

ولد بعد عام الفيل بثلاث عشر سنة، أي أنه أصغر من رسول الله صلى الله عليه وسلم في حدود اثنتا عشر سنة تقريبا. كان أبوه من أشراف قريش، اعتنى بعمر وأحسن تأديبه فعلمه القراءة والكتابة في وقت ندر فيه من كان يتعلم ذلك، ونشأه على أفضل ما ينشأ عليه أبناء قريش من البراعة في الفروسية، وحفظ أخبار الأوائل وأشعار العرب، ورواية مناقبهم ومفاخرهم حتى غدا في المجال فارسا لا يشق له غبار حتى أن قريشا فوضته سفيرا ينوب عنها في الملحات ويدافع عنها في المنافرات والمفاخرات.

يقول ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب: كان عمر من إشراف قريش واليه كانت السفارة في الجاهلية، وذلك أن قريشا كانت إذا وقعت بينهم حوب أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرا، وان نافرهم منافرا، أو فاخرهم مفاخر، بعثوه منافرا ومفاخرا.

عمل عمر – رضى الله عنه – في شبابه بالتجارة فسافر مع قومه إلى الشام صيفا وإلى اليمن شتاء.

حين بدأ الرسول – صلى الله عليه وسلم – دعوته إلى الإسلام كان عمر شابا يافعا، تعترف قريش له بالشجاعة والحمية والإقدام، وكان فتى قريشيا يغير بعشيرته وتقاليدها. عنيفا في الحفاظ على مكانتها وهيبتها وتحمس لديه آبائه تحمسا لا يخالطه ريب، ولهذا وقف من رسول الله ودعوته موقفا شديد العداء، فانتقد الرسول ودعوته انتقادا حادا وعذب بكل ما استطاع الذين صبأوا عن دين قومهم، واشترك في الإساءة إلى القوم الذين بدلوا دين لآبائهم، وكان معاديا عداء شديدا للإسلام والمسلمين.

إسلام عمر :

أسلم عمر بن الخطاب في العام السادس من البعثة، وهناك من يقول أن إسلامه كان في العام الخامس (٢١٠) واكمل بإسلامه أربعين رجلا، ويقول ابن الجوزي رضى الله عنه عن إسلام عمر: ظهر الإسلام يوم أسلم، وسمى بالفاروق لذلك، وكان إسلامه فتحا، وهجرته نصرا، وغضبه عزاء، ورضاه عملا.

---

[٢١٠] ابن الجوزي: عيون التاريخ والسير ص١٠٧.

ولقد تعددت الروايات في سبب إسلام عمر ولكنها تتفق في شيء واحد ألا وهو رغبته في القيام بعمل كبير ولكن إسلام أخته وزوجها أجبراه على إعادة النظر في موقفه من الإسلام، وكان ثبات موقف أخته وعدم رهبتها من بطش أخيها' هو العامل الحاسم الذي وقع بعمر بن الخطاب أن يفكر في الإسلام وأن يطلب الصحيفة التي كانوا يقرأون فيها والتي كانت تحمل آيات من كتاب الله، يجمع المؤرخون على أنها سورة طه، فلما قرأها شرح الله صوره للإسلام، وغدا إلى رسول الله في دار الأرقم حيث أسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان إسلام عمر نقطة هامة في تاريخ الدعوة، وسببا من أسباب عزة المسلمين لما كان له من الجاه والنفوذ والسمعة الطيبة بين القريشيين علاوة على شجاعته وفروسيته، ويصف أن مسعود - رضى الله عنه - إسلام عمر بقوله: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقال: لقد رأيتنا ولم نستطع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا، وقال أيضا: لما أسلم عمر ظهر الإسلام ودعا إلى الله علانية. وقال على: لما أسلم عمر وأعتز الإسلام والمسلمون به، طلب إلى رسول الله أن يظهر الدعوة، وأن لا يحفل بقلة المسلمين حتى رضى رسول الله، وخرج المسلمون في صفين أحدهما يقوده عمر والآخر حمزة بن عبد المطلب حتى أدوا الصلاة إلى الكعبة.

ودافع عمر عن المسلمين ما استطاع وهو في مكة، ولما أسلم عمر كمل عدد المسلمين أربعين شخصا، ونزل قول الله سبحانه وتعالى: "يا أيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين".

تبوأ عمر رضى الله عنه مكانة عالية في صحبة رسول الله صلـى الله عليه وسلم، فأصبح من أقرب أصحابه والمشيرين عليه، وشهد معه المواقـف جميعها، وكانت آراؤه السديدة، ونصائحه الغالية والتي نزل القـرآن الكريـم مصدقا لها ومؤيدا لوجهة نظرها هي التي جعلت منه - مثل أبي بكر الصديق رضى الله عنه - بمثابة الوزير لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

هاجر عمر إلى المدينة قبل رسول الله صلى الله عليه وسـلم، وكـان من الجرأة والشجاعة بحيث أنه رفض أن يهاجر سرا مثل بـاقي المسـلمين فحينما عزم على الهجرة مضى إلى الكعبة والملأ من قريش بفنائها، مطـاف بالبيت سبعا، ثم أتى المقام فصلى متمكنا، ثم وقف على الحلق واحدة واحـدة وصاح بالناس: شامت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعـاطي ومـن أراد أن تثكله أمه وييتم ولده، ويرمل زوجه فليلقني خلف هذا الوادي. فلم يتبعه أحـد من المشركين، وهكذا خرج مهاجرا في سبيل الله معلنا غضبته على قريـش الظالمة.

قدم عمر المدينة وأخذ ينشر الإسلام بها إلى أن قـدم رسـول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان عضده وعودته فـي تأسـيس دولـة الإسـلام، وشارك معه في جميع غزواته، وكان قريبا وإنما من رسـول الله صلـى الله عليه وسلم.

تزوج الرسول عليه السلام من السيدة حفصة ابنة عمر وزادت بذلـك مكانة عمر عند رسول الله، وكان محبا لرسول الله إلى درجة أن رفـض أن يصدق خبر وفاته، وتهدد الناس بالعقاب أن هم قالوا بذلك.

كان عمر أحد الثلاثة الذين ذهبوا إلى سقيفة بن ساعده و استطاع بحنكته أن يحسم الموقف لصالح أبي بكر رضى الله عنه، وأصبح من أقرب المقربين إلى خليفة رسول الله شارك معه في قتال المرتدين، ويشارك معه في أعداد الجيوش التي ذهبت إلى فارس والشام، ووقف معه ناصحا ومشيرا حتى كان سنده القريب ودعامته القوية يرجع إليه في الملحات ويستشيره في كل الأمور، وينفذ رأيه أحيانا ولو كان مخالفا لرأي الخليفة نفسه.

خلافته :

لما أحس أبو بكر رضى الله عنه بدنو أجله رأى أن خير من يعهد إليه بخلافته هو عمر بن الخطاب، لما عرف فيه من الإخلاص والإيمان والشرف والقوة، واستشار أبو يكر كبار الصحابة فلم يجد عندهم مانعا من توليته فاستدعى عثمان بن عفان، وأملي عليه كتابا يعهد بالأمر بعده فيه لعمر بن الخطاب هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن بها الكافر، ويتقي الفاجر، أني قد استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن بر وعدل، فذلك علمي به، ورأيي به، وإن جار وبدل، فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما كسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون: فلما مات أبو بكر كان إجماع الصحابة والمسلمين كاملا على أن الخليفة من بعده هو عمر بن الخطاب.

استكمال فتح العراق:

ذكرنا أن المثنى بن حارثة الشيباني بعج أن تركه خالد بن الوليد فـــي جبهة العراق وأتجه إلى الشام، قام بمحاربة الفرس لكنه احتاج إلى المددَ فعـاد إلى المدينة ليتشاور مع الصديق فوجده على فراش الموت، ومات رضـــي الله عنه بعد أن أوصى عمر بن الخطاب بالاهتمام بالمثنى وأن يندب الناس معه.

ويروى الطبري أنه قال له: أني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فـإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى. وأن تأخرت إلى الليـــل فــلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وأن عظمـــت مـــن أمر دينكم [٢١١]. وبعد وفاة الصديق – رضى الله عنه – ندب عمـــر النـــاس ليقوموا مع المثنى وذلك قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات فيها أبو بكـــر، وظل يندب الناس ثلاثة أيام دون جدوى يندبهم كل يوم، فلا يندب أحـــد إلـــى فارس من أكره الوجود إليهم وأثقلها عليهم وذلك لشدة ســـلطانهم وشـــوكهم وعزتهم وقهرهم الأمم [٢١٢].

وخطب المثنى تشجيعا لهم وحاول إزالة هيبة الفرس من قلوبهم إلـــى أن تقدم أبو عبيدة بن مسعود وبعض الناس، ولى عمر القيادة لأبي عبيدة بـــن مسعود وأرسله في ألف من أهل المدينة وما حولها، وجعل له الإمارة لســـبقه إلى الإجابة لنداء الجهاد واستطاع مع المثنى إحراز بعض الانتصارات علـــى

---

[٢١١] الطبري ج٣ ص٤١٤.

[٢١٢] نفس المصدر ج٣ ص٤٤٤.

الفرس ثم حشد له الفرس حشدا قويا التقى معه في معركـــة تســمى معركــة الجسر وكان يقود الفرس فيها بهمن جاذويه، وفي هذه المعركــة ســقط أبــو عبيدة شهيدا تحت أرجل الفيلة بعد أن كان يحرز النصر على الفرس، ونتيجـة لذلك اضطرت صفوف المسلمين، وجرح المثنى جرحا شديدا، وسقط النـــاس في نهر الفرات وحلت بهم هزيمة شديدة، وتشتت جيش المســـلمين، ويقــول الطبري: هلك يومئذ أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقى ثلاثـة آلاف [٢١٣]، وكان يمكن أن تكـــون الهزيمـــة أشــد لــولا حــدوث بعــض الاضطرابات الداخلية في بلاد فارس، وبلغت هذه الأخبار عمر بن الخطـــاب رضى الله عنه فنهض لرفع الروح المعنوية والهمم وأمد المثنى بجيش يقــوده جرير بن عبد الله الذي أجتمع مع المثنى بن حارثه والتقـــى المســلمون مــع الفرس في معركة قاسية أنزلوا فيها بالجيش الفارسي وقتلــوا قــائده مــهران وثأروا بذلك لهزيمة يوم الجسر. وعرفت هذه المعركة باسم معركة البويب.

القادسية :

تنبهت الفرس لخطورة المسلمين، وحشدت كل قواهـــا للدفـــاع عــن نفسها ضد المسلمين فنبذوا خلافاتهم الداخلية وولوا أمورهم يزدجرد الثـــالث الذي ولى قيادة جيوشه لأشهر قادته رستم، وتحرك رستم إلى القادســـية فـــي قوات كبيرة، وعلم بذلك جرير بن عبد الله والمثنى بن حارثـــه فكتبـــا إلـــى الخليفة عمر بن الخطاب يستمدانه ويطلبان المدد.

---

[٢١٣] الطبري ص ٤٠٤ – ٤٥٥.

أهتم عمر بن الخطاب بأمر العراق اهتماما واضحا، ونـــدب النـــاس للجهاد فتقاطروا وكان قد ذهب خوفهم من الفرس، وليس أدل على ذلك مـــن قول المثنى الذي ينقله لنا الطبري: قد قاتلت العرب والعجـــم فـــي الجاهليـــة والإسلام والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد على مـــن ألـــف مـــن العرب، ولمائة من العرب اليوم أشد على من ألف من العجم (٢١٤). وأســـتعد عمر بن الخطاب بالسير بنفسه على رأس الناس لقتال الفرس، لكن الصحابـــة تشاوروا ورأوا أنه من الخير أن يرسل واحدا من صحابـــة رســـول الله وأن يبقى عمر بالمدينة (٢١٥). وأخيرا أستقر الرأي على أن يعـــهد بالقيـــادة إلـــى الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص مع جيش كبير أختلف الناس في عدده.

اشتبك الجيشان في آخر سنة خمس عشرة، ودارت المعركة يومـــان وليلة وانتهت بهزيمة الفرس، وقتل رستم وولـــى رجالـــه هـــاربين وتعتـــبر القادسية من المواقع الهامة في تاريخ الفتح الإسلامي للعراق لأنها أدت إلـــى انتصارات أخرى لاحقة، وفتحت للمسلمين أبواب فارس وســـقطت المدائـــن عاصمة الفرس، وهرب منها يزدجرد إلى حلوان، ودخل المسلمون المدائـــن، ونزل سعد بن أبي وقاص قصر كسرى ووجد بها كما هائلا من الغنـــائم (٢١٦) ثم أنه التقى بعد ذلك مع الفرس في معركة ثانية عند جلولاء فـــي عـــام ١٦ هجرية أو ١٧ على ما تقول بعض المصادر وأنتصر فيها انتصـــارا كبـــيرا وقتلت أعدادا ضخمة من القوات الفارسية، ولما بلغت الهزيمة يزدجرد ســـار

---

٢١٤ نفس المصدر ج٤ ص٤٨١ ، ابن الأثير ج٢ ص٣٠٩.

٢١٥ نفس المصدر ج٤ ص٤٨١ ، ابن الأثير ج٢ ص٣٠٩.

٢١٦ أقرا الوصف المثير لهذه المعركة عند ابن الأثير ج٢ ص٣٠٩ وما بعدها.

من حلوان إلى الري، وقدم القعقاع بن عمر على رأس جيش المسلمين ودخـل حلوان، ثم بعد ذلك ارتحل مع سعد بن أبي وقاص إلى الكوفة (٢١٧).

نهـــا ونـــد أو فتح الفتوح :

لم ييأس الفرس رغم هذه الهزائم المتكررة وأرسلوا في جمع الجنـــود من جميع الجهات، ومن أصبهان تجمعوا في جموع كثيفـــة وخرجـــوا إلـــى نهاوند بقيادة مروان شاه بن هرمز، وكان هدفه طرد المسلمين مـــن الكوفـــة والبصرة، ويقول ابن الأثير أن الفرس اجتمعت على الفيرزان حوالـــي ١٥٠ ألفا، وحينما كتب سعد بن أبن وقاص إلى عمـــر بذلـــك استشـــار الصحابـــة فأشاروا عليه أن يكتب أيضا إلى المسلمين في كل مكان لندبـــهم عـــن أهـــل العراق، ثم عاد سعد بن أبي وقاص إلى المدينة للقاء عمر فأبقاه معه واختـــار النعمان بن مقرن لقيادة المسلمين وكان عدد جيشه في حدود الثلاثيـــن ألفـــا، ودارت معركة شديدة استشهد فيها النعمان بن مقرن وتولى بعده حذيفـــة بـــن اليمان وفتح الله على المسلمين وانتصروا انتصارا ساحقا على الفرس، ودخـل المسلمون نهاوند واستولوا على ما بها من الأموال والذخائر.

وكانت هذه المعركة هي آخر المعارك الهامة في فتح فـــارس ولـــم يجتمع للفرس بعد ذلك اجتماع، وملك المسلمون بلادهم (٢١٨).

---

٢١٧ ابن الأثير ج٤ ص٣٦١.

٢١٨ ابن الأثير ج٣ ص٢ وما بعدها.

استكمال فتح الشام:

أشرنا إلى موقعة أجنادين الهامة، عام ١٣ هجريـــة، وكيـف حقـق المسلمون فيها نصرا كبيرا أوقع الرعب والهلع في أوصال هرقل إمـبراطور الروم في الوقت التي زحفت فيه القوات الإسلامية للاستيلاء على فحل وبيـان وبعض المدن الأخرى.

فتح دمشق :

نزلت الجيش الإسلامية حول مدينة دمشق ونزل خالد بقواتـه علـى الباب الشرقي ونزل أبو عبيدة على باب الجابية، وأمر خالد بن يزيد بن أبـي سفيان وأصحابه أن ينزلوا على الباب الصغير، وشرحبيل بن حسنة وجنـوده على توما، وأمر عمرو بن العاص أن ينزل على باب الفراديس، وقيس بـن هبيرة إلى الباب الفرج، أما ضرار بن الأزور في ألف من أصحابه للطـواف حول المدينة [٢١٩].

دارت المناوشات بين المهاجرين والمدافعين، وكانت هناك بطـولات عظيمة وخرج المدافعون من باب توما يقاتلون شرحبيل بن حسنة، كما أنـهم ناوشوا المسلين على جمع الجهات بعد ذلك إلى دمشق حتى طلبـوا الصلـح، وتفاوضوا مع أبو عبيدة ابن الجراح بينما دخل خالد عنوة من الباب شـرقي ووضع السيف في الروم إلى أن وصل إلى كنيسة مريم وهناك التقى الجيشـان جيش خالد وأبي عبيدة وكلاهما متمسك بموقفه خالد فتح المدينة قسرا وأبـو عبيدة فتحها صلحا وعرضا الأمر على صحابة رسول الله - فأقروا موقـف

---

[٢١٩] الواقدي: فتوح الشام ج١ ص٧٠ الطبري ج٢ ص٢٩٣.

أبي عبيدة لئلا يقال بأن المسلمين يغدرون في عهدهم ولأنهم في كـل شـيء وبعده دعاة مبادئ وأصحاب رسالة [٢٢٠].

فتح حمص :

بعد دمشق تساقطت مدن الشام الأخرى، وقام خالد بن الوليـد بفتـح حمص ندبه إليها أبو عبيدة بن الجراح، كما توجـه شـخصيا إلـى بعلبـك واستأمن بعد ذلك أهل قنسرين.

حاصر خالد حمص وكانت مدينة الأسوار، ووافته هنـاك الجيـوش الإسلامية ومعها أبو عبيدة بن الجراح، ودارت المفاوضات مع أهلها علـى أن يعطوا المسلمين مؤونة خمسة أيام، ويرحل عنها المسلمون إلى مدن غيرهـا، وكان أبو عبيدة قد رأى ذلك لكي لا يطول حصار المدينة على ان يعود إليـها بعد أن يكون قد قل زادها، وتفرق أهلها ورحل المسـلمون ففتحـوا مدينـة الرستن وعادوا إلى حصار حمص، وقاومت المدينة مقاومة شديدة واستشـهد من المسلمين على أبوابها عكرمة بن أبي جهل، وفي صباح اليوم التالي عمـد المسلمون إلى الحيلة فرأى خالد أن ينهزم المسلمون قليلا ثم إذا خرج الـروم من أسوارهم عاودوهم بالهجوم، ونجحت الخطة والتحم المسلمون والروم فـي معركة ضارية أبدى فيها جنود الله بسالة رائعة مكنتهم مـن الانتصـار، ثـم اجتمعت رؤوس المدينة من الرهبان والقساوسة على مصالحة أبـي عبيـدة، وقبل أبو عبيدة منهم الصلح، ورفض أن يدخل المدينة إكراما لأهلها لأنه كـان يعلم باستعدادات هرقل لمعركة كبيرة، وقال لهم: لست ادخل مدينتكـم حتـى نرى ما يكون بيننا وبين هرقل. و أراد أهل حمـص أن يكرمـوا المسـلمين

---

[٢٢٠] انظر المصدر السابق ج١ ص٧٩ – ٨٠.

بالإقامة والعلوفة فنهاهم الأمير عبيدة عن ذلك، ولم يدخـل المسـلمون إلـى حمص إلا بعد معركة اليرموك [٢٢١].

معركة اليرموك :

لا شك أن هذه الانتصارات المذهلة التي حققـها المسـلمون ذهبـت بصواب هرقل الروم ودفعته إلى التفكير في معركة فاصلة فعمل على حشـد ما أمكن من القوات واستجاب الروم لندائه وبدأت تصله الوفود حتـى يقـال: أنه لم تمضي عدة أيام حتى صار أول جيشه عنده بإنطاكيـة وآخرهـا فـي رومية الكبرى، وأنه بعث جيشا إلى قيسارية وجيشا آخر إلى بيت المقـدس، وأتاه ما هان الأرمني وقد جمع من قومه مالا يجمعه أحد من أصحاب الملـك هرقل وعند ذلك قسم قواته إلى أربعة جيوش وجعل القيادة العليا إلى ماهـان ملك الأرمن، أما قادة الجيوش فكانوا: قناطير وجرجير والديرجـات قوريـن وأوصاهم بأن أعملوا أنه ليس بينكم وبين العرب إلا هذه الواقعة[٢٢٢].

كان أبو عبيدة مقيما بالجابية عندما وصلت الأخبار بتحـرك الـروم فاستشار أصحابه وقرروا الرحيل إلى اليرموك لمناسبتها للمعركة وقربها مـن بلاد الحجاز. والتقى الطرفان هناك على نهر اليرموك وظلوا أياما لا يقـاتلون ولا يثيرون حربا.

وجدير بالذكر اشتراك العرب المتنصرة من الغساسنة إلـى جـانب الروم في هذه المعركة وكان على رأسهم جبلة بن الأيهم في ستين ألفـا مـن

---

[٢٢١] الواقدي : المصدر السابق ج٢ ص٢٠٧.

[٢٢٢] الواقدي : فتوح الشام ج٢ ص٢٠٧.

أصحابه وقدمهم ماهان للقاء العرب أولا وجرت مناوشات أولية بين العرب المتنصرة والمسلمين انتصر فيها المسلمون. وكتب أبو عبيدة إلى عمر يستمده فأمدهم بحوالي سبعة آلاف مقاتل من اليمن وحضر موت ومكة والطائف. وكان عدد المسلمين في المعركة حوالي ٤٠ ألفا.

جرت بعض المفاوضات بين العرب والروم ثم بدأت المبارزة، وأبدى المسلمون شجاعة باهرة، وفقدوا بعض الشهداء، وأخيرا التحم الفريقان في معركة خالدة أبدى فيها كل طرف شجاعة باسلة وهمية عالية، وكان المسلمون أصدق نية وأعظم همة ولذلك رغم قتلهم وكثرة عدوهم إلا أنهم تمكنوا من إيقاع الهزيمة القاسية بالروم وبادوا معظم الجيش البيزنطي، وساعد على الهزيمة أن العرب المنتصرة بعد أن عاينوا صبر العرب المسلمين وجلدهم، تغلبت عليهم عواطف القرابة وروابط الدم بينهم وبين العرب فانحاز جبلة بن الأيهم إلى أبناء عمه من الأنصار.

ولقد كانت تلك الهزيمة القاسية سببا في أن يرحل هرقل إلى القسطنطينية فلما جاوز الدرب الذي يصل أرض الشام بأرض بيزنطة قال: " عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا للعدو" [٢٢٣].

فتح بيت المقدس :

عاد أبو عبيدة إلى دمشق بعد اليرموك وكتب إلى الخليفة بالبشارة والنصر ويسأله النصيحة أين يتوجه فكتب إليه بالتوجه إلى بيت المقدس، فعمد أبو عبيدة إلى جيوش المسلمين يوجهها إلى هناك فعقد خالد بن

---

[٢٢٣] عبد العزيز سالم : تاريخ العرب ج٢ ص ٢٠٧.

الوليد،وليزيد بن أبي سفيان ثم رحل بن حسنة وباقي القادة المسـلمين الـذي تقاطروا وحاصروا المدينة وظلوا حولها ثلاثة أيام دون قتـال، وأهـل بيـت المقدس قد حصنوا مدينتهم وأسوارهم حتى قال بعض المسلمين: ما نزلنا ببلـد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدة من بيت المقدس (٢٢٤).

ظل حصار المسلمين لبيت المقدس أربعة أشهر كاملـة دار خلالـها قتال شديدا ودافع أهل المدينة عنها دفاعا باسلا، والمسلمون أيضا متحملـون قسوة البرد والثلج والمطر، ثم رفض أهل المدينة تسليمها على أن يكون ذلـك لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمـر فاستشـار أصحابه فأشار عليه بن أبي طالب رضى الله عنه بالذهاب لكي يحقن دمـاء المسلمين ولكي يخفف عنهم مقاومة المدينة فاستخلفه عمر على المدينة وقصد بلاد الشام حتى وصل إلى بيت المقدس، والتقى بالمسلمين هناك، وصلى بـهم، وأذن بلال رضى الله عنه للصلاة فشجعت قلوب المسـلمين وهـاجت بـهم ذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد ذلك تقدم عمر بيـت المقـدس فصالح أهلها، وظل بالمدينة عشرة أيام ثم عاد بعد ذلك إلى المدينة (٢٢٥).

وبعد بيت المقدس تم للمسلمين فتح سواحل الشـام الجنوبيـة، وأتـم عمرو بن العاص فتح باقي فلسطين.

---

٢٢٤ الواقدي : المصدر السابق ج١ ص٥٣٠.

٢٢٥ الواقدي : نفس المصدر ج١ ص ٢٤٤. وأقرا أيضا عن تسليم المدينة عند الطبري ج٥ ص٣٤٩.

فتح مصر :

انتهز عمرو بن العاص مقدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى بلاد الشام للمرة الثالثة في حدود عام ١٨ هجرية.

واستأذنه في التوجه إلى البلاد المصرية لفتحها، وحبب إليه ذلك على أساس إنها ضرورة حتمية المسلمين في بلاد الشام وانك أن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم [٢٢٦] فتردد الخليفة أن يدفع بالمسلمين إلى مغبة غير مأمونة لإشفاقه عليهم بعد تعب القتال في بلاد الشام، لكن عمرو مازال به حتى أقنعه فعقد له على أربعة آلاف مقاتل فاتجه إلى مصر، وكانت العريش أول مدينة مصرية افتتحها بعد حصار دام شهرا ونصف الشهر وفتحت في المحرم من عام ٢١٩ (كانون الثاني ٦٤٠) [٢٢٧].

ويروي المؤرخون أن عمر بن الخطاب ربما قد عدل عن موافقته فكتب إلى عمرو كتابا يأمره فيه بالعودة، وكانت الكتابة إلى عمرو مدعاة لخوفه من أن يكون فيه أمرا بالعودة، فأهمل الرسول فترة حتى بلغ العريش، وحين فتح الكتاب طالع فيه أمر عمر بأن ينصرف إذا لم يكن قد تجاوز حدود مصر [٢٢٨].

---

[٢٢٦] حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج١ ص ٢٣٤.

[٢٢٧] محمد أسعد طلس : الخلفاء الراشدون ص ١٤٢.

[٢٢٨] عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ج٢ ص ٢١٣.

إليه مددا من حوالي ٤ الاف مقاتل.

حصن بابليون :

كان حصن بابليون من أهم المواقع في الفتح العربي لمصـــر، ولقـد استغرق حصاره ستة اشهر، ثم بدأت المفاوضات، ورضى المقوقـس بدفـع الجزية للمسلمين رغم اعتراض هرقل قيصر الروم وهناك من المؤرخين مـن يرى أن الحصن قد فتح قسرا (٢٢٩).

فتح الإسكندرية :

كانت الإسكندرية إحدى مدن الإمبراطورية البيزنطية الهامة، كما أنها كانت عاصمة الديار المصرية، ولذلك شحنها الروم بالجند والأمتعة، وتوجـه إليها عمرو بن العاص بعد أن افتتح الحصون التي قابلها في الطريـق إلـى المدينة، وكان حصن الكربون آخر حلقة في سلسلة الحصون التي تربط مـا بين بابليون والإسكندرية ولم يكن في مناعة باقي الحصون الأخرى لكنه كـان بالنسبة للرومان الوقفة الأخيرة قبل الإسكندرية أو خط الدفاع قبـل الأخـير، ولذلك استبسل الروم في الدفاع عنه، وكانت هناك معركة حامية أصيب فيـها كثير من المسلمين ولكنهم صبروا حتى أمكنهم الله رقـاب أعدائـهم الذيـن تقهقروا إلى الإسكندرية، وسقط الكثير في يد العرب، ومن ثم فتـح الطريـق إلى حاضرة البلاد، وكانت مدينة حصينة، لها أسوار محكمة البناء ويحميـها

---

٢٢٩ انظر المصدر السابق ص ٢١٦ – ٢١٧ وانظر مقدمه بن عبد الحكم في فتوح أفريقيا والأندلس ص ٧.

البحر من الشمال والترع من الجنوب والغرب وتمتـــد مـــن أســـفلها بحـــيرة مريوط، أما الجانب البري من الناحية الشرقية فكانت تحرسه أســـوار عاليـــة مجهزة، وكانت المدينة موفورة العدد والعدة واتصالها بالبحر يمنحها فرصـــة التموين، ولذلك رأى عمرو أن حصارها سيطول، وان الاستيلاء عليها ليـــس من السهولة بمكان ولذلك ترك فرقة من حبشه لحصارها، ومضى علـــى رأس الباقي يفتح أقاليم الوجه البحري [٢٣٠]، ويجمع المؤرخون على أن الإسكندرية قد سلمت صلحا بعد أن حاصروها عمرو بن العاص حوالي أربعـــة عشـــر شهرا، وان ذلك الفتح قد تم في أول المحرم من السنة الأولى بعد العشـــرين من الهجرة، وان الذي ساعد على ذلك هو موت الإمبراطور هرقـــل، وقيـــام المنازعات الدينية في القسطنطينية من أجل العريش مما اضطر البـــيزنطيين إلى العمل على إنهاء الحرب والتفرغ لمشاكلهم الداخلية وقد قـــام البطريـــق قيرس. بمفاوضة عمرو وتم الاتفاق بينهما على شروط صلـــح الإســـكندرية [٢٣١].

فتح برقة :

اتجه عمرو بن العاص بعد ان اطمأن على فتوحاته في مصـــر إلـــى الغرب من الإسكندرية حتى وصل إلى برقة فاستولى عليها وفـــرض علـــى أهلها الجزية ثم واصل زحفه إلى طرابلس حتى وصلها، في سنة ٢٢ هجريـــة أو ٢٣، فحاصرها ثم دخلها عنوة فهرب الروم منها في مراكبهم، ثم اســـتولى عمرو بعد ذلك على مدينة سبرت [٢٣٢]وأرسل قائدة بسر بن أبي أرطأة فافتتح

---

[٢٣٠] عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ج٢ ص ٢١٨.

[٢٣١] نفس المصدر ج٢ ص٢١٩ وانظر أيضا إبراهيم على شعوط : عصر الفتوحات الإسلامية ص ١١١.

[٢٣٢] ايمن عبد الحكم : فتوح افريقيه والأندلس ص ٣١.

واحة ودان، وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في التوغـــل علـــى برقة يدعوا أهلها إلى الإسلام (٢٣٣).

تدوين الدواوين

لم يمض أكثر من ربع قرن من الزمان على هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة ابتعادا عن إيذاء القريشيين له ولأصحابه من المســـلمين، حتى رفرف علم الإسلام على مساحات من الأرض لم تكن تخطر ببال أكـــثر الناس تفاؤلا لان رايته الكريمة أصبحت تظلل ارض فارس والعراق والشـــام ومصر وجزء من أفريقية بالإضافة إلى شبه الجزيرة العربية، وأستلزم ذلـــك ولا شك تطورا في نظام الإدارة، وكان لابد من استحداث بعـــض الأســـاليب التي تتواءم وهذه التغيرات الكبيرة، وكان الديوان وإدخالـــه ضمـــن النظـــام الإداري الإسلامي علامة من العلامات المميزة لعصر الخليفة الراشد عمـــر بن الخطاب رضى الله عنه.

والديوان وجمعها دواوين كلمة فارسية كانت تعني فـــي أول الأمـــر السجل الذي يكتب فيه ما يختص بشئون الإدارة، ثم أصبحت تدل على المكان الذي يعمل فيه الكتاب، وهم رجال مدنيون من أرباب الأقلام (٢٣٤).

ولقد لجأ عمر - رضى الله عنه - إلى استعمال هذه الدواوين حينمـــا كثرت الغنائم وانهالت الأموال على الخليفة بصورة لم تكن متوقعـــة فأشـــار

---

[٢٣٣] عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ج٢ ص ٢٢٣.

[٢٣٤] عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٣٤.

عليه بعض الناس بما يفعله الأكاسرة والقياصرة من تدوين هذه الأموال في الدواوين [٢٣٥] وأهم ما ظهر منها على عهد عمر هو :

ديوان العطاء :

وهو الديوان الذي يسجل فيه كل من يستحق العطاء من العرب ومقدار ما يستحقه كل فرد منهم وتم ترتيب الناس في هذا الديوان على أساس قرابتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان بنو هاشم أول الناس في القرابة ثم الأقرب فالأقرب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا تساوى الناس في القرابة قدم أقربهم إلى الإسلام. ثم فرض لأهل الديوان ففضل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض، فبدأ بمن شهد بدار من المهاجرين والأنصار ثم لمن شهد ما بعد بدر حتى الحديبية، ولمن حضر الوقائع بعد ذلك فارس والشام [٢٣٦].

وكان عمر لا يفرض للصبي حتى يفطم، وحينما أحس بخطورة ذلك فرض لكل مولود في الإسلام.

ديوان الجند :

كان ديوان العطاء ديوانا عاما يشمل أعطيات كل العرب، أما ديوان الجند اختص بالمقاتلة من المسلمين فقط وسار الترتيب فيه على نفس الأسس تتميز كل قبيلة عن غيرها وكل جنس عن غيره، وكان للديوان فروع وأقسام بعضها في المدينة وبعضها في الأمصار.

---

[٢٣٥] حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج١ ص ٤٤٥.

[٢٣٦] عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ج٢ ص٢٥٠.

ديوان الخراج :

ويمكن أن نسميه ببيت مال المسلمين حيث كانت تأتيه موارد الدولـــة الإسلامية وخاصة خراج الأرض الزراعية التي تركت في أيـــدي أصحابـــها لزراعتها ودفع خراجها إلى المسلمين ولقد قام عمرُ بـــن الخطـــاب بتعييـــن العمال على الولايات المختلفة ليقوموا بجمع الخراج.

استخدم المسلمون في هذه الدواوين كتبه من أهل البـــلاد المفتوحـــة، وسمحوا لهم باستخدام لغتهم ونظمهم وظل الأمر كذلك إلى أن تم تعريب هـذه الدواوين على عهد عبد الملك بن مروان.

القضاء :

يعتبر القضاء من أهم الخطط الإسلامية على الإطـــلاق كمـــا كـــان القاضي هو الرجل الثاني بعد الخليفة في معظم فترات العصر الذهبي لتـــاريخ المسلمين ولقد تولاه رسول الله بنفسه بحكم أنه صاحب الشرع، أما على عـــهد أبي بكر فانه كان بنفسه و أحيانا يترك ذلك لعمر بن الخطاب أما على عـــهد عمر بن الخطاب فإن الدولة قد اتسعت اتساعا كبيرا ولم يعد في وسعه الجمـــع بين المهمتين فبدا يعهد بالقضاء إلى كبار الصحابة وجعل القضـــاة مســـتقلين عن الأمراء، وينوبون عن الخليفة في الفصل بين الناس في الخصومات فولى أبا الدرداء قضاء المدينة، وولى شريحا قضاء الكوفة، وأبا موسى الأشـــعري قضاء البصرة، وقيص بن أبي العاص قضاء مصر، فكان رضـــى الله عنـــه أول من ولى قضاه مستقلين في الولايات الإسلامية، وفوضهم فيه (٢٣٧) وكتب

٢٣٧ أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٦.

عمر إلى أبي موسى الأشعري كتابا جامعا في أحكام القضاء يبين فيه الأسس والقواعد التي يجب الالتزام بها، ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر التنظيم القضائي وأصوله.

تأسيس المدن :

مما يذكر لعهد عمر بن الخطاب أيضا سماحه المسلمين ببناء المدن والإقامة فيها في الأقاليم المفتوحة فقام سعد بن أبي وقاص ببناء البصرة والكوفة وأتخذهما أولا من الحطب والأعشاب وحينما حدث حريق أفاق سمح له عمر بالبناء بالطوب وإذا كانت هذه المدن تعد قواعد عسكرية في بدايتها هدفها ان تكون موطنا للعرب حتى لا يختلطوا في أهل البلاد المفتوحة إلا أن التاريخ الإسلامي يشهد بان المدن الإسلامية قد لعبت دورا في تعريب المنطقة التي قامت بها ونشر الإسلام بين أهلها، وليس أدل على هذا الدور مما لعبته الفسطاط في مصر والقيروان وتونس في شمال أفريقية.

وفاة عمر بن الخطاب :

كان عمر - رضى الله عنه - يمثل رمز الأمة الإسلامية الناهضـــــة، والتي كسرت جناح أكبر دولتين في التاريخ وهما الفـــرس والـــروم، ولذلـــك امتلأت قلوب بعض أهلها بالحقد عليه، ومن ثم عملوا على اغتياله والتخلــص منه، ولقد قام أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة منُ أبي شعبة بطـــن عمـــر - رضى الله عنه - في صلاة الفجر، وكان سببا في وفاة الخليفة في عــــام ٢٣ هجرية، ولقد تحدثت كتب التاريخ عن وجود مؤامرة مدبرة لقتل عمـــر بيـــن غلام الغيرة وبين الهرمزان الفارسي واحد الفرس بفـــــيروز وكـــان خادمـــا للهرمزان. وهناك من يتهم كعب الأحبـــار بـــالعلم بـــالمؤامرة أو الاشـــتراك فيها[٢٣٨] أما عمر رضى الله عنه فإنه حين أفاق من طعنته سأل عـــن قاتلـــه فقيل له أنه غلام المغيرة بن شعبة فحمد الله أنه لم يقتله رجل سجد لله ســـجده يحاجه بها عند الله[٢٣٩] .

عهد عمر بالخلافة :

رفض عمر ابن الخطاب أن يتحمل أمانة الناس حيا وميتا، ولذلك لـــم يشأ أن يوصى لأحد بعينه من بعده وكان إمام عمر ما فعلــــه رســـول الله - صلى الله عليه وسلم - حين ترك الناس دون أن يوصي، وما فعله الصديـــق - رضى الله عنه - حين أوصى بعمر بن الخطاب وأراد ان يتبع طريقا وســـطا فعهد إلى ستة من الصحابة هم كبار أصحاب رسول الله وأحق الناس بـــالأمر من بعده وهم على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبـــي وقـــاص،

---

[٢٣٨] انظر في ذلك الشيخ محمد الخضري : محاضرات في تاريخ الدولة الإسلامية ج٢ ص٣١ - ٣٣ . وإبراهيم على شعوط : عصر الفتوحات الإسلامية ص ١٢٧ وما بعدها .
[٢٣٩] نفس المصدرين السابقين .

وطلحة والزبير، وأوصاهم أن يجتمعوا بعد موته ثلاثة أيـــام يختـــارون مـــن بينهم واحدا لخلافة المسلمين. وجعل معهم عبد الله بن عمر للمشورة وليـــس له من الأمر شئ. فإذا تساووا في الأصوات أخذوا برأي عبد الله بن عمـــر، فإن لم يرضوا بذلك فيأخذون برأي من كان فيهم عبد الرحمن بن عوف.

اجتمع هؤلاء النفر ماعدا طلحة، وضع هؤلاء ثقتهم في عبد الرحمـــن بن عوف بعد أن استوثقوا أن لا يخص ذا رحـــم لرحمـــه، ولا يـــألوا علـــى المسلمين وبدأ عبد الرحمن في مشاورة الصحابة فوجدهم يجمعون على أحـــد رجلين. أما علي أو عثمان، فبايع لعثمان رضى الله عنه والذي أصبح ثـــالث الخلفاء الراشدين.

عثمان بن عفان رضى الله عنه
(٢٤ هـ - ٣٥ هـ) (٦٤٤ م - ٦٥٦ م)

مما لاشك فيه أننا هنا أمام فترة حكم وشخصية تركت أثرها في تاريخ الإسلام والمسلمين إلى يومنا هذا.

نحن أمام إحدى الشخصيات المبشرة بالجنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن أمام فترة حكمت انتهت بأول مأساة كبرى في تاريخ الإسلام والمسلمين عرفت لشدتها بالفتنة الكبرى، ومازالت آثارها في حياة الناس إلى يومنا هذا.

وكما أكدت وما زال هذا رأيي ان المؤرخ ليس حكما ولا قاضيا ومن ثم عليه التزام الحيدة والتقيد بالأمانة فيما يعرض وفيما يقدم للناس لكن المؤرخ الحق مطالب أيضا بالسعي للوصول إلى الحقيقة والالتزام بها مهما كانت قسوتها ومرارتها.

نحن أمام خليفة أو أن شئت صحابيا جليلا ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجا لابنته روقيه ومن بعدها لابنته أم كلثوم وقال عليه السلام بعد موت أم كلثوم لو كان عندنا ثالثة لزوجناكها.

ونحن أمام صحابي جليل مدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ومن السابقين الأولين إلى الإسلام. ومن له أياد بيضاء لا تنكر في سبيل الدعوة ونصره المؤمنين.

ونحن أيضا أمام شخصية ثار عليها بعض المسلمين حتى انتهى بـــهم الأمر إلى قتله وهو بصحن داره يقرأ القرآن، وقام الذين قتلوه باتهامه بـالكثير من الأشياء التي تبرر لهم القيام بهذه الفعلة الشنيعة. وليس الأمر هينـــا هنـــا لاستجلاء الحقيقة، ولكنني أحيل طلابي خاصة والقراء عامة إلى ذلك الكتـــاب القيم الذي ألفه الشيخ أبو بكر بن العربي الأشـــبيلي وأســـماه العواصـــم مـــن القواصم وهو كتاب ضخم لم يتح لعامة المسلمين الاطلاع عليه اللهم ألا تلـــك الفصل التي نشرها الشيخ محب الدين الخطيب حول مواقف صحابي رســـول الله صلى الله عليه وسلم من بعض القضايا التي تعرضوا لها أو عاصروهـــا وأن كنت أنبه الجميع إلى ان الكتاب أكبر بكثير من الجزء الذي نشره الشـــيخ محب الخطيب رحمة الله عليه.

من هو الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ؟

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن عبد شمس بن أمية بن عبد منـــاف الأموي القرشي، يلتقي نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند جدهـــم عبد مناف. وأمه هي أروى بنت كريز بن ربيعه بن حبيب بن عبد شمس بـــن عبد مناف ، وقد ولد في ألسنه الخامسة لميلاد رســـول الله صلـــى الله عليـــه وسلم تقريبا، وكان أبوه عفان من أثرياء قريش وعقلائها. فنشـــأ ابنـــه علـــى الأخلاق الكريمة ، وتعلم القراءة والكتابة، وروى الشعر وحفظ انساب قومـــه، وأخبارها وسيرها.

كان عثمان – رضى الله عنه – من أوائل من استجاب إلـــى دعـــوة رسول الله صلى الله عليه وسم، وتكاد تجمع الروايات على أن أبو بكـــر رضـــى الله عنه هو الذي دعا عثمان إلى الإسلام فاستجاب له. يقول ابن إســـحاق: أن عثمان رضى الله عنه أسلم بدعاء أبي بكر إلى الإسلام، وكان أبو بكر رجـــلا

مؤلفا لقومه محبا سهلا وكان رجال قومه يأتونه وتألفونه، فلما أسلم لأظهر إسلامه، وجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشي مجاله، ويستمع إليه فأسلم بدعائه فيما بلغني عثمان بن عفان، والزبير بين العوام،وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا فأسلموا وصلوا (٢٣٠).

سرعان ما أصبح عثمان بن عفان مقربا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنه زوجه بن ابنته رقية وأصبح بذلك أول الصحابة في مصاهرة النبي عليه السلام.

تعرض عثمان لأذى قريش وسخريتها، وخاصة من قومه بن أمية حتى أضطر عليه السلام إلى الهجرة إلى الحبشة ومعه زوجته السيدة رقية وذلك حينما أشتد إيذاء قريش للمسلمين. وكان عثمان هو أول المهاجرين وظل هناك في الحبشة ومعه زوجته إلى أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فعادا، وهناك من يجعل عودتهما قبل الهجرة، إلى المدينة وعثمان – رضى الله عنه – بهذا هاجر الهجرتين.

سر الرسول عليه السلام بعودة عثمان وزوجته وهجرتهما إلى المدينة، وكان يدعوه إلى مجلسه ويسامره في ليله، ويهش له، وينشرح صدره بمقدمه. وقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها أنها كانت هي وحفصه عن رسول الله ذات يوم، فقال رسول الله: لو كان عندنا رجل

[٢٣٠] ابن هشام ج١ ص٢٦٨.

يحدثنا. فقالت عائشة: أبعث إلى أبو بكر فيجئ فيحدثنا؟ قالت: فسكت صلى الله عليه وسلم فقالت حفصة: أبعث أبي عمر فيجيء فيحدثنا. قالت فسكت أيضا، ثم دعا وصيفا بين يديه فساره، فإذا عثمان يستأذن، وأقبل عليه بوجهه،وناجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا (٢٣١).

وفي غزوة بدر خلفه رسول الله لتمريض زوجته السيدة رقيه التي انتقلت إلى جوار ربها وتباشير النصر يوم بدر تترى على المدينة، وعده الرسول عليه السلام من البدريين، وضرب له بهم في الغنائم، ثم زوجة من ابنته الثانية أم كلثوم، ولذلك سمي بذي النورين وهو الرجل الوحيد الذي تزوج ابنتين لنبي، وقال له النبي عليه السلام بعد أن ماتت زوجته الثانية أم كلثوم، لو كان لنا ثالثة لزوجناكها (٢٣٢) وعثمان رضى الله عنه من المبشوين بالجنة ومما يؤثر عن رسول الله قوله لكل نبي رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان (٢٣٣).

أما عن جهاده في سبيل الإسلام فمثله مثل كبار صحابة رسول الله كان لكل ميزة خاصة به. وميزة عثمان كرمه الزائد وساعده على ذلك ثراؤه أولا و عمله بالتجارة ثانيا ، فقد قام بشراء بئر رومه بما يقدر بخمسة وثلاثين ألف درهم ووهبها للمسلمين ، و جعل نصيبه منها كنصيب واحد منهم - كما أنه ابتاع مربدا كان لبعض الناس إلى جوار مسجد الرسول ، و دفع فيه مبلغا كبيرا ثم وهبه لرسول الله لكي يجعله في مسجده .

---

٢٣١ محمد أسعد طلس: الخلفاء الراشدون ص١٧١.

٢٣٢ إبراهيم شعوط : عصر الفتوحات الإسلامية ص ١٤٣.

٢٣٣ عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ج٢ ص٥٩٨.

ومن أجل أعماله التي قام بها في عهد رسول الله - صلي الله عليه و سلم تجهيزه جيش العسرة يوم غزوة تبول ، يقول عبد الرحمن بن خباب : شهدت النبي - صلي الله عليه و سلم - وهو يحث علي جيش العسرة ، فقام عثمان فقال : يا رسول الله علي مائه بعير بأحلاسها واقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: مَا على عثمان ما عمل بعد هذه[٢٣٤].

ومن أعظم مفاخر عثمان رضى الله عنه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اختيار رسول الله له ليكون سفيره إلى قريش في العام السادس من الهجرة حين خرج معتمرا ورفضت قريش دخوله مكة.

أرسل الرسول عثمانا فتغيب، وأشيع أنه قتل، وحين ذاك بايع النبي أصحابه على قتال قريش حتى الموت، وعلى ألا يفروا، وضرب رسول الله بيده قائلا، هذه يد عثمان، ونزل وحي الله بآيات مازالت تتلى وستظل إلى يوم الدين: " ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفي بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما" [٢٣٥].

واستخلف رسول الله على المدينة مرتين، الأولى حينما خرج إلى غزوة ذات الرقاع، والثانية حينما خرج إلى غزوة غطفان بذي أمر بنجد [٢٣٦].

---

[٢٣٤] محمد أسعد طلس : المصدر المذكور ص ١٧٢.

[٢٣٥] الحج : الآية ٩.

[٢٣٦] محمد علي مغربي : عثمان بن عفان ص ٢٣.

خلافته :

حينما طعن أبو لؤلؤة المجوسي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تلــك الطعنة القاتلة تردد عمر في قضية الخلافة بين رأيين:

الأول: ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لم يعهد لأحد من بعده.

الثاني: ما قام به أبو بكر من اختيار وعــهد إلـــى شــخص معيــن، واجتهد رضي الله عنه فاختار ستة من أكابر القوم بعد المداولات لا يخـــرج الناس عن واحد منهم، وطلب منهم أن يختـــاروا مـــن بينـــهم خليفـــة علـــى المسلمين، وانتهى رأي القوم بعد المداولات إلى اختيار عثمان بن عفان خليفة على المسلمين بعد عمر بن الخطاب. بويع لعثمان بالخلافة لثلاث خلون مـــن المحرم سنه أربع وعشرين للهجرة، فصلى بالمسلمين العصر، ثم ألقى خطبـــة بين فيها سياسته التي سيسير عليها، وكتب إلى عماله في الأقاليم وإلى عمـــال الخراج والصداقة، وأقر عمال عمر بن الخطاب على الأنصار التـــي كـــانوا عليها ولم يعزل منهم سوى المغيرة بن أبي شعبة، فإنه عزلـــه عـــن الكوفـــة وولاها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

الفتوح في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه :

كان ما حدث من الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفتين أبـــي بكـــر وعمر لبلاد الفرس حدثا هائلا. فإنهم مـــا كـــان يـــدور بخلدهـــم أن عـــرب الصحراء سيفتحون بلادهم، ولكن ذلك قد كان وفتحت بلادهم، وقدموا الطاعة للمسلمين ولم تكن هذه الطاعة في نظرهم إلا ريثما تواتيهم الفرصة لإرجـــاع

بلادهم، وإعادة مجدهم وقد ظنوا أن الفرصة مواتية في عهد عثمان. فانتقض كثيرا من البلاد ومنعوا ما صالحوا المسلمين عليه فعمل عثمان على إخماد حركتهم وردهم إلى الطاعة، ولم يقف عند هذا الحد: بل فتح بلادا جديدة وسارت الفتوحات الإسلامية بنشاط عظيم، واستمرت في سيرها إلى أن كانت الفتنة وقتل الخليفة.

أ – البصرة :

وأول هذا الفتوح ما قام به عبد الله بن عامر، وإلى البصرة: بعد أبي موسى الأشعري. فقد سار بجيوشه إلى مقاطعة فارس المجاورة لحكومته فأخضعها، وبدأ بعدها سلسلة حملات أخرى شرقا وشمالا كللت كلها بالنجاح فأخضع نيسابور، وسرخس ومرو، من خرسان ثم اشتبك في معركة كبرى عند خوارزم (على نهر جيحون) حطم فيها القوات الفارسية، وانتصر انتصارا عظيما، دفعه إلى التوغل في بلاد التركستان حتى مدينة بلخ وأدخلها في حوزة الإسلام، وظل أبن عامر عاما كاملا في جهاده حتى تم إخضاع القسم الشرقي من بلاد فارس للإسلام من جديد ثم رجع يسوق أمامه أربعين ألف أسير من الفرس فيما يقال، وكان ذلك سنة ٣١ هـ الموافق سنة ٦٥٢ م وفي هذه السنة ترك ابن عامر البلاد بغية الحج وأقام الأحنف بن قيس ومجاشع بن مسعود والربيع بن زياد الحارثي نوابا عنه في القيام بالقيادة وهؤلاء أرجعوا سلطة الإسلام في البلاد التي انفجرت فيها الثورة أمثال كرمان وسجستان وطخارستان، فأعادوها إلى سيرتها الأولى، ورجع سلطان الإسلام حتى هراة وكابول وغزنة، وبذلك تم القضاء على قوات الفرس وتسعى الفتوحات السابقة التي تمت في بلاد فارس وخراسان (فتوح أهل البصرة) وفي سنة ٢٢ هـ وهي السنة الثامنة من حكم عثمان " وصل إلى علم المسلمين أن بعض أتباع يزد جرد ملك الفرس قد اختلفوا معه وطاردوه

" استمروا في مطاردته حتى استقر به النوى في بيت طحان بمـــور فدخلـوا عليه وقتلوه، وبقتله زالت دولة الساسانيين، وبموته انتهى عهد الأكاسرة إلـــى الأبد.

ب – الكوفة :

وبينما كانت جيوش البصرة قائمة بإخضاع الثورة في ناحيتها، ثـارت قبائل الترك والخزر وأرمينيا في شمال العراق. فخرجـــت أذربيجـان عـن الطاعة ومنعت ما كانت قد رضيت به من الجزية فغزاها الوليد بـــن عقبـة وإلى الكوفة حتى رضيت ان تؤدي ما كان عليها في عهد عمر وسير حبيـب بن مسلمة الفهري إلى أرمينية جيشا شتت به شمل المجتمعين بها ممـــن أراد نقض الطاعة، ويروى أن الذي سار إليها إنما هو سلمان بن ربيعـه البـاهلي وأن حبيب بن مسلمة كان مددا له، وأيا ما كان فقد انتصر المســلمون وتـم إخضاع البلدين.

وفي عهد إمارة سعيد بن العاص على الكوفة – بعد الوليد – زحـف الترك والخزر يريدون إيقاف المسلمين عن التقدم فسار سعيد بجيش كبير فيـه الحسن والحسين والعبادلة الأربعة أبناء العباس، وعمر و عمرو بن العـاص والزبير، وحذيفة بن اليمان، وغيرهم من الأعلام لتأديب الخـارجين ولكنـه انهزم أمام هذه الجموع في بلاد لم يألفها المسلمون، وطلب من الخليفة إمـداده بالجيوش فأرسل عثمان نجدات من الشام بقيادة عبد الرحمن بن ربيعه، ونظـم المسلمون صفوفهم، ثم التقوا بالعدو في شمال أذربيجـان ولكـن المسـلمين انهزموا أيضا، وأصيب القائد عبد الرحمن بن ربيعه غـير ان أمثـال تلـك الهزيمة لم تؤثر في معنوية المسلمين ، ولم تدفع العدو إلى مواصلـة التقـدم لطرد المسلمين من بلادهم، لان أنباء النصر في الميادين الأخرى كـانت ذات

اثر كبير في نفوس المسلمين وأعدائهم، وتسمى ألفتوح في أرمينية وأذربيجان وطبرستان (فتوح أهل الكوفة).

ج – الشام :

كانت الإمارة على بلاد الشام قد آلت إلى مُعاوية بـن أبـي سـفيان. وبينما كان بتنظيم الأمور الداخلية. إذ فاجأهم البيزنطيون بجيش تقدموا به من آسيا الصغرى وكان لك في السنة السادسة والعشرين من الـهجرة الموافـق ٦٤٧ م.

باغت البيزنطيون معاوية ولم يكن لديه من الجيوش ما يسـتطيع بـه الوقوف لدرء هذا الخطر الفجائي بسبب استمرار السلام في الشـام طويـلا ولذلك طلب من الخليفة النجدة فأنجده بثمانية آلاف فـألحق بـالعدو هزيمـة منكرة، ثم طارده حتى تم له فتح الجزء الشرقي من آسيا الصغرى. ثـم أراد أن يصل فتوح الشام بفتوح فارس فأتجه إلى أرمنية ثم إلى طبرسـتان فـي جنوب بحر الخزر (قزوين) ثم عرج شمالا حتى وصـل تفليـس وشـواطئ البحر الأسود وأطراف آسيا الصغرى الشمالية. ووقعت بينه وبين البـيزنطيين وقائع كثيرة كان ينشبها في صيف كل سنة حتى دوخ العدو وأجلاه عن كثـير من الأراضي، وأصبح معظم آسيا الصغرى تحت سلطانه، وأطلّ على بحـر مرمرة وعلى القسطنطينية فهاجمها، ولكنها استعصت عليه. وكان ذلك فـي أواخر خلافة عثمان. فقفل راجعا إلى الشام وفي عودتها ضرب كثـيرا مـن المعاقل والحصون مثل عمورية.

د – مصر :

لما استولى المسلمون على الإسكندرية بقى كثيرا مـــن الـــروم بـــها. فانتهزوا فرصة انشغال المسلمين بالفتوح في المغـــرب. وكـــاتبوا هرقـــل – قيصر الروم – وأخبروه بقلة من عندهم من المسلمين، وطلبـــوا منـــه نجـــد. فأرسل إليهم أحد قواده في أسطول عظيم. وكان ذلك سنة ٢٥هـــ.

ويظهر أن خطة الروم كانت تنطوي على الهجوم مـــــن الســـكندرية حيث تنضم إليها قوات الروم الموجودة في أفريقية. ثم يتجهون شرقا لمقابلـــة جيشهم الثاني الذي ينقض على المسلمين من آسيا الصغرى بعد ان يتم لـــــهم الاستيلاء على مصر. ولكن عمرو بن العاص افسد عليهم خطتهم. فانه ســـار إليهم من الفسطاط وعمل على ان يتقدم الروم داخل البلاد. ونجح في خطتـــه ثم التقى بهم في جملة معارك أقنعتهم بتفوق المسلمين البرى. فولوا راجعيـــن إلى السكندرية فدخلوها وتحصنوا بها فالح عليهم عمرو حتى دخلها بالســـيف عنوة. وقتل قائد الروم وكثيرا منهم، واستولى على كثير من سفن الأســـطول. ثم هدم سور الإسكندرية–وكان قد نذر ان فتحها ليفعلن ذلك–ثم رجـــع إلـــى مصر. وكان ذلك آخر عمل جليل أداه عمرو للدولة الإسلامية وكانت مكافأتـــه عليه عزله نهائيا عن إمرة مصر. وكان ذلك من عناصر الفتنة ضد عثمان .

هـــ أفريقية:

كان من بين قادة الجيوش العربية في مصر و إفريقية عبد الـــه بـــن سعد بن أبي سرح – أخو عثمان لامه من الرضاع – ولاه عمر بن الخطـــاب الوجه القبلي على ان يكون تحت رئاسة عمرو بن العاص ففتح النوبة ولمـــــا عزل عثمان عمرو عن مصر صارت الولاية والقيادة لعبد الله بن أبي ســـرح. فأراد ان يثبت وجوده فاتجه إلى الناحية الحربية، وقد تم علــــى يديــــه فتـــح

طرابلس، والاستيلاء على قرطاجنة حاضرة ممتلكات الدولة الرومانيـــة فـــي إفريقية . وتابع الانتصارات حتى وصل إلى المحيط الأطلسي .

وقد بلغ من سرور عثمان بهذا الفتح أنه أعطى خمس ما خص بيــت المال من الغنيمة لعبد الله بن سعد. مكافأة له ويقال إن عثمان كان قـــد نـــذر ذلك . كما يروى انه باع الأربعة أخماس الباقية لمروان بن الحكم بخمســمائة ألف دينار – وهو ثمن بخس إن صح ذلك – والروايات كثيرة. وأيا ما كَـــان فقد كانت هذه الشائعات عنصرا من عناصر الفتنة.

الحملات البحرية :

أ – فتح قبرص ورودس:

كانت فكرة القيام بحملة بحرية موجودة منذ خلافة عمر بن الخطـــاب وكان معاوية يطلب منه السماح له بحملة بحرية لفتح الجـــزر القريبـــة مـــن ساحل الشام كقبرص ورودس. وكتب له مرة في شأن قبرص أن قرية مـــن قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرص، وصياح دجاجهم. ولكن عمر بـن الخطاب كان يخاف على المسلمين من إخطار البحار فلم يأذن لهم فلما ولـــي عثمان جدد معاوية الطلب فأذن له الخليفة بشرط إلا يكره أحدا على ركوبـــه. وأن يقصر الانخراط في بحريته على المتطوعين. فأسرع معاويـــة بتجـــهيز حملة بحرية أقلعت سنة ٢٨ هـــ قاصدة قبرص. وكان أمير البحر فيها أبـــو قيس الحارثي وجاء إليه ابن أبي سرح – أمير مصر – ببضع ســـفن وســـار الأسطول الإسلامي يخترق العباب، وأشترك مع البيزنطيين سادة البحار فـــي عدة معارك قتل في إحداها أمير البحر مســـلم، واســـتولى المســـلمون علـــى قبرص فصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدون إلـــى الـــروم مثلـــها لا يمنعهم المسلمون من ذلك. وليس على المسلمين منعهم ممـــن أرادهـــم مـــن

سواهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليـــهم. ويكـــون طريق المسلمين إلى العدو عليهم وبعد ان أمضيت المعاهدة. رحل المســلمون من قبرص إلى رودس ففتحوها.

ب – موقعة ذات الصواري :

ظهر للروم أن العرب يحسنون حرب البحر كما يجيدون حرب الــبر فعملوا على هدم سيادة المسلمين البحرية الناشئة. فجـــهزوا أســطولا قويــا يتراوح عدد سفنه بين ٥٠٠ سفينة و ٦٠٠ سفينة. تحت قيادة قسطنطين بـــن هرقل.

شعر معاوية والي الشام وعبد الله بن سعد والي مصر بذلك فأعد كـلا منهما أسطولا مجهزا واجتمع الأسطولان. وكان عدد سفنهم لا يزيد عن مئتي سفينة وجعلت الإمارة البحرية لابن أبي سرح. واشــتبك الأســطولان (الإسلامي والبيزنطي) قرب الإسكندرية وتبادل الفريقان الرمي بالسهام حتـــى نفدت وحلت محلها قذائف الحجارة. ثم احتال المسلمون حتى ربطوا ســـفنهم بسفن الروم، وتواثبوا على الروم في السفن يضربون بالســـيوف ويوجئـــون بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما. وكان المسلمون يقاتلون كأنهم علـــى الأرض ، وكـــان النصر حليف العرب. واضطر الروم إلى الفرار وجرح أميرهم وفـــر إلـــى صقلية. واستولى المسلمون على كثير من سفنهم.

هذا و قد وصف ابن كثير المعركة بعبارات مؤثرة يقول فيها:

قصد الروم المسلمين في جمع لم ير مثله منذ كان الإسلام خرجـــوا في خمسمائة مركب وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبي الصرح وأصحابه مـــن

المسلمين الذين ببلاد المغرب فلما تراءى الجمعان ذات يـــوم بـــات الـــروم يقصقصون ويصلبون وبات المسلمون يقرأون ويصلون فلما أصبحوا، صفـــا عبد الله بن سعد أصحابه صفوفا في المراكب وأمرهـــم بذكـــر الله وتـــلاوة القرآن. قال بعض من حضر ذلك: فأقبلوا إلينا في أمرا لم يرد مثله من كـثرة المراكب وعقدوا صواريها، وكانت الريح لهم وعلينا فأرســينا، ثـم سـكنت الريح علينا فقلنا لهم: إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البر فمات الأعجلون منـا ومنكم قال: فنخروا نخرة رجلا واحد وقالوا: الماء الماء.

قال: فدنونا منهم، وربطنا سفننا بسفنهم، ثم إجتلدنا وإياهم بالســيوف، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر، وضربت الأمواج فـي عيـون تلك السفن حتى ألجأتها إلى الساحل وألقت الأمواج جثث الرجال على الساحل حتى صارت مثل الجبل العظيم وغلب الدم على لون الماء، وصبر المسـلمون يومئذ صبرا لم يعهد مثله قط، وقتل منهم بشرا كثير، ومن الـــروم أضعـــاف ذلك. ثم أنزل الله نصره على المسلمين فهرب قسطنطين وجيشه وقد قلوا جدا وبه جراحات شديدة مميتة مكث حينا بداوا منها بعد ذلك، وأقام عبد الله بـــن سعد بذات الصواري أياما ثم رجع منصورا مظفرا [٢٣٧]. وســميت هـذه الموقعة بذات الصواري، لكثرة صواري السفن واجتماعها .

نتيجة المعركة :

١ – من ذلك الوقت صارت الخلافة الإسلامية دولة بحرية بما صـار إليها من مراكب الروم وبما استحدثه معاوية وعبد الله بن سعد مـــن الســفن، ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الإسلامية التي كان يشن الـــروم الإغـــارة

[٢٣٧] ابن كثير البداية والنهاية ج٧ ص١٧٢.

عليها من وقت إلى لآخر. ومع هذا النصر المبين والبحرية العظيمة، فقد كـان في صفوف المسلمين من رأي في تعيين عبد الله بن سعد أمير عاما محابـــاة أحفظتهم وبقيت في قلوبهم. فكانت عنصرا من عناصر الفتنة ضد عثمان.

٢ – كان هدف الروم من هذه الحملة البحرية استعادة مجدهـــم فـــي شرق البحر الأبيض المتوسط ففشلوا في ذلك.

٣ – القضاء على البحرية الإسلامية الناشئة فإنقلبـــة الآيـــة. وبـــاؤا بالخسران المبين.

٤ – تحقق الروم من أن نجم مجدهم قد أفل، وان الجيوش الإســـلامية التي غلبتهم في البر، قد حطمت عظمتهم على الماء وأنها ستغلبهم وان ركبوا أطباق السماء.

٥ – أصبح بحر الروم (البحر الأبيض) خاضعا العرب ممـــا يلـــي ساحل الشام ومصر وإفريقية إلى الجزر الواقعة بالقرب منها كقبرص.

٦ – أصبحت سواحل الدولة الإسلامية أطول بكثـــير مـــن ســـواحل الدولة الرومانية التي كانت إلى عهد قريب سيدة العالم.

٧ – وبانتهاء هذه المعركة، وما سبقها من حروب، صار ملك الدولـــة الإسلامية يمتد من نهر جيجون شرق فارس إلى المحيط الأطلسي في الساحل الغربي لبلاد المغرب، ومن المحيط الهندي جنوبا إلى بلاد القوقاز وشـــواطئ

بحر قزوين والبحر الأسود شمالا، واصبح ملكهم ملكا عريضا لم يكن لغيرهم من قبل ولا للروم في عنفوان شبابهم، ومجد قوتهم.

ولم يكن هناك ما يحول بين المسلمين ومتابعة الفتح في كل مكان لولا قتل عثمان بن عفان، واضطراب أمور الدولة وقيام الفتن فقد أوقفت تيار الفتح حينا من الزمن أستمر إلى ان ولى معاوية بن أبي سفيان أمر الدولة الإسلامية، فأعاد تيار الفتح بعد أن صفا له الأمر ودانت له البلاد [٢٣٨].

أهم أعمال عثمان المدنية وآثاره في خلافته :

قام عثمان أثناء خلافته بخدمات جليلة للإسلام، والمسلمين أهمها ما يأتي :

أ - عمارة المسجد الحرام وتوسيع المسجد النبوي، في سنة ٢٦ هـ زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه، وفي سنة ٢٩ وسع المسجد النبوي وقد بناه بالحجارة، وجعل عمده من حجارة فيها رصاص، وجعل سقفه من الساج جعل طوله ستين ومئة ذراع وعرضه خمسين ومائة ذراع، وجعل أبوابه ستة كما كانت في عهد عمر.

ب - رزق المماليك من بيت المال، وزع الأرزاق على المماليك من بيت المال، وهذا لم يكن من قبل، دون ان ينقص شيئا من أرزاق أسيادهم،

---

[٢٣٨] من أراد التوسع في الفتوحات فليرجع إلى البلدان للبلاذري من ٢٠٠ - ٢١٠ ، ٢٢٣ - ٢٢٨ ، ومن ٣٠٠ - ٣١١ و ٣٣٠ ومن ٣٨١ - ٣٨٦ ومن ٣٩٥ - ٣٩٨ والكامل لابن الأثير ج٣ من ٤١ - ٤٩ ومن ٥٨ - ٦٧ ، والفتح الإسلامي من ٣٦٢ - ٣٧٠ والفتوحات الإسلامية لزيني دحلان من ص ١٤٤ - ١٦٠ وأشهر مشاهير الإسلامية ج٤ من ٦٩٦ - ٧٢٦ والدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم العدوي من ٦٠ - ٦٥.

وهذا عمل يدل على مقدار نمو بيت المال واتساع مـــوارده، وحـــب عثمـــان للتوسعة على المسلمين.

ج - إحياء المـوات وإصلاح الأراضي، كان عمر رضى الله عنـــه لا يبيح للعرب الاشتغال بالزراعة في البلاد المفتوحة.

وكان يهدف بذلك إلى أن يكونوا دائما جنود حرب مستعدين للقتـــال، فالعمل في الأرض مفسدة لروح الجندية لان الجندي يركن في هذه الحالة إلى الراحة، وهذا ما يتفق وعصر الفتوح ولكن عثمان رأى كـــثرة العـــرب فـــي الأقطار التي فتحت، ورأي في تلك الأقطار مواتا واسعا مـــن الأرض التـــي جلا عنها أهلها، وتركوها بلا مالك أيام الفتوح.

لما رأي ذلك أشفق من ضياع تلك الموارد للـــثروة، فـــأذن للعـــرب بالعمل فيها وتعميرها.

د - جمع المسلمين على مصحف واحد، وهو أجـــل الأعمـــال التـــي امتاز بها تاريخ عثمان بن عفان، وكان سبب ذلك ان الصحابة تفرقـــوا فـــي الأمصار وكانت لهجاتهم مختلفة في نطق بعض الكلمات، ونبتت نابتة لم تـــر الرسول ودخل أقوام جدد من أهل البلاد المفتوحة في الإسلام، فظن أهل كـــل مصر أن قراءة صاحبهم هي القراءة، ولا يكون قرآنا غيرها، وظـــهر ذلـــك بجلاء حينما اختلطا الشاميون بالعراقيون في أثناء غزو أرمينيه وأذربيجان.

وكان الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، يرقب أحوال الناس، وفـــي أثناء رجوعه قال لسعيد بن العاص: إني قد سمعت في سفري هذا أمرا لئـــن ترك الناس عليه ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه أبدا: قال ســـعيد ومـــا

ذاك؟ قال حذيفة: رأيت أهل الشام حين قدموا علينا فرأيت أناسـا مـن أهـل حمص يزعمون لأناس من أهل الكوفة أنهم أصوب قراءة منهم، وأن المقـداد بن الأسود، أخذها عن رسول الله، ويقول الكوفيون ذلك وأنهم أخذوا قراءتـهم عن أبن مسعود وسمعت قوما من أهل دمشق يقولون لهم " لا " نحن أصـوب قراءة منكم، ويقولون لهم هؤلاء مثل ذلك.

ولما رجع حذيفة إلى الكوفة دخل المسجد فحدث النـاس بمـا سـمع وحذرهم بما يخشاه فساعده على ذلك أصحاب رسول الله وعامـة التـابعين، وتعصب أهل الكوفة لقراءة عبد الله بن مسعود، وأهل البصرة لقـراءة أبـي موسى الأشعري وأهل حمص لقراءة المقداد، وهكذا فغضب حذيفة وبعـض الصحابة والتابعين وقالوا لهم: إنما أنتم أعراب فاسكتوا فـأنكم علـى خطـأ، وأغلظ أبن مسعود القول لحذيفة فغضب وغضب سعيد بن العـاص ورحـل حذيفة إلى الخليفة عثمان بالمدينة فأخبره الخبر. وقال: أنا النذيـر العريـان فأدركوا هذه الأمة.

وجمع عثمان الصحابة وسمعوا من حذيفة فهالهم الأمر وشق عليـهم، فطلب عثمان من أم المؤمنين حفصة بنت عمر ما كان عندها من الصحـف التي جمعت في عهد أبي بكر.

ولما أحضرت الصحف أمر عثمان زيد بن ثابت - كـاتب الوحـي للرسول - وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحـارث بن هشام فنسخوها من المصاحف، وقال الخليفة والصحابة لهؤلاء الكتاب: إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزلوا بلسانهم ففعلوا. فلما نسخوا ما فـي الصحف ردها عثمان إلى حفصه وأرسل إلى كل جهة مصحفا ففرحوا النـاس

وعرفوا فضل هذا العمل الجليل إلا أن أتباع ابن مسعود بالكوفة عابوا ذلــك على عثمان. وقالوا: كان القرآن كتبا فحرقها إلا واحدا: فصــاح فيــهم ابــن مسعود وقال: ولا كل ذلك فأنكم و الله قد سبقتم سبقا بينا فاربعوا على ظلعكــم (أشفقوا على أنفسكم) فعن ملامنا كان ذلك فلو وليت منه مــا ولــى عثمــان لسلكت سبيله، وقد تم هذا العمل الجليل سنة ٣٠ هـ.

وبذلك جمع عثمان الشعوب الإسلامية في وحدة قوية لا انفصام لـــها بجمعهم على مصحف واحد، ولولا ذلك لوقع ما كان يخشاه حذيفة، ولتعـــدد القرآن كما تعددت التوراة والإنجيل، ولكن الله سلم لسابق وعده (إنــا نحــن نزلنا الذكر وإنا لحافظون).

هـ - ومن مآثره، ترتيب الطعام في شهر رمضان لأهـــل المدينـــة وإقامته دور الضيافات في الكوفة وغيرها.

و - ومن مآثره أيضا اتخاذ دار للقضاء، فإننا نعرف ان عمـــر بــن الخطاب عين قضاة في مختلف الجهات ورتب لهم الأرزاق، ولكنا لا نعــرف انه اتخذ دار للقضاء، بل كان القضاء في المساجد أو حيث يوجــد القــاضي، أما في عهد عثمان فيروي ابن عساكر عن أبي صالح مولى العبــاس. قــال: أرسلني العباس إلى عثمان أدعوه فأتيته في دار القضاء، فإذا صح ذلك فيكون عثمان هو أول من اتخذ في الإسلام دار للقضاء، وأوجد المحاكم في الدولـــة الإسلامية. وليس ذلك بمستبعد فقد كان رضى الله عنه ميالا للعمارة والتوسعة والتنظيم.

الفترة الأخيرة من حكم عثمان :

مضت عدة سنوات من حكم عثمان بن عفان بذل فيه جهده لصـــــالح الإسلام والمسلمين، ولكن ما لبثت الأمور أن تبدلت وظـــهرت بـــوادر فتنـــة كبرى، وعلاقات شقاق بين المسلمين، وكانت عوامل ذلك كثيرة جـــدا ولكـــن أهمها:

أولا : أنه عزل جماعة من الصحابة عن أعمالهم التي ولاهم إياهـــــا عمر بن الخطاب وولى مكانهم أناسا ينتمون إلى قرابته وإلى بعض من وجـــد الناس عليهم الكثير من الطعون.

ثانيا : أنه أسرف في إنفاق بيت أموال المسلمين في جوانب أنكروهـــا عليه.

ثالثا : أنه حبس بعض كبار الصحابة مثل عبد الله بن مسعود الــــذي نفاه إلى الربذة إلى أن مات وكذلك فعل مع أبي ذر الغفاري.

رابعا : أنه حمى سوق المدينة والبحر، وأقطع أصحابـــــه إقطاعـــات كثيرة في بلاد الإسلام.

خامسا : بعض مواقفه مع بعض الصحابة كعبد الرحمن بـــن عـــوف وعبادة بن الصامت، وعمار بن ياسر وغيرهم.

ومن الواضح ان ظروفا كثيرة، وتغيرات هامة قد جعلت مـــن تلـــك الشائعات وكأنها حقائق أثارت الناس، لكنها ظلت مدونة في كتـــب التـــاريخ،

ومازالت إلى يومنا هذا، وهناك آراء رائعة لأبي بكر ب العربي في تفنيد هـذه الاتهامات.

التهم ورد عثمان عليه :

١ – قال عثمان: قالوا: أتم الصلاة وكانت لا تتم ألا وأني قدمت بلـدا – يقصد مكة – فيه أهلي فأتممت: أو كذلك هو قالوا: نعم.

٢ – قالوا حميت الحمى. وإني و الله ما حميت حمى إلا لإبل الصدقـة حتى لا يقع بين من يلي أمرها وبين أحد تنازع، ومالي من ثاغية ولا راغيـة وإني قد وليت وأنا أكثر العرب بعيرا وشاء. فمالي اليوم غير بعـير يـن. أو كذلك هو؟ قالوا: نعم.

٣ – قالوا كان القرآن كتبا فحرقها إلا واحدا. ألا وإن القرآن واحـد. جاء من عند رب واحد. وإنما أنا في ذلك متبع لا مبتدع. أكذلك هو؟ قـالوا: نعم.

٤ – قالوا: استعملت الأحداث، ولم أسـتعمل إلا محتمـلا مجتمعـا مرضيا وهؤلاء أهل عمليم فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم، ولقد ولى مـن قبل أحدث منهم وقيل لرسول الله أشد مما قيل لي في استعماله أسامة. أكذلـك هو؟ قالوا: نعم.

٥ – وقالوا: إني رددت الحكم بن العاص، وقـد سـير رسـول الله. والحكم مكي، سيره رسول الله من مكة إلى الطـائف، ثـم رده رسـول الله فرسول الله سيره، ورسول الله رده، أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٦ – وقالوا: إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله. وإني إنما نفلته الخمس من الخمس. وكان مائة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر. فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك، فرددته، وليس ذلك لهم، أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٧ – وقالوا: إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي فإنه لم يمل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم، فإني إنما أعطيهم من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي، ولا لأحد من الناس ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا يومئذ حريص شحيح: أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي، وفنى عمري وودعت الذي في أهلي قال الملحدون ما قالوا؟ وإني و الله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم، وما قدم على إلا الأخماس، ولا يحل لي منها شئ، فولى المسلمون وضعها في أهلها دوني، ولا تبلغت من مال الله بفلس فما فوقه، ما آكل من مالي.

٨ – قالوا: أعطيت الأرض رجالا، وإن هذه الأرض شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام فتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله، ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له فنظرت فيه الذي يصيبهم مما أفاء الله به عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب، فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني (يشير إلى ما اشتراه من بعض أعلام الصحابة حين أرادوا أن يخرجوا الأمصار).

بهذا الدفاع البليغ أعتقد الخليفة أنه قد وضع الأمر في نصابه وحـرك ضمائر الوافدين بالشر عليه، وما كان هذا الدفاع ليؤثر في نفوس مريضـة، وقلوب أطفأت فيها الدعاية جذوة الإيمان: وما كان يجدي في هذا الموقـف إلا أن يأخذ بنصح المخلصين من الصحابة فيقتلهم، ويجعلهم عبرة لغيرهم وسـلفا ومثلا لمن وراءهم، أو يحبسهم في المدينة تحت رقابة شديدة حتى لا يمكنـهم من الرجوع إلى مواطن الفساد للقيام بدعاية سيئة ضد أعمالـه. ولكنـه رق ولان كما هي عادته فرجعوا إلى أمصارهم مطويين على ضعن يأكل أكبـادهم ويحرق أفئدتهم.

أدت هذه الفتنة إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضـى الله عنـه، وهو أول خليفة يقتل بيد مسلمة، وهو في الثامنة والثمانين من عمره، وكـان مقتله كارثة على الأمة الإسلامية وضربة أصابتها إصابـة أليمـة، وشـقت صفوفها منذ ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا، وتتشعب مسئولية الحادث لتقع علـى كثير من الأطراف منهم الخليفة المتسامح الطيب والذي فضل عدم الضـرب على أيدي الثامرين وأخذهم بالتسامح في وقت تطلب الحزم والقـوة بـل إن شئت القسوة حتى لا تضيع مصالح المسلمين.

ومنهم عمال الخليفة عثمان على الأمصار والذين كانوا سببا في تمرد الناس عليهم وعلى الخليفة علاوة على عدم قيامهم بالإجراءات اللازمة لمنـع الناس من الطعن في الخلافة والخليفة أو الخروج إلى المدينة لمضايقة خليفـة المسلمين.

كذلك هناك أطراف مندسة بين المسلمين ساعدت على تـأجج الفتنـة ومنهم عبد الله بن سبأ.

وأخيرا تقاعس أهل المدينة عن حماية الخليفة وهو موقف يحتاج إلـى دراسة وتفسير.

ويمكن القول ان هذه العوامل جميعها قد تشابكت وتفاعلت حتـى أدت في النهاية إلى الحادث الجليل الذي يندمل إلى الآن.

الأمام علـــي بـــن أبـــي طـــالـــب رضى الله عنه
٣٥ هـ / ٤٠ هـ - ٦٥٦ م / ٦٦١ م

من الفترات الحرجة جدا في تاريخ الإسلام والمسلمين تلك الســـنوات الصعبة التي حكم فيها الإمام علي بن أبي طالب الدولة الإسلامية فقد شـــهدت تحولا خطيرا في سلوك المسلمين آنذاك ومواقفهم التي تمخضت عن استشهاد الخليفة عثمان بن رضى الله عنه لصورة تجافى أبسط مبـــادئ الإســـلام ثـــم تحول الناس فجأة إلى الصراع فيما بينهما وبين أنفسهم وتركوا الجـــهاد فـــي سبيل الله بمعناه العظيم الذي عايشوه على أيام الخلفاء السابقين، ســـول لـــهم الشيطان جهادا آخر فيما بينهم وبين أنفسهم فوقعة بينهم معارك قاسية حركتها الأخطاء والاجتهادات والأفكار الغريبة وغير ذلك من المؤثرات التي انتـــهت بأن صبغت فترة خلافة الإمام علي بن أبي طالب بالكثير من المآســـي مثـــل معركة الجمل وصفين والنهروان، وأودت بحياة عشرات الآلاف من خـــيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من كبارهم طلحـــة والزبـــير وعلي بن أبي طالب ذاته.

وتتعدد الروايات حول أسباب أحداث هذه الفترة وحـــول مجرياتـــها، ولسنا هنا في موقف القضاء لكي نلقي بالاتهام على هذا الطرف أو ذاك بقـــدر ما سنحاول أن نقدم صورة مبسطة لوقائع الأمور تاركين لعلام الغيوب ما لـــم يعد في إمكاننا التوصل إلى حقيقته. كما أننا لن نسمح لأنفسنا، وقـــد مضـــت سنوات طويلة بأن نحاسب أحدا، وان كـــان ذلـــك لا يمنعنـــا مـــن محاولـــة استخلاص العبرة من ما وقع من خلاف بين المسلمين والآثار المترتبة علـــى ذلك حتى يمكن ان تكون إنذار لما نحن فيه من واقع .

هو الإمام على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي القرشي الهاشمي، وأمه السيدة فاطمة بنت أسد بن هاشم ابن عبد مناف.

تربى علي في بيت النبي الكريم، حيث روى المؤرخون أن أبا طالب كان رقيق الحال ذا عيال، وأن النبي أراد أن يفي عمه أبا طالب ببعض حقه حين كفله وهو صغير، فطلب إلى عمه أن يربى عليا في بيته، فقبل أبو طالب، ونشأ علي في حضانة النبي ورعايته.

كان علي - رضي الله عنه - أول من أسلم من الصبيان، وقد اختلفت الروايات في سن علي وقت إسلامه: وهناك رواية أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن الذي يقول أنه والزبير أسلما وهما أبني ثماني سنوات ورواية ابن إسحاق القائلة بإسلامه وله عشر سنوات ورواية عبد الله بن عمر وهي أنه أسلم له ثلاث عشرة سنة على روايتين للحسن يقول فيهما بأنه أسلم بين الخامسة عشر والسادسة عشر. وهو بهذا يكون أول من أسلم بعد السيدة خديجة رضي الله عنها، وهناك رواية تروى عن ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب يقول فيها: قال إسماعيل بن اياس بن عقيف الكندي رواية عن أبيه وجده: كنت امرأ تاجرا، فقدمت الحج، فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة، وكان امرأ تاجرا، فو الله أني لعنده بمنى إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر إلى الشمس فلما رآها قد مالت قام يصلي، قال: ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام قد راهق الحلم من ذلك الخباء، فقام معهما يصلي،

فقالت للعباس: من هذا يا عباس؟ قال: "هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي"، قلت: من هذه المرأة؟ قال: "امرأته خديجة بنت خويلد" قلت من هذا الفتى؟ قال: " علي بن أبي طالب ابن عمه". قلت: ما هذا الذي يصنع؟ قال: "يصلي، وهو يزعم أنه نبي ولم يتبعه فيما ادعى إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنز كسرى وقيصر، وكان عفيف وهو يقول بعد أن أسلم وحسن إسلامه لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ فأكون ثانيا مع علي.

اخذ العلم من النبوة صافيا، واقتدى بالرسول في كل شان من شئونه وكان النبي يحبه اشد الحب استخلفه حين هاجر إلى المدينة علي ما كان عنده من الودائع ليردها إلى أصحابها، فأقام ثلاثة أيام ثم لحق بالنبي.

ولما هاجر النبي إلى المدينة، وآخى بين المهاجرين، ثم آخى بينهم وبين الأنصار. آخى بين علي وبين نفسه ثم آخى بين علي وسهل بن حنيف ثم زوجه النبي بابنته فاطمة فكان منهما عقبة إلى الآن وكفاه شرفا بذله لنفسه فداء لرسول الله حين نام على فراشه في الليلة التي جعلها كفار قريش موعدا لقتل الرسول، فكان رضى الله عنه آية من آيات الشجاعة. ومثلا للبطولة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله عدا غزوة تبوك حيث استخلفه علي المدينة فكره على ذلك أو خاض فيه المنافقون: فقال النبي لعلي: أما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي: وقال النبي يوم خيبر: لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، فلما أصبح دفع الراية إلى علي، وكان فوق بلاء في الحروب مدينة علم وورع وتقوى وفضائل يعرفها الخاص والعام. فجاهده مشكور وعلمه غير منكور، وكان عمر يفزع إليه في كل ما يعرض له من مشاكل الحكم ويقول: لولا علي لهلك عمر. إن عليا

أقضانا: وقال حين أوصى بالشورى: لو ولوها ابن أبي طالب لحملهم على الجادة: فكان رضى الله عنه. موضع ثقة الخلفاء جميعا وكثيرا ما استشاروه فأشار عليهم بالذي هو خير وكان أبو بكر وعمر يعملان بنصحه. وكذلك عثمان في أول عهده.

اختيار على خليفة

قتل الثوار الخليفة الثالث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصبحت المدينة في قبضتهم. وكانت الفرقة المصرية في المدينة أقوى الفرق، وتولى زعيمها الغافقي الإمامة في الصلاة بالمسجد النبوي.

وفي اليوم الخامس لمقتل عثمان. أعلن الثوار أنهم لن يتركوا المدينة قبل اختيار خليفة جديد. لأنهم كانوا يعلمون أنه لابد للناس من إمام. ولابد أن يبايع هذا الإمام في أسرع وقت قبل أن يستبد عمال عثمان بما في أيديهم ويرسل أقواهم (معاوية) جندا إلى المدينة ليخضعها لسلطانه ويعاقب الثوار على ما كان منهم.

وكان الثوار مع اتفاقهم على اختيار خليفة كانت أهواؤهم مختلفة فهوى أهل مصر مع على، وهوى أهل الكوفة مع الزبير، وهوى أهل البصرة مع طلحة، فذهبت كل جماعة إلى من يرغبون حكمه، وعرضوا عليه الخلافة فرفضها الثلاثة. وكان كل واحد منهم يتبرأ من الثوار فلما لم يجد الثوار ممالئا ولا مجيبا قالوا: لا نولي أحد من هؤلاء الثلاثة. فبعثوا إلى سعد ابن أبي وقاص وقالوا له. إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع فاقدم نبايعك فبعث إليهم إني خرجت منها فلا حاجة لي بها على أي حال، ثم أتوا

عبد الله بن عمر فقالوا له، أنت ابن عمر فقم بهذا الأمر فقال إن لهذا الأمـــر انتقاما لا أعترض له فالتمسوا غيري فبقوا حيارى لا يدرون مـــا يصنعـــون والأمر أمرهم بطبيعة الحال، وقالوا إن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان مـــن غير إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم. وكأن الثائرين اســـتيقنوا آخـــر الأمر أنهم لن يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس إماما. وأنه لابد أن يعينـــهم المهاجرون والأنصار على ذلك فجمعوا أهل المدينة، وقالوا لـــهم: يـــا أهـــل المدينة أنتم أهل الشورى و أنتم تعقدون الإمامة وحكمكم جائز علـــى الأمـــة فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع، وقد أجلناكم يومكم فـــو الله لئـــن لـــم تفرغوا لنقتلن غدا عليا وطلحة والزبير وأناسا كثيرين: فذهب أهـــل المدينـــة إلى علي يعرضون عليه الإمامة ويلحون عليه في قبولها وحـــاول أن يمتنـــع فخوفوه بالفتنة.

ويروى أنه قال لهم: دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمر لـــه وجوه وألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول: فقالوا له: ننشـدك الله. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الفتنة؟ فقال: قد أجبتكم وأعلموا أني إن أجبتكـم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلا أنـــي مـــن أســـمعكم وأطوعكم لمن وليتموه: ثم افترقوا على ذلك وتواعدوا الغد. وتشاور النـــاس فيما بينهم وقالوا إن دخل طلحة والزبير استقامت الأمور.

وفي الغد اجتمع المسلمون بالمسجد يوم ٢٣ من ذي الحجة ســنة ٣٥ هـــ فقال على لهم: إن كنتم لا تزالون على ما أبرمنا أمس فأنا معكـــم علـــى ذلك وإلا فلا سبيل لي على أحد. فقالوا له: نحن على ذلك وتداعـــى النـــاس للبيعة وبايعه جمهور من كان حاضرا بالمدينة، وامتنع نفر عن البيعة فلم يلـح عليهم على في البيعة، ولم يأذن للثائرين في إكراههم عليـــها. ومـــن هـــؤلاء

النفر. سعد ابن أبي وقاص، وقال لعي ما عليك مني بأس ومنهم عبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأبو سعيد الخدري، وأسامة بن زيد، وغيرهم ممن اعتزلوا الفتنة، وكان من الممتنعين عن البيعة طلحة والزبير فاكرهما الثائرون عليها، ولم يتركهما علي وشأنهما كما ترك غيرهما لأنه كان يعلم من أمرهما ما يعلم الثوار، وكان يعلم أن طلحة كان أشد الناس على الخليفة المقتول، وأنه كان يطمح إلى ولاية الأمر وكان يعلم الزبير لم يأمر ولكنه لم ينه، ولم يكن أقل من طلحة طموحا للولاية، وكل واحد منهما له أنصار فَـأراد أن يستوثق منهما ومن أتباعهما حتى تستقيم الأمور.

وبجانب هذه الرواية توجد رواية أخرى مؤداها، أنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير وأتوا عليا، وعرضوا عليه الإمامة وذكروا فضائله ومزاياه فأبى إباء شديدا: ولكنهم صمموا على انتخابه وفي رأينا أن الرواية الأولى أرجح لأنها تتمشى مع الحوادث وإكراه طلحة والزبير - إن كانا أكرها - فهو إكراه على لزوم الجماعة.

وقد تمت البيعة لعلى بعد مقتل عثمان بخمسة أيام وظهر أن الأمور قد استقامت لعلي في الحجاز وفي الكوفة وفي البصرة وفي مصر وكان الذي يشغله الشام لأنه لم يشترك في البيعة من جهة، ولان الذي يحكمه معاوية أقوى العمال، وهو ابن عم عثمان من جهة أخرى، ولكن عليا كان يرى أن بيعته انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي وموطن الصحابة:

ولما تم الأمر لعلي في مسجد الرسول خطب أول خطبة له، حث فيها الناس على أداء الفرائض، وحثهم على التقوى وبين حرمة المسلم: وقال لـــهم إذا رأيهم الخير فخذوه، وإذا رأيتم الشر فدعوه٠٠٠ الخ [٢٤١].

منهج علي في الحكم:

يروى أن عليا قال: أن عمر كان رشيد الأمر ولن أغير شيء صنعــه عمر: فهو قد نهج منهج عمر وصار بسيرته في الزهد وإقامة العدل، والشــدة على ذوي الأهواء. فعاش عيشة هي إلى الخشونة والشظف أقرب منها إلـــى الرقة واللين. فكان أثناء خلافته القصيرة، يلبس خشن الثياب والمرقــع منــها وكان يحمل عماله على التبلغ بميسور العيش والرفق بالرعية، ويطلب منـــهم الاستعانة في أعمالهم بالأخيار بقطع النظر عــن القرابـــة أو الصداقـــة، وأن يكون من أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإســلام. وكان شديد الحرص على مصالح الأمة. شدة كرهت فيه أصحـــاب المطـــامع الشخصية وكان بخيلا بمال المسلمين على أقرب الناس إليه مما دفع ابن أبيـــه وأمه عقيل بن أبي طالب أن يتركه ويخرج إلى معاوية بالشام، وكان يحمـــل الدرة، ويمشي في الأسواق يعظ الناس ويؤدبهم ومن قوله في هــذا الصـــدد: استتروا بيوتكم والتوبة وراءكم من أبدى صفحته للحق هلك. ان الله أدب هــذه الأمة بالسيف والسوط،وليس لأحد عند الإمام هوادة.

---

[٢٤١] راجع كتاب الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر الضبي.

عقبات أمام الخليفة:

كان أمام الخليفة علي عقبتان أساسيتان هما:

موقفه من قتلة الخليفة عثمان رضى الله عنه وموقفهم من عمال عثمان الذين كانت الشكوى منهم سببا من أسباب الفتنة.

أول عقبة في طريق علي:

بعد أن تمت البيعة لعلي وخطب الناس خطبته التي أشرنا إليها فيما سبق رجع إلى بيته فجاءه طلحة والزبير في عدد من الصحابة وقالوا: يا علي إنا اشترطنا إقامة الحدود وإن هؤلاء القوم (الثوار) قد اشتركوا في قتل هذا الرجل (عثمان) وأحلوا بأنفسهم: فقال علي: يا إخوتاه لست أجهل ما تعلمون، ولكنني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم هاهم هؤلاء. قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا. فهل ترون موضعا لقدرة على شئ مما تريدون؟ قالوا. لا. قال: فو الله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله. إن هذا الأمر أمر جاهلية (يعني الثأر) وإن لهؤلاء مادة فاهدءوا عني حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق.

فتفرق القوم، وبعضهم يقول: نقضي الذي علينا ولا نؤخره. والله إن عليا لمستغن برأيه عنا ولا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره: فسمع ذلك فخطبهم وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظره لهم وقيامه دونهم، وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذاك والأجر من الله عليه. ثم نادى: برئت الذمة من عبد لا يرجع إلى مولاه: فتذامرت السبيئة والأعراب. وقالوا لنا غدا مثلها ولا نستطيع أن نحتج فيهم بشيء، وقال علي: أيها الناس اخرجوا عنكم الأعراب فليلحقوا بمياههم فأبت السبئية وأطاعهم الأعراب فدخل على بيته ودخل عليه طلحة والزبير وعدة من أصحاب النبي، فقال: دونكم ثأركم فاقتلوه. فقالوا:

عتوا عن ذلك: فقال: هم بعد اليوم والله أعتى. فطلب طلحة منه أن يأذن له ليأتي البصرة. ويقدم منها بخيل إلى المدينة كما طلب الزبير أن يأتي الكوفة فيصنع مثل ذلك، فتردد علي في القبول. وقال لهما. حتى أنظر في ذلك.

ولعله حظر أن يحيق بالمدينة خطر كبير من جراء هذا التدبير لو نفذ وربما أضاع عليه هز كل شئ وهكذا صار علي بين مطالبيه بالقصاص من الثوار، وبإجلائهم عن المدينة وبين استبداد الثوار نفسهم، وأصبح مركزه حرجا للغاية.

ويبدو لنا ان الذين أثاروا مسالة القصاص في وقت مبكر أرادوا إحراج الخليفة الجديد فهو لا يجد قوة على طرد قوم قتلوا خليفة وأقاموا خليفة وكما قال على يملكوننا ولا نملكهم فكان من صائب الرأي تركهم حتى يهدأ الناس، فتؤخذ الحقوق.

وإذا كان هؤلاء قد افسدوا على الخليفة خطته الحكيمة من التريث حتى يتفرق القوم إلى أمصارهم ثم يتخذ معهم ما يمليه الدين والعدل، وحملوه علي التصريح بما كان ينبغي كتمانه. فإنه كان هناك خطة يمكن الاعتماد عليها وهي مسألة عمال عثمان ولكن ابن أبي طالب قد ضيعها. وإليكم بيان ذلك.

عزل عمال عثمان: عقب تولى على الخلافة اتجه رأيه إلى عزل عمال عثمان، وعلم المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب بذلك فذهب إليه، وخلا به، ونصح له بإقرار عمال عثمان علي ما في أيديهم ليكون له عونهم وإخلاصهم. حتى إذا ما أتته بيعتهم واستقامت له الأمور يعزل من يشاء،

فقال للمغيرة: لا أدهن في ديني ولا أعطي الدنية في أمري: فتركه المغيرة ثم عاد في اليوم التالي وقال: إن الرأي أن تعزل عمال عثمان وتستعين بمن تثق بهم، ودخل ابن عباس بعد ذلك على علي فقص عليه أمر المغيرة وانه جــاءه اليوم بما يخالف رأيه بالأمس فقال أبن عباس. لقد نصحك بــالأمس وغشــك اليوم: فقال علي ولم نصحني؟: لآن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتــهم لا يبالون من ولى هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الأمر بغير شــورى، وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام والعراق مع أني لا آمــن طلحه والزبير أن يكرا عليك وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية. فان بايع لـــك فعلي ان اخلعه من منزله. فقال علي: والله لا أعطيه إلا السيف: قـــال ابـــن عباس، يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحـــرب، وبعد محاورة طويلة قال له ابن عباس: أطعني والحق بمـــالك بينبـــع، فـــان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، أما اليـــوم فـــان بنـــي أميـــة يلزمونك شعبة من هذا الأمر، ويشبهون على الناس، ويطلبون مثل ما طلـــب أهل المدينة، ولا تقدر ما يريدون: فأبى على إباء شديد وســـار فـــي طريقـــه اختيار حسنا فأرسل إلى البصرة عثمان بن حنيـــف مـــن أعـــلام الأنصـــار، وأرسل أخاه سهل بن حنيف إلى الشام، وأرسل قيس بن عبادة إلـــى مصـــر، وهؤلاء من الأنصار، وهذا أنه أراد أن يرضى الأنصار بهذا الاختيـــار فقـــد اختار منهم ثلاثة لهذه الأمصار الخطيرة، والبصرة و الشام ومصر.

وأرسل إلى الكوفة عمارة بن شهاب، وإلى اليمن عبيد الله بن عبـــاس وأختار لولاية مكة خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومـــي ولكـــن أهل مكة أبوا أن يبايعوه لعلي.

وسار عمال علي إلى أقاليمهم، فأما عثمان بن حنيف فدخل البصـــرة وقد رحل عنها عامل عثمان عبد الله بن عامر وحمل ما استطاع حمله مـــن المال حتى أتى مكة فأقام بها، وأما قيس بن سعد فدخل مصر وأفترق أهلـــها جماعة انضموا إليه، وجماعة تحصنوا بخربتا (في محافظة البحيرة) وقـــالوا: إذا اقتص على من قتله بايعناه وجماعة قالوا: نحن مع علي إذا لم يقتص مـــن إخواننا.

وأما عبيد الله بن عباس فقد دخل اليمن وفر واليها السابق يعلي بـــن أمية أو منية إلى مكة وحمل ما كان عنده من مال، وأما عمارة بـــن شـــهاب وسهل بن حنيف فقد قوبل كل منهما عند الحدود بما ألجأه إلى الفرار.

عند ذلك استدعى علي كلا من طليحة والزبير وطلب رأيهما فقـــالا: ائذن لنا نخرج من المدينة فإما أن تكاثروا، وإما أن تدعنا: وكأنهما يشـــيران عليه بحرب الذين لم يبايعوه فقال علي: سأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكلي: ثم أذن لهما فخرجا إلى مكة بحجة العمـــرة ويـــروى أنهما لم يخرجا إلى مكة إلا بعد ذلك حينما كان علي يتجهز لغزو الشام بحجة اعتزالهما لحرب الشام.

وسواء أكانا قد خرجا في الظرف الأول أو الثاني. بحجة العمـــرة أو بحجة اعتزال الناس، فانهما كانا على علي لا له كما سيأتي:

رأي علي في الموقف:

وقد رأى الخليفة ان يواجه كتابا إلى كل من أبي موســـى الأشـــعري بالكوفة ومعاوية بن أبي سفيان بالشام يطلب منها تقديم براهين الطاعة إليـــه،

فأرسل إلى أبي موسى كتابا مع معبد الأسلمي فرد عليه بالطاعة، وبين له الفتنة بالكوفة تغلي غليانا ظاهرا.

وأرسل إلى معاوية سبرة الجهني يدعوه إلى الدخول في طاعته فحجز معاوية الرسول عنده مدة طويلة وكما استنجزه سبرة الجواب لم يلتفت إليه.

وفي صفر ٣٦ رد معاوية رسول الله علي ومعه رسول من عنده يدعى قبيصة العبسي بكتاب كل ما فيه: من معاوية بم أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، وقال لرسوله: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الكتاب، ثم أوصاه بما يقول لعلي، وأقبل العبسي حتى دخل المدينة في غرة ربيع، فرفع الكتاب حتى عرف الناس أنه يحمل رد معاوية، فتفرقوا إلى منازلهم، وقد علموا أن معاوية معترض، ومضى حتى دخل على علي فدفع إليه الكتاب،ففض خاتمه فلم يجد فيه كتابه، فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمن أنا؟ قال علي نعم فقال: ورائي، إني تركت قوما لا يرضون إلا بالقود، قال ممن؟ قال: من خيط عنقك، وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق، فقال علي: مني يطلبون دم عثمان، ألست موتورا كوترتهم؟ اللهم إني أبرا إليك من دم عثمان، نجا والله قتله عثمان إلا أن يشاء الله: ثم خرج العبسي ولم يفلت من الثائرين الساخطين إلا بعد مشقة وعناء. ومن الغريب أن الإمام علي رضى الله عنه وقف موقفا مختلفا من القضيتين فبينما رأى التريث مع قتله عثمان كان برد الأسرع في إزاحة عمال عثمان على عكس ما قدم له من مشو.

التجهيز لغزو الشام:

علم المدنيون بان معاوية قد خالف عليا وأنه انتقض عليه. فبعثوا إليه زياد بن حنظلة التميمي ليعرفهم ما اعتزم الخليفة فدخل عليه، فقال له علـــي: تجهز لغزو الشام فقال له زياد. الأناة والرفق أمثل: فقال علي:

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

فخرج زياد وأعلم القوم بألتجهز لغزو الشام، ولم يلبـــث الخليفـــة أن جمع المسلمين وبين لهم ضرورة إخماد تلك الحركة الانفصالية قبل تفاقمـــها، وحثهم على الاندماج في الحملة قبل فوات الأوان. ثم دفع اللواء إلـــى ابنـــه محمد بن الحنفية. وجعل قائد الميمنة عبد الله بن عباس، وقائد الميسرة عمرو بن سلمة أو عمرو بن أبي سفيان وجعل أبا ليلى بن عمر بن الجـــراح علـــى المقدمة، واستخلف على المدينة قثم بن عباس، وكتب إلى قيـــس بـــن ســـعد بمصر، وإلى أبي موسى الأشعري بالكوفة وإلى عثمان بن حنيف بـــالبصرة. ان يندبوا الناس للخروج وبينما هو يأخذ أهبته للشام. إذ جاءه الخبر عن أهـــل مكة بأنهم قد أجمعوا أمرهم على الخلاف فوجه نظره إليهم.

موقعة الجمل

أ – مقدماتها :

كانت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها، قد تركـــت المدينـــة وارتحلت إلى مكة أيام اشتداد الحصار على عثمان، ولما أرادت العودة إلـــى المدينة ثانية لقيها رجل من أخوالها، فقالت له: ما وراءك؟ فقال: قتل عثمـــان، واجتمع الناس على علي، والأمر أمر غوغاء، فقالت مـــا أظـــن ذلـــك تامـــا ردوني، فانصرفت راجعة إلى مكة حتى إذا دخلتها أتاها عبد الله بـــن عـــامر

الحضرمي - أمير مكة أيام عثمان - فقال: ما ردك يا أم المؤمنيـــن؟ فقـــالت ردني أن عثمان قتل مظلوما، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر فاطلبوا بدم عثمان تغزوا الإسلام: فكان أول من أجابها الحضرمي هذا، وذلك أول ما تكلم بنو أمية ورفعوا رؤوسهم وقام معها الوليد بن عقبة ومروان بن الحكــــم وسائر بني أمية، وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة ويعلى بـــن أميـــة من اليمن وطلحة والزبير من المدينة. ثم بدأ يتشاورون في الطريقـــــة التـــي ينفذون بها ما أرادوا. والمصر التي تساعدهم في الحركة، وبعد اســـــتعراض البلاد وحالتها لم يجدوا سوى البصرة. فاجتمع رأيهم عليها وفضلـــوا لكـــثرة المضرية فيها، ولأن عبد الله بن عامر وإليها السابق زعم لـــهم أن لـــه بيـــن أهلها صنائع وأن له عند كثير منهم مودة.

وبعد ان استقر رأيهم على البصرة خطبت السيدة عائشة فيهم، فممـــا قالته: أيها الناس، ان هذا حدث عظيم وأمر منكر فانهضوا فيه إلى إخوانكـــم من أهل البصرة فأنكروه فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم لعل الله عـــز وجـــل يدرك لعثمان، والمسلمين بثأرهم: ثم بينت لهم أنه بعد الثأر يرد أمر المسلمين شورى بينهم. فيختارون لخلافتهم من يريدون عـــن رضـــا لا عـــن عنـــف واستكراه.

وبعد الاستعداد للرحيل على قدم وساق، وأمدهم عامر ويعلي بن أمية بكثير من المال والظهر، وبلغ عددهم ثلاثة آلاف مقاتل.

ولما عزموا على قصد البصرة، قال الناس، وقد رأوا أثـــر عائشـــة وأحاديثها في الناس: يا أم المؤمنين، دعي المدينة وما فيها من أمر الغوغـــاء، واشخصي معناه إلى البصرة. فان أهلها يحتجون علينا ببيعة علي، فتنهضينهم

معنا كما أنهضت أهل مكة، وتقعدين هناك فإن اصلح الله الأمر كـــان الــذي تريدين: وكذلك تحدث معها كل من طلحة والزبير في الصحبة إلى البصـــرة، فقالت: أتأمران بالقتال؟ قالا: لا، ولكن تعظين الناس وتحرضينهم على الطلب بدم عثمان وإزاء ذلك قبلت الذهاب إلى البصرة.

جاءت الأخبار لعلي بن أبي طالب فتحول عن قتال أهل الشام لـــيرد هؤلاء الثائرين عما تصدوا إليه فخطب في أهل المدينة، وتكلم في شأن طلحة والزبير، وقال: سأصبر ما لم أخف على جماعتكم وأكف إن كفــوا، فأشــتد الأمر على أهل المدينة، وتثاقلوا في الخروج. وكان يظن أنه سيلقي هـــؤلاء القوم فيناظرهم ويبلغ بهم الرضا، ويردهم إلى الجماعة ويعود دمعـــهم آخــر الأمر إلى المدينة، فيقيم بها، ويدبر أمر المسلمين كما فعل الخلفاء قبله، ولكنــه لم يكد يمضي في طريقه ليلقي القوم حتى عرف أنهم فأتوه وأنـــهم ســيبلغون البصرة، وسيفتنون الناس فيها عن بيعتهم وهو مع ذلك لم ييأس من الصلـــح، ولكنه احتاط للحرب حتى لا يؤخذ على غرة، فمضى في طريقه. وأرسل إلــى الكوفة يستفزهم لنصره، وسار بمن معه حتى نزل بذي قار في الطريق إلـــى البصرة.

وهكذا نجد عليا قد اتسعت عليه الفتوق، وتوالت عليه الخلافات. فــهو بين عدو بالشام راصد هناك يجمع عدده وعدته، وعدو بمكة يتجهز لاحتـــلال البصرة وما حولها، وأهل المدينة وتثاقلهم عليه لاعتقادهم أن الأمر فتنة لـــم يتضح فيها وجه الحق، إذا أخرج الرجل فيها يده لم يكد يراها.

وكان عمل السيدة عائشة وطلحة والزبير وقصدهم الخروج إلى البصرة وخروج علي إلى لقائهم، بدء الأسباب التي أدت إلى موقعة الجمل المشئومة وكان فتحا لحروب الفتنة الدامية.

ب – الموقعة :

خرجت السيدة عائشة بمن معها. قاصدة البصرة، وعلم عثمان بن حنيف – وإلى البصرة – بقدومها، فندب أبا الأسود الدؤلي وعمران بن الحصين ليستطلعا سبب قدومها. فقالت لهما: إن الغوغاء من أهل الأمصار، ونزع القبائل غزوا حرم رسول الله، وأحدثوا فيه الأحداث من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر واستحلوا الدم الحرام فسفكوه. وأقاموا في دار قوم كارهين لمقامهم فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أن يأتوا بإصلاح في الأمر .... الخ، وسألا بعد ذلك طلحة والزبير نفس السؤال، فقالا: المطالبة بدم عثمان قالا: ألم تبايعا عليا؟ قال: والسيف على رقابنا، فنصح للجميع عمران وأبو الأسود فلم يسمعوا النصيحة. فرجع الرجلان إلى ابن حنيف فأخبراه بما حدث فاستشار أصحابه، فأشار عليه البعض بمسالمة القوم حتى يأتي الخليفة، فأبى وجهز نفسه وتقابل الفريقان، ونشب القتال ودارت معركة حامية انجلت عن قتل جميع من ساهم في التحريض على عثمان بالقول أو الفعل من أهل البصرة. سوى حرقوص بن زهير السعدي فإن عشيرته من بني سعد منعوه لما التجأ إليهم بعد هزيمة أصحابه، وقبض على ابن حنيف وضرب بالسياط وأرادوا قتله لولا أن السيدة عائشة أمرت بإخلاء سبيله بعد أن حلق القوم لحيته وحاجبيه، وأشفار عينيه، فمسخوه مسخا لا يقره الإسلام في غير مسلم. فذهب عثمان إلى المدينة، وعسكرت السيدة عائشة ومن معها بالفرضة من

البصرة، ثم كتبت هي وطلحة والزبير إلى الأمويين بالشام، ومن على رأيـــهم بالكوفة. وبهذا النصر المؤقت، وطلبوا إمدادهم بالجنود والمال.

أما الخليفة: فقد وافته الجنود بذي قار التي نزل بـــها. علـــى أهبـــة واستعداد للسير إلى البصرة وبلغ ما اجتمع لعلي (١٢ ألفا).

ولما انتظم عقدهم بذي قار دعا علي القعقاع بن عمرو. وكـــانت لـــه صحبة فقدمه إلى البصرة ليلقي بها أم المؤمنين وطلحة والزبير، ويعرف مـــا عندهم. فسار إليهم ولقيهم وحذرهم عاقبة الخلاف. وقال لهم فيما قـــال: لقـــد قتلتم بثأر عثمان ستمائة رجل. فغضب لهم ستة آلاف من قومهم. فماذا أنتـــهم صانعون غدا إذا ناجزوكم وانتصروا عليكم؟ إن الخير كـــل الخـــير فـــي أن تقنعوا بما أخذتم من ثأر عثمان وترجعوا إلى الجماعة وتبـــايعوا عليـــا فإنـــه أصلح للأمر، وأن أبيتم إلا مكابرة كانت علامة شر. فآثروا العافية ترزقوهـــا. وكونوا مفاتيح خير كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء فيصر عنـــا ويصرعكـــم. فأظهر القوم الاستحسان. وقالوا: ان جاء علي بمثل ما قلـــت صلـــح الأمـــر فرجع القعقاع إلى الخليفة وأخبره فحمد الله وأمر بالرحيل من ذي قار لعقـــد الصلح مع حزب السيدة عائشة. وأمر بالا يرتحل معهم أحد أعان على عثمان في شئ. ثم أرسل الخليفة إلى القوم: ان كنتم مقيمين على ما فـــارقتم عليـــه القعقاع، فكفوا واقرونا ننزل، وننظر في هذا الأمر: فـــنزلوا بالزاويـــة مـــن البصرة، وجميع المسلمين لا يشكون في الصلح وينتظرون الفـــرج لصـــالح الأمة. وبات الناس مغتبطين ماعدا فريق السبيئة فيروى أنهم باتوا شر ليلـــة خوفا عما عساه يحل بهم من العقوبة إذا ما هدأت الفتنة واستقامت الأمـــور. فباتوا يتشاورون ليلتهم واستقر رأيهم على نشوب القتال في السر فخرجوا مـــع الغلس، ووضعوا السلاح في حزب عائشة، فقال طلحة والزبير، ما هذا؟ قالوا

طرقنا أهل الكوفة ليلا، فقالوا: قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرم، وأنه لن يطاوعنا، وسأل الخليفة عما حدث: فقالوا له: يا أمير المؤمنين ما فجئنا إلا وقوم إلا وقوم منهم بيوتنا فرددناهم من حيث جاءوا ووجدنا القوم على قلب رجل واحد فغلبونا، فقال علي: قد علمت أن طلحة والزبير غير منهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة، وأنهما لن يطاوعانا.

وحينئذ لم يجد الفريقان بدا من القتال.

هذا ما رواه كثير من المؤرخين في سبب نشوب القتال، ولكن الدكتور طه حسين، يرى أن هذه القصة تخالف طبيعة الأشياء ولا يهضمها إلا السذج، وأنها لا تحتاج إلى كثير عناء في ردها ويستبعد أن تدبر الخيانة في معسكر علي، وهو لا يشعر، ويقول: وإنما الوجه الذي يلائم طبيعة الأشياء هو أن القوم التقوا عند البصرة ووقف بعضهم لبعض، فتناظروا فلم تغن المناظر عنهم شيئا فكان ما لم يكن بد أن يكون، (الفتنة الكبرى ج٢) (علي وبنوه ٤٦ و ٤٧).

ونحن نرى ان الذي يسير مع طبيعة الثورات والحروب ويشاهد في مختلف العصور أن الحروب تنشب بسبب أشياء صغيرة يقوم بها أفراد لهم أغراض ومآرب، فيلتبس الأمر على القواد فتكون الحرب العامة وهذا في رأينا ما كان فان البصريين والكوفيين الذين اشتركوا في حصار عثمان خافوا على أنفسهم إذا ما تم الصلح، ويبدو لنا أن المؤرخين أطلقوا اسم السبيئة على جميع الثوار لأعلى من تشبع بمبادئ ابن سبأ فقط، وأيا ما كان فقد وقعت الواقعة وقتل في أثنائها الزبير وأصيب طلحة بجرح مميت أودى به فيما بعد.

وقد أدت خسارة القائدين إلى هزيمة جيش البصرة، وكانت عائشة في هودجها في مؤخرة الجيش فمر به المتقهقرون وجيش علي يتعقبــهم فأحــاط البصريون بالجمل حتى لا يصاب بأذى، ودارت موقعة حامية حولــه مــات فيها الكثير من أعوان على محاولتهم الوصول إلى لواء عائشــة والاســتيلاء عليه.

ولما رأى على كثرة القتلى حول الجمل أرسل إليه من عقره، فســقط وسقط الهودج، ثم أمر علي بحمله إلى ناحية بعيدة عن ميدان القتال. حتــى لا تصاب أم المؤمنين بأذى، وبقيت عائشة في هودجها إلى الليل، ثــم جاءهــا أخوها محمد بن أبي بكر فأدخلها دارا من دور البصرة فأقامت بها أياما. ثــم أرادت الارتحال فجهزها علي بكل ما ينبغي لها من مركــب وزاد ومتــاع، وأختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة، وسير معها أخاها محمد بن أبــي بكر وحدث بينه وبينها عتاب، وقالت للناس: إنه والله ما كان بيني وبين علــي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحماها (أقارب زوجها) وانه على معتبتــي لمن الأخبار: فقال علي: صدقت وبرت وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.

ولما حانت ساعة الرحيل ودعها على نفسه وسار بجــانب الــهودج حتى خارج المدينة وسير أولاده معها مسيرة يوم، وشيعها الناس وكان ذلــك في غرة رجب سنة ٣٦ هـــ. فسارت إلى مكة وأقامت بها إلى موسم الحج ثـم توجهت إلى المدينة. ولم تتدخل بعد هذه الحادثة في الشئون السياســية، بـل بقيت بالمدينة مرجع المحدثين حتى ماتت سنة ٥٨ هـــ.

ج – ما قام به علي بعد المعركة :

انتهت معركة الجمل وكان عدد القتلى نحو عشرة آلاف وقتـل فيـها الكثير من خيار المسلمين، وحزن لذلك أشد الحزن. فكان يتعرف القتلى مـن أصحابه ومن خصومه، ويتوجع لأولئك وهؤلاء، ويترجم عليها جميعا.

وكان يقول: إن من قاتل فقتل وهو لا يريد بقتاله إلا الحق، ولا يبغـي إلا رضى الله فهو شهيد.

ولما جئ إليه بسيف الزبير دعا علي من قتله، وذكر مواقف الزبـير يوم أحد. وقد اشتد على أصحابه في ألا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا فـارا، ولا يدخلوا دارا، ولا يهتكوا سترا، ولم يقسم بين أصحابه غنيمة إلا ما أجلـب به أهل البصرة من خيل أو سلاح لم يكن ملكا لبيت المال، بل تجـاوز إلـى أبعد من ذلك. فأمر بجمع ما ترك أهل البصرة فـي الميـدان وحملـه إلـى المسجد، ونادى مناديه في الناس، من عرف منه شيئا فليأخذه.

وصلى على القتلى جميعا من أنصاره ومن خصومه، وأذن للناس في دفن موتاهم، وجمع الأطراف الكثيرة فاحتفر لها قبرا كبيرا ودفنها فيه، وأقـام في معسكره خارج البصرة فلم يدخل المدينة إلا بعد ثلاثة أيام وحين دخلـها جاء إلى المسجد فصلى فيه، وجلس للناس فبايعوه، ثم عمد بعد ذلك إلى بيـت المال فقسم ما وجد فيه بين الناس وأقبل على معاملة النـاس جميعـا علـى السواء، فلم يحاول معاقبة زعماء الحرب الذين انضموا إلى عائشة وجيشـها وقد أغضب فعله هذا كله شيعته، ولكنه لم يكترث لهذا ومضى في طريقـه، ولا عجب فهو ربيب النبوة.

د – نتائج موقعة الجمل :

كان لهذه الموقعة نتائج بعيدة الأثر في الإسلام والمسلمين، وإليكم أهمها:

أولا : كانت موقعة الجمل نكبة للإسلام وأهله فقد قضت على حياة الألوف من الأعلام، كان الإسلام في حاجة إلى تعاونهم وتناصرهم، وأنقصت عدد المسلمين نقصا عظيما من غير حرب ولا فتح من أجل الإسلام.

ثانيا : حدوثها سهل على المسلمين فيما بعد ان يقف بعضهم قبالة بعض متحاربين يستحل كل دم الآخر، بعد ان كان هذا الموقف مستحيلا. فكانت فاتحة المعارك الكبرى بين الأحزاب الإسلامية، وأكبر دليل على اتساع الفتق وتعاظم الداء، وصدق من قال من أصحاب النبي حين بلغه قتل عثمان: لقد كنتم تحتلبونها لبنا، ولن تحلبوها منذ اليوم. إلا دما.

ثالثا : نظرا لمركز المتحاربين الديني. سوغ ضعاف الإيمان من الفريقين لأنفسهم الطعن في خصومهم، وحملهم ذلك على وضع الأحاديث وتزوير الأخبار، فكانت بداية سيئة لتمكين الفرقة بين المسلمين بمرويات اكتسبت فيما بعد صبغة دينية.

رابعا : وقوع كثير من رجالات قريش صرعى في الميدان. كان خسارة كبرى لأنه أضعف القريشيين وأصحاب ألقدمة والسابقة في الإسلام، في حين أنه لم ينقص عدد الأعراب البدو والذين ما فتئوا من أيام أبي بكر

يحاولون إسقاط قريش عن مكانتها وإضعافها. فكانت تلك الخسارة أول تمهيد للحصول على ما يريدون.

خامسا : سخط الكثير من العرب على قريش ورجالها، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم أوردوا أبناءهم موارد الحتوف.

سادسا : كان نصر علي فيها نصرا لعرب البادية على عرب الحجاز وللكوفة على البصرة. فكانت بداية للعصبية الإقليمية التي نرى أثرها في العلوم والآداب وكل ما يتصل بالحياة.

سابعا : فرقة الكوفة التي قدمت للنجدة أصبح علي يحسب لها حسابا.

ثامنا : انتقلت عاصمة الإسلام إلى الأبد عن مهدها (المدينة).

تاسعا : يرى الدكتور طه حسين أن هذه الموقعة كانت مصدرا خصبا لخيال القصاص والشعراء حتى أسرفوا في القصص وأضافوا من روائع الشعر والرجز إلى المقتتلين ما لم يقولوا إلا أقله وهم مع ذلك لم يبلغوا وصف هذه الموقعة البشعة الشنيعة (علي وبنوه ص ٥٥).

عاشرا : وإذا كانت هذه الموقعة انتصارا حربيا لعلي، فإنها لم تكن كذلك من ناحية السياسة، فقد قويت دعوى معاوية، وأصحاب ثارات عثمان ضد الخليفة في إيوائه قتله عثمان في جيشه، فخسر بذلك عطف كثير من المسلمين في الحجاز والشام ومصر مع اعتقادهم بأهليته للخلافة، وشغلته

الموقعة عن الخصم الأعظم وهو معاوية الذي انفرد بالشام فاســتفحل أمــره وعظم خطره، لأنه راح يحكم أمره ويدبر شأنه على أحكم وجه وأتم اســتعداد للصراع الهائل الذي علم أنه سيكون بعد.

وأخيرا مهما يكن من أمر موقعة الجمل فهي مما تلاها مــن موقعــة صفين وغيرها كجرعة من ماء وكقطرة من بحر.

موقعة صفين

بعد استقرار الأمور في البصرة ولى علي أمرها عبد الله بن عبــاس، وارتحل إلى الكوفة فجعلها مقر حكومته، وفي الكوفة بدأ علي يحول اهتمامــه إلى الشام، لأنه بعد الانتصار في موقعة الجمل انحصر النزاع بينـــه وبيــن معاوية بن أبي سفيان الرابض بالشام ومعه قوة عظيمة أطوع له من بنانـــه، فوجه جرير بن عبد الله البجلي إليه يدعوه للبيعة والدخول في طاعتـه، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته.

وصل جرير إلى معاوية فكلمه ووعظه وألح عليه في الكلام والوعـظ ومعاوية لا يلتفت إليه وتركه مدة طويلة بلا جواب وفي هذه المدة كتب إلـــى عمرو بن العاص كتابا يذكر له. ويطلب منه القدوم عليه ليمده بالرأي فقـــدم عمرو على معاوية. وأشار عليه أن يلزم عليا دم عثمان. وأن يحاربه بجنـــد الشام إذا أبى، فوافق علي على ذلك. ورد رســـول الخليفـــة دون أن يعطيــه جوابا مكتوبا. وكل ما قاله له إنه مستعد للخضوع إذا قام علي أولا بمعاقبـــة قتله عثمان، فرجع جرير إلى الخليفة وأخبره بما قال معاويـــة، وأخــبره أن قميص عثمان لازال معلقا على منبر دمشق، وان أهل الشام قد آلى رجالـــهم

ألا يناموا على الفراش حتى يقتلوا قتلة عثمان، وكل من ظاهرهم فلم ير علـي أمام هذه الحال إلا المسير إلى معاوية وقتاله، وكون جيشا بلغ عـددده نحـو خمسين ألفا أو تسعين ألفا على اختلاف الروايات. وكان مثله أو قريب منـه جيش معاوية وسار علي بجيشه في ذي الحجة من سنة ٣٦، وكانت خطتـه أن يزحف إلى أعالي العراق ليغزو الشام من شمالها فسار محاذيا دجلة حتـى وصل الموصل. ومنها اخترق ما بين النهرين حتى وصل الفـرات وعـبره الرقة ومنها قصد حلب فقابلته حاميات أطراف الشام في الطريق.

وكان معاوية عند سماعه بمسير علي قد أعد العدة وعين عمرو بـن العاص قائدا عاما فوصل عمرو إلى سهل صفين قبل علي فـأزل أصحابـه أحسن منزل وأرحبه وأقربه إلى شريعة الفرات، وأقبل علي في جيشه فـأنزل أصحابه بإيزاء أصحاب معاوية، فطلب علي من معاوية، أن يترك الماء حـرا يشرب منه الجيشان فأبى أصحاب معاوية ذلك فذهبت كتيبة من جيش علـي أجلتهم عن الماء، ولما أضر العطش رجال معاوية طلبوا المـاء فـأذن لـهم ودارت المفاوضات بين الفريقين دون أن ينتهوا إلى صلـح أو شـئ يشـبه الصلح، وكان القوم جميعا يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفـا من الاستئصال والهلاك.

ولما استيأس علي من خصمه عبأ أصحابه على رايتهم فكانت تخـوج فرقة من جيش العراق لها مثلها من جيش الشام فيقتتلون، وعلى هذه الحـال كان شأنهم في ذي الحجة.

فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلى انقضائـــه طمعـــا فـــي الصلـــح وسعت بينهم السفراء سعيا متصلا، ولـــم يـــأت مســـعاهم بفـــائدة، وانتـــهت المفاوضات كسابقتها بالفشل:

١) لأنها لم تقم على أساس معقول من الأخذ والعطاء فإذا كان علـــي يطلب من معاوية الكف عن الحرب والولاء للخليفة، فكان لابد من أن يعـــوف معاوية وضعه في العهد الجديد، وأن يأخذ شيئا في نظير مـــا يطلبـــه منـــه التنازل عنه.

٢) ولقلة خبرة الرسل بالسياسة وشدة ميلهم للحرب مما أفسد القلـــوب وزاد الفرقة.

٣) ولأن أكثرهم كان من ذوي الغلظة فكان ســـعيهم إثـــارة للشـــر والخصومة أكثر منه صلحا وإصلاحا، وظهر لأولئك وهؤلاء في غير شـــك ولا لبس أن ليس بد من أن يصدم الجمعان، فبات الفريقان ليلـــة أول صفـــر سنة ٣٧ هـــ يشتغلان بتعبئة الجيوش، وفي يوم الأربعاء أول صفر ابتـــدأت الحرب واستمرت سبعة أيام على الطريقة السابقة. فرقـــة لفرقـــة. ثـــم رأى الخليفة أن الحرب على هذا المنوال سيطول، فخرج بجميع جيشه فـــي يـــوم الأربعاء ٨ صفر وزحف إليه معاوية بجنود الشام فاقتتل الجيشان نهارهم كلـــه ثم انصرفوا عند المساء دون ان تكون الغلبة لأحد الفريقيـــن. ثـــم اســـتؤنفت الحرب في اليوم التالي، فكشف أهل الشام أهل العراق انكشافا بلغ الهزيمـــة أو كاد يبلغها ولكن البطل ابن أبي طالب ثبت ومعه جماعة من أصحابه ودعـــا الناس إليه وهيج الأشتر النعي الناس لخوض الغمرات فتابعوه وحمـــل بـــهم على الجموع المهاجمة فأزالها وألحقها بصفوف معاوية ولم يزل الأشتر فـــي

هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية. وكان معاوية يفر من المعركة، وكـــان يقول بعد ذلك أردت أن انهزم فذكرت قول ابن الإطنابة:

أبـــت لي عفتي وأبـــى بلائي	وإقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي	وأخذ الحمد بالثمن الربيـــح
وقولـــي كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمدي أو تستريحي

وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر.

ولما أمسى الليل على الفريقين لم ينفصلا بل اســـتمر القتـــال شـــديدا طول الليلة، وكانت ليلة مريرة مشئومة. وكانوا يسمونها بليلة الهرير، تشـــبيها لها بليلة القادسية، حتى إذا أصبح الصباح أخذ الأشتر قائد الميمنـــة العراقيـــة يزحف بفرقته إلى الإمام وكان النصر قد بدأ يكون لجيش علي.

طلب التحكيم :

ولما رأى معاوية أن كفة أهل العراق قد رجحت نادى عمـــــرو بـــن العاص، وقال له هات ما عندك من المكيدة: فأشار عليه برفـــــع المصـــاحف على أطراف الرماح ونادى منادي معاوية: هذا كتاب الله بيننا وبينكـــم مـــن لثغور الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق.

ولما فعل أهل الشام ذلك وقع الخلاف فـــي صفـــوف جيـــش علـــي واشتجرت الآراء ففريق يرى أنه ينبغي قبول هـــذا العـــرض لأنـــهم إنمـــا يحاربون لإعلاء كلمة الله وقد دعوا إليها، وكان علـــى رأس هـــذا الفريـــق الأشعث بن قيس الكندي وفريق آخر يرى وجوب مواصلة القتال لأنها خدعـــة حربية لجأ إليها معاوية وأصحابه حينما أحسوا بالهزيمة وكان على رأس هـــذا

الفريق الخليفة، وكان النصر قاب قوسين أو أدنى لأهـــل العـــراق فالأشـــتر النخعي كان لا يزال يقاتل ولكن الأشعث وحزبـــه أجـــبروا الخليفـــة علـــى استدعائه وقت النصر فاستدعاه، وحدثت مناقشة عنيفة بين أنصـــار التحكيـــم وخصومه في نهايتها قبل علي التحكيم مرغما - لأن أغلب جنده كان يـــرى قبوله - وجاءه الأشعث وقال له: أذهب إلى معاوية فأعلم يريد؟ فقـــال علـــي أذهب حيث شئت. ثم انتحى علي ناحية يندب حظه في جنـــود لا يطيعونـــه، وذهب الأشعث إلى معاوية وسأل عما يريده برفع المصاحف، فاقترح تحكيـــم القرآن فيما بينهما، واختيار رجل من كل الفريقين للقيام بذلك التحكيم، فرجـــع إلى علي وأخبره فقبل علي كره.

ولما جاء وقت اختيار الحكمين اختارت الجنود الشامية عمـــرو بـــن العاص واقترحت الجنود العراقية أبا موسى الأشعري وأصرت على اقتراحها رغم عدم رضا علي عنه ورغم اقتراحه هو بأن يكون الحكم عبـــد الله بـــن عباس أو الأشتر النخعي. وكان مما قالوه له في شأن ابن عباس، لا نريـــد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء وفي شأن الأشتر، وهل سعر الأرض غـــير الأشتر؟

وكذلك لم تفلح محاولات الأشتر والأحنف بن قيـــس فـــي أن يكـــون أحدهما الحكم أو مساعدا للحكم.

رأى علي عصيانهم واضحا فقال: اصنعوا ما تريدون، فبعثـــوا إلـــى الأشعري وكان قد اعتزل للقتال وأخبروه بالصلح وباختياره حكما فأقبل حتـــى دخل المعسكر.

عقد التحكيم :

ثم كتب عهد التحكيم بين الطرفين المتنـــازعين ومـــؤداه أن يتعـــهد الحكمان بالرجوع إلى القرآن الكريم لإيجاد حل يرضى به الطرفان فإن لـــم يجدا ما يعملان به رجعا إلى السنة العادلة الجامعة غير المفرقة، وأن يقـــف القتال، ويأمن الناس على أنفسهم وأهليهم وأموالهم حتى يفصل الحكمان فـــي القضية، وأن يأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على مـــا في هذه الصحيفة، وأن يجتمع الحكمان في شهر رمضان من نفـــس الســـنة، بدومة الجندل أو بأذرح من دومة الجندل - منتصف المســـافة بيـــن الشـــام والعراق - وأن يرسل كل من علي معاوية أربعمائة من الأتباع والأصحـــاب ليشهدوا ما يتم الاتفاق عليه.

هذه أهم نصوص الاتفاق، فرجعوا عقد التحكيم فـــي الخضـــري ج٢ ص ١٠١ و ١٠٢ أو في تاريخ الإسلام السياسي ج٢ ص ٣٧٩ و ٣٨٠، وقد شهد عليه جماعة من أنصار معاوية، وجماعة من أنصار علي، ولـــم يشـــهد عليه الأشتر، وكان تاريخه ١٣ أو ١٥ صفر سنة ٣٧ هـــ.

حدث كل ما تقدم في ميدان القتال، وكان ذلك نهاية معركـــة صفيـــن التي قتل فيها تسعون ألفا من المسلمين.

وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الإســـلامية من أوائل أيام الجهاد في عهد الرسول إلى تاريخ صفيـــن، وكـــانت نتيجتـــها زيادة الفرقة بين المسلمين وخاصة جند علي، وبعد أن كتب عقد التحكيم عـــاد علي بجنده إلى الكوفة، وعاد معاوية بجنده إلى الشام.

لما حان أجل اجتماع الحكمين وهو رمضان بعث علي بن أبي طالب أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي وعبد الله بن عباس يصلي بهم ويلي أمورهم، وأبو موسى الأشعري معهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل وعسكر الطرفان، وانفرد الحكمان بعيدا عن المعسكرين في أذرح القريبة من دومة الجندل وهي كالضاحية لها، فتشاورا واتفقا ثم ذهبا يعلنان ذلك للمعسكرين في دومة الجندل، وهنا تختلف الرواية فيروى المسعودي ج٢ ص ٢٧، أن الحكمين كتبا وثيقة اتفقا فيها على خلع علي ومعاوية، وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى، يختار الناس من يريدون.

ويرى الطبري ج٦ ص٢٩، أن الحكمين جرت بينهما مناقشات تدل على انهما اتفقا على خلع المتنازعين، واختلفا فيمن يخلفهما وحينئذ اتفقا على ان يكون الأمر شورى بين المسلمين يولون من رضوا ولم يكتبا وثيقة وخرجا لإعلام الناس بذلك، وكان عمرو يظهر دائما تقديم أبي موسى وإكباره لسبقه إلى صحبه النبي ولسنه أيضا، فتقدم أبو موسى وخطب فبين أن رأيهما قد اجتمع على خلع علي ومعاوية، وعلى المسلمين أن يستقبلوا أمرهم من جديد، ثم تلاه عمرو. فقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان، فشتمه أبو موسى، وماج القوم، وأقبل شريح بن هانئ رئيس الوفد من أصحاب علي فضرب عمرا بسوطه، وقام محمد بن عمرو فضرب شريحا بسوطه، وأقبل الناس فحجزوا بينهما، وانطلق أبو موسى فركب راحلته وسار بها إلى مكة، وعاد أهل الشام إلى معاوية، وسلموا عليه بإمرة المؤمنين.

أي الروايتين نرجح ؟

نرى أن رواية المسعودي أقرب إلى المعقول، لأنها تنسجم مع سير الحوادث، وتلائم شخصية الصحابي الجليل (الأشعري)، الذي كان مؤسسا لإحدى مدارس الفقه، ولا يصح رميه بالغفلة وقصُور الرأي، ولأن رواية الطبري من أنه حدثت خطبة فقط وأن الخديعة تمت على أبي موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئا لان الذي ثبته إنما هو حكمه فقط، وفي أي شئ ثبته؟ والذي يلزم الأمة إنما هي الوثيقة لا مجرد الكلام، ولو حدث ما يقوله الطبري، ورأى القوم غدر عمرو لوقعت ملحمة بين الفريقين، ولما اكتفى أنصار علي بضرب عمرو بالسوط.

نتائج التحكيم :

١ - ربح معاوية هدنة أنقذته من هزيمة محققة، وعاد إلى دمشق بجند موحد الكلمة، وأعطته مدة الهدنة (ستة شهور) فرصة نظم فيها قواته واستعد للنضال من جديد. بينما خسر علي نصرا كان في يده، وخسر طاعة جنده له ووحدتهم، فقد أرغمته الأكثرية على قبول التحكيم أولا. ثم عاد فريق منهم يقول: لقد كفرنا بقبول التحكيم وتبنا، ودعوه إلى نقض العهد، وكان يوجد فريق آخر يرى خطأ علي لأنه لم يقاتل معاوية بمن أطاعه ويترك من عصاه.

٢ - لا يمكن لوم علي على قبول التحكيم أول الأمر لأن هذا كان رأي الأكثرية من جيشه، ولا على اختيار الأشعري لأن القوم هم الذين اختاروه وكان الزمام قد افلت من يد علي في الحقيقة، وكل ما استطاعه ان

يعلن أن الأشعري لا يثق به لأنه خذل الناس عنه واعتزل القتال، وأنه ليـــس ندا لعمرو بن العاص.

٣ - كان موضوع النزاع إنما هو ثأر عثمان. فقد طلب علي البيعـــة من معاوية فاشترط الثأر لعثمان أو تسليم القتلة، ومعنى هذا تســـليم معاويـــة لعلي بالخلافة فكان يجب تعيين اختصاص وقصر حكمهم على ما قام بســـببه الخرب. ولكنا رأينا الحكمين تحدثا في الخلافة، فخرجا على أساس الـــنزاع، وطبعي أن هذا ما أثاره عمرو بن العاص، ولا شك ان معاوية كان يرنو إلـــى الخلافة.

٤ - لم يكن وراء الحكمين قوة تستطيع تنفيذ ما يتفقان عليه فقد اتفـــق الحكمان على خلع علي ومعاوية، وان يستقبل المسلمون أمرهم مـــن جديـــد، ودونا ذلك في صحيفة. بيد أننا نرى أن الفريقين لم يذعنا لهذا الحكم، مـــع ان الحكمين قد فوض إليهما الفصل في هذا الخلاف.

٥ - لاشك أن مجرد رد الخلافة إلى الشورى كان من الناحية العمليـة في صالح معاوية دون علي. فقد رفع الأول إلى مرتبـــة الثـــاني، وجعلـــهما متساويين. وقد استغل معاوية التحكيم ونتيجتـــه اســـتغلالا طيبـــا، لتحقيـــق أغراضه، والوصول إلى الخلافة. بينما لم يجن علي من قبول الهدنة ونتيجـــة التحكيم إلا كل ما أضر بمركزه أبلغ الضرر. فقد انقسم جيشه عليه وانقلـــب من كانوا بالأمس أنصاره خصوصا ألداء خرجوا عليه وحاربوه وهـــم مـــن سموا بالخوارج.

الخوارج :

كان قبول علي التحكيم سببا في خروج فريق من جيشه عليه، كـــان يرى ذلك الفريق أن التحكيم خطأ لأنه يتضمـــن شـــك كـل مـــن الفريقيـــن المتحاربين أيهما المحق، وليس يصح هذا الشك لأنهم وقتلاهم إنمـــا حـــاربوا وهم مؤمنون – بلا شك – أن الحق في جانب عليٍّ لأنه إمـــام بويـــع بيعـــة صحيحة وأن معاوية وأصحابه بغاة يحب قتالهم، وقد بين الله حكم البغاة فـــي عبارة واضحة لا يعتورها لبس ولا خفاء فقال "قاتلوا التي تبغي حتى تفئَ إلـى أمر الله " فكان الأجدر بعلي أن يمضي في حرب معاويـــة وجماعتـــه حتـــى يدخلوا فيما دخل فيه عامة المسلمين أو يقتلوا عن أخرهم، ولا يصح إغمـــاد السيوف بعد ما شهرت، ولا يجوز تحكيم الرجال في الدماء، والعـــدول عـــن حكم الله إلى حكم الرجال، وهذه المعاني صاغها عروة بن أدية – من بنـــي تميم – أو غيره في عبارة "لا حكم إلا لله" وصاح بها في وجه الأشعث حينمـا جاء يتلو عليهم كتاب التحكيم، وحمل بسيفه على الأشعث فأخطئـــه وأصـــاب عجز دابته وكاد الشر يقع لولا أن أسرع عقلاء بني تميم فاعتذروا للأشـــعث وقومه فكان عروة أول من حكم، أي نطق بهذا القول ولـــذا ســـمي هـــؤلاء بالمحكمة أو "المحكمة الأولى" وسرت عبارة لا حكم إلا لله كما يسري الـــبرق أو كما تسري النار في الهشيم إلى كل من يعتنق هذا الرأي.

أذن مؤذن علي في أصحابه بالرحيل عن صفين فرجعوا إلى الكوفـــة شر مرجع، خرجوا منها أشد ما يكونون إلفا ومودة وتصافيا، وعـــادوا إليـــها أشد ما يكونون موجدة وفرقة واختلافا يتشاتمون ويتضاربون بالسياط تقـــول القلة للكثرة خالفتم أمر الدين وانحرفتم عن القرآن وحكمتم الرجـــال فيمـــا لا حكم فيه إلا لله وتقول الكثرة للقلة خالفتم الإمام، وفارقتم الجماعة ثم لم يدخلوا الكوفة جميعا كما خرجوا منها جميعا، وإنما انحازت المحكمة إلى حـــر وراء

- ضاحية من ضواحي الكوفة تبعد عنها بميلين - وكانوا يبلغون أثنى عشـــر ألفا فنسبوا إليها وقيل لهم حرورية كما عرفوا بالمحكمة، أما لفظ الخوارج فقد أطلق عليهم من خصومهم لخروجهم على علي أو خروجهم إلى المدائـــن أو لمفارقتهم الجماعة أو أطلقوه هم على أنفسهم لأنهم فيما يعتقدون خرجوا فـــي سبيل الله أخذ من قوله تعالى "ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله" وقد سموا أنفسهم في العـــهد الأمـــوي باسم جديد هو الشراة أي الذي شروا أنفسهم أي باعوها في ســـبيل الله الـــذي يقول "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله" وأياما كان الاســـم فقـــد نشأ في الإسلام حزب جديد كان له في تاريخه أثر بعيد، ولما نزلـــوا بحـــر وراء نادى مناديهم: إن أمير القتال شبث بن ربعي، وأمير الصلاة عبد الله بـــن الكواء اليشكري والأمر شورى بعد الفتح والبيعـــة لله عـــز وجـــل، والأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عز علي أمير المؤمنين على أن ينفصل هؤلاء عن جنـــده وأراد أن يأخذهم باللين والحسنى حتى لا يزيد أمره اضطرابا، فأرسل إليهم ابن عبـــاس فجادلهم وجادلوه، وفي أثناء مجادلتهم لأبن عباس جـــاءهم الخليفـــة بنفســـه وناظرهم فأوضح لهم موقفه من الدعوة إلى التحكيم وكراهيته له، ثم قال لهم: اشترطت ان يحكم الحكمان بما في القرآن فان خالفا لم نلتزم بحكمهما، فنحـــن إنما حكمنا القرآن لا الرجال، والقرآن خط مسطور بين دفتين لا ينطق وإنمـــا ينطق به الرجال ادخلوا مصركم يرحمكـــم الله. (راجعـــوا المنـــاظرات فـــي الخضري ج٢ من ١٠٦ - ١٠٨، وتاريخ الإســـلام السياســـي ج١ ص ٣٨٦ وكتب الفرق) فأطاعوه ودخلوا الكوفة، ولكن الشقاق كان متمكنا من نفوســـهم فقد جاءوا إليه يطالبونه بالرجوع عما أبرمه مع أهل الشام فـــأبى أن يجيبـــهم إلى ما طلبوا وفاء بالعهد والميثاق فالله تعالى يقـــول: (وأوفـــوا بعـــهد الله إذا

عاهدتم). فغضبوا وأكثروا من قولهم: لا حكم إلا لله. وبينما هو يخطب بمسجد الكوفة قاطعوه بهذا النداء الذي تجاوبت به جنبات المسجد. فقال علي: "كلمة حق أريد بها باطل إن لكم عندنا ثلاثا: لا نمنعكم من الصلاة في هذا المسجد، ولا نمنعكم نصيبكم من الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا ولا نقاتلكم ما لم تقاتلونا".

وهكذا كان نظر علي إلى الخوارج لم يكفرهم لاختلافهم معه في الرأي والسياسة، ولم يجعل هذا الخلاف موجبا للفرقة. وترك لهم حرية اتخاذ الرأي الأخير في تقرير الحرب أو السلم معه. وكان بذلك عادلا في حكمه إلى أبعد غايات العدالة.

أول إمام للخوارج :

وبعد ذلك اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الرأسي فخطبهم وزهدهم في الدنيا ودعاهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنكار البدع والضلالات إيثارا لوجه الله والدار الآخرة، ودعاهم إلى الخروج من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو بعض المدان، وأشار عليه أحدهم أن يولوا أمرهم رجلا منهم فعرضوها على كثيرين فرفضوها وقبلها الرأسي وقال: لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت، فبايعوه لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ هـ أي بعدما عرفوا نتيجة التحكيم. ثم اتفقوا على ان يخرجوا وجدانا مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهروان – والنهروان كورة واسعة بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي – فتسللوا فرادى إلى النهروان وبلغ عددهم ستة آلاف، وبعد هذا الخروج وعلم الإمام بما حدث في التحكيم أراد أن يعيد الكرة على أهل الشام. فكتب إلى الخوارج بالشخوص معه إليه أما بعد فانك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فان

شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينـــك وإلا فقــد نابذناك على سواء ان الله لا يحب الخائنين. فلما وصلته تلك الرســالة قطــع الأمل من معاونتهم له وأخذ يستعد للقاء معاوية فجد في جمع الجيش وخــرج حتى عسكر بالنخيلة، وكتب إلى ابن عباس يطلب منه ان يستنفر أهل البصـرة فدعاهم فاثاقلوا ولم يخرج منهم سوى ألف وخمسمائة مع الأحنف بن قيــس، فوجه الطلب إلى أهل الكوفة وبعد جهد اجتمع له نحو ثمانية وستين ألفـــا أو سبعين ألفا، ولما أراد المسير إلى الشام بلغه أن بعض أتباعه يقول: لو ســار بنا إلى هذه الحرورية (الخوارج) فبدأنا بهم فإذا فرغنا منـــهم توجــهنا إلــى الشام. فقام فيهم خطيبا وبين لهم قتال أهل الشام أهم، فنادى الناس: يا أمــير المؤمنين سر بنا إلى ما أجبت، وبينما هو قد تهيأ للخروج إلى الشام بلغــه أن الخوارج قد جاوزوا حدود الاعتدال. ولم يراعوا في أهل العراق إلا ولا ذمــة فسفكوا دماء نفر منهم وقتلوا الصحابي عبد الله بن خباب وزوجه وهى حــامل متم لأنه قال: خيرا في الأربعة الراشدين. فوجه إليهم على رسولا ليعلم جليــة الأمر فقتلوه، فجل الخطب بذلك عن أن يسكت عليــه، وطــالب العراقيــون بالحاف ان يبدءوا بالخوارج قبل أهل الشام فأجابهم علي إلــى ذلــك وســار إليهم، ولما قاربهم طلب منهم أن يدفعوا إليه القتلة على أن يكف.عنهم فــأبوا وقالوا: كلنا قتلهم وكنا يستحل دماءهم. فأمر الخليفة أبا أيوب الأنصــاري أن ينصب راية ثم قال: "من تقدم إلى هذه الراية فهو آمن، ومن دخل الكوفة فـهو آمن، ومن رجع إلى المدائن فهو آمن إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيــب قتلــه إخواننا منكم في سفك دمائكم" فانصرف منهم جمع وخرج إلى علــي جمــع وبقى مع أبن وهب ٢٨٠٠ صمموا على الخلاف. فدارت رحى الخرب بيــن الفريقين، وانتهت في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من كان معه فكــانت موقعة النهروان شبه قاضية على الخوارج، وفر من استطاع الفرار منهم إلـى البحرين والاحساء حيث كونوا نواة تلك الفئة المتعصبة التــي كــانت شــرا

ووبالا على ابن أبي طالب فعلى صخرتهم تحطمت سفينة آماله، فقد حملوه على أن يبذل من الجهود ما كان في حاجة ملحة إلى صرفه في قتال معاوية.

ولما فرغ علي من أمر الخوارج وأراد التوجه إلى الشام تخاذل عنه شيعته وقالوا له: نفدت نبالنا وكلت سيوفنا فارجع إلى مصرنا نستعد. فعسكر هو بالنخيلة، وأمر الناس أن يلزموا عسكرهم، وأن يوطنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يقلوا من زيارة أهلهم، وأوصاهم بالجد حتى يسيروا إلى عدوهم، فأقاموا بالمعسكر أياما ثم تسللوا منه إلى المدينة فبات المعسكر خاليا إلا من عدد يسير من وجوه الناس لا غناء فيه فلما رأى علي ذلك دخل الكوفة وأنكسر عليه رأيه في المسير وقام بينهم خطيبا يقرعهم ويندد بهم فلم يجد سميعا، وصار في جند ضعف سلطان إمامهم في أنفسهم، وفضلوا الراحة على حياة الطعن المريرة.

هذه كانت حال أهل العراق مع خليفتهم، أما حال أهل الشام مع معاوية فكانت على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة، وازداد معاوية قوة بعد التحكيم، ثم عظمت قوته بعد خروج الخوارج على علي فبايعوه الشاميون بالخلافة وأخذ يستعد لانتزاع ما تحت يد علي من أقاليم.

معاوية ومصر :

وكان أخوف ما يخاف مصر لأنها متاخمة له وهي مورد عظيم للجنود فهو لا يأمن جيش يتحرك منها فيقع بينه وبين ما عساه أن يطرقه من جيوش العراق، ولان القائم بأمرها من سنة ٣٦ بطل من أبطال الحرب والمكيدة هو قيس بن سعد بن عبادة، فشرع يدير الحيل والمكايد للاستيلاء عليها فبدأ بمكاتبة قيس، وجعل يمنيه تارة ويخوفه أخرى ليعرف ما عنده

فوجده شديدا لا يلين، ولا يميل وجعل يمنيه تارة ويخوفه أخرى ليعرف مـــا عنده فوجده شديدا لا يلين، ولا يميل ليه، فعمد إلى الحيلة لإيقاع الخلاف بيـن علي وقيس فأشاع في الشام أن قيسا يتابعه وأن كتبه تأتى إليه وليس أدل على ذلك من مسالمته للعثمانية في خربتا فنقلت العيون إلى الخليفة ما سمعوه عـن قيس فاتهم قيسا، وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا وهم يومئذ عشـــرة آلاف فرد عليه ان حربهم ليس برأي وليس من السياسة في شـئ فـأبى علـي ألا يقاتلهم، وكتب إليه إن كنت تتهمني فاعزلني عن عملك وابعث إليـه غـيري فعزله وولى على مصر محمد بن أبي بكر فسارع بقتال أهل خربتـا فثـارت عليه مصر، واضطرب عليه أمرها فاضطر الخليفة إلى عزله وتولية الأشـتر النخعي فرأى معاوية أن الأشتر في مصر يكون شرا من قيـس ابـن سـعد فأرسل له رجلا ترصد له في الطريق عند القلزم ودس له السم فـي طعامـه فمات ولم يدخل مصر. ثم جهز معاوية جيش لغزو مصر وأمر عليـه ابـن العاص فسار إليها وانضم إليه العثمانية وصنائعه فيها وانتزع عمرو مصـر من يد محمد بن أبس بكر وقبض عليه وقتل وهو في أشد حـالات العطـش ويروى أنهم احرقوا جثته في جيفة حمار وبذلك أصبحت مصر ولاية أمويـة، وهي أهم ولايات الدولة بعد العراق فخسر علي بذلك كثـيرا مـن النواحـي السياسية والحربية والاقتصادية وكان ذلك أبرز أحداث سنة ٣٨ هـ.

ومعاوية يضم بلاد أخرى :

لم يقنع معاوية بما احتازه من شذا المغرب (مصر) وإنمـا أطعمـه انتصاره واجتماع أصحابه عليه وطاعتهم له وكيده لعلي في العراق ضم بـلاد أخرى فأرسل جيوشا للإغارة على ما بيد علي من الأمصار فأرسل النعمـان بن بشير إلى عين التمر فاستولى عليها، وأرسل سفيان بن عوف إلـى هيـت وإلى الأنبار والمدائن. فسار حتى هيت فلم يجد بها أحد فاستولى عليها ثم أتى

الأنبار وبها مسلحة لعلي فغلبهم علي أمرهم وأخذ ما بها من الأموال وعـــاد لمعاوية ووجه الضحاك بن قيس للإغارة على بوادي البصرة، ووجه بسر بـن أرطاة وكان جبارا إلى الحجاز فملك المدينة ومكة وبايع أهلهما لمعاويـــة ثـم أتى اليمن وعليها عبيدة الله بن عباس فلما علم به عبيدة الله، فر إلى الكوفـــة فاستولى بسر على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيدة الله. وكان ذلك سنة ٣٩، وهكذا تم لمعاوية الاستيلاء على أكثر الأقطار وأهل العـــراق فـــي تخـاذل، وعلي رضى الله عنه يعمل على إثارة حماسهم بخطبه البليغة التي نجد الكثـير منها في نهج البلاغة ولا سميع. فلا عجب إذا رأينا الخليفة صـــاحب البيعـة يطلب الهدنة من معاوية في هذه السنة فيجيبه إليها علي أن يكون كل وأحـــد سيدا في جبهته، وفي موسم الحج كان لكل منهما نائب عنه يحج بالمسلمين.

مقتل الخليفة الرابع سنة ٤٠ هـ :

وبينما كان علي يجاهد حياته المرة تلك ويجاهد أصحابـــه ليحملـــهم على النهوض معه لحرب أهل الشام ويبعث البعوث لرد غارات معاوية علـــى أطرافه. ويجاهد الخوارج، ويجاهد عماله ليأخذهم بالأمانة في أعمالهم بينمـــا كان علي في هذا كله، كان نفر من الخوارج يشهدون موسم الحـــج ويـــرون اختلاف الحجيج من أصحاب علي ومعاوية فتذاكروا أمر الناس وعابوا عمـل ولاتهم، وذكروا مصارع إخوانهم الذين قتلوا في يوم النهروان وفيما تلاه مـن أيام فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم؟ فتعاقد ثلاثة منهم بجـــوار الكعبة على اغتيال علي ومعاوية وعمرو بن العاص الذين هم فـــي نظرهـــم أصل الاختلاف، وسبب الحروب، وعلى ان يكون ذلك الاغتيال في يوم واحد هو صباح ١٧ رمضان، وأخذ عبد الرحمن بن ملجم المرادي على عاتقه قتـل علي وأخذ البرك بن عبد الله على عاتقه قتل معاوية وتعهد عمرو بـــن بكـــر

التميمي بقتل عمرو بن العاص وأقاموا في مكة أشهرا ثم اعتمروا في رجب ثم تفرقوا لتنفيذ الاتفاق.

وفي ليلة الجمعة ١٥ من رمضان تسرع ابن ملجم ومساعدوه وتربصوا لعلي وهو خارج لصلاة الفجر فضربه ابن ملجم بالسيف في جبهته فبلغ دماغه وهو يقول: لا حكم إلا لله ولا لأصحابك يا علي. ففزع المسلمون بالمسجد إلى خليفتهم وهو يقول: لا يفوتنكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب، ودخل الناس على علي فقالوا له: ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن: فقال: ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر. ثم أوصى أولاده بتقوى الله، وعدم الاعتماد على من خذلوه، وتوفى يوم الأحد ١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ ودفن بالكوفة، وأما البرك فقد ترصد لمعاوية ثم ضربه بالسيف فلم يبلغ منه شيئا لأنه كان دارعا فيما يقول بعض المؤرخون أو لأنه لم يصب منه مقتلا فيما يقول بعضهم الأخر، وشد الناس على البرك فقتلوه، ومن ذلك الوقت أتخذ معاوية الحراس والحجاب والمقصورة في المسجد، وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو فلم يخرج لمرض ألم به وصلى بدله خارجة بن حذافة صاحب شرطته فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمرو، فلما عرف الحقيقة قال: أردت عمرا وأراد الله خارجة. وهكذا أخلت مؤامرة الخوارج الطريق نهائيا أمام معاوية وذهب ضحيتها أعلم أهل عصره وأشجعهم وأزهدهم في الدنيا. سيد أبطال المسلمين علي بن أبي طالب، وهكذا لقي أبو السبطين حتفه على يد الذين كان يعتز بتأييدهم له في الماضي القريب ومات المدافع الأخير عن الحياة السياسية الرفيعة التي تخضع السياسة للمثل العليا وهكذا مات غريبا عن القرية التي ولد فيها ودفن في مكان يختلف القدامى في تحديد موضعه أشد الاختلاف فهو لم يأنس للناس في حياته، فلما ودع هذه الحياة لم يأنس جثمانه إلى مكان.

نص للقراءة من كتاب الفتنة ووقعة الجمل

رواية

سيف بن عمر الضبي الأسدي

صفة القتال يوم الجمل:

قال القعقاع: ما رأيت شيئا أشبه من قتال القلب يوم الجمل بقتال صفين، لقد رأيتنا ندافعهم بأسنتنا، ونتكئ على ازجتنا، وهم مثل ذلك حتى لو أن الرجال مشت عليها لاستقلت بهم.

إنزال هودج عائشة:

أتى محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر عائشة، وقد عقر الجمل، فقطعا غرضة الرحل واحتملا الهودج، فنحياه حتى أمرهما علي فيه أمره بعد، قال: أدخلاها البصرة، فأدخلاها دار عبد الله بن خلف الخزاعي.

و أمر علي نفرا بحمل الهودج من بين القتلى، وقد كان القعقاع وزفر ابن الحارث أنزلاه عن ظهر البعير، فوضعاه إلى جنب البعير، فأقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه نفر، فأدخل يده فيه، فقالت: من هذا؟ قال: أخوك البر، قالت: عقوق. قال عمار بن ياسر: كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أمه؟ قالت: من أنت؟ قال: أنا ابنك البار عمار، قالت: لست لك بأم، قال: بلى، وإن كرهت. قالت: فخرتم إن ظفرتم، وأتيتم مثل ما نقمتم، هيهات، والله لن يظفر من كان هذا دأبه. وأبرزوها من القتلى، ووضعوها ليس قربها أحد، وكأن هودجها فرخ مقصب مما فيه من النبل، وجاء أعين بن ضبيعه المجاشعي حتى أطلعا في الهودج، فقالت: إليك لعنك الله! فقال: والله ما أرى إلا حميراء، فقالت: هتك الله سترك، وقطع يدك، وأبدا عورتك. فقتل بالبصرة

وصلب، وقطعت يده، ورمى به عريانا في خربة من خربات الأذد، فانتـــهى إليها علي، فقال: أي أمة، يغفر الله لنا ولكم، قالت: غفر الله لنا ولكم. " وفـــي رواية أخرى ".

انتهى محمد بن أبي بكر ومعه عمار، فقطع الأنساع عـــن الـــهودج، واحتملاه، فلما وضعاه أدخل محمد يده وقال: أخوك محمد، فقـــالت: مزمـــم، قال: يا أخية، هل أصابك شئ؟ قالت: ما أنت مـــــن ذاك؟ قـــال: فمـــن أذن؟ الضلال؟ قالت: بل الهداه، وانتهى إليه علي، فقال: كيف أنت يا أمـــة؟ قـــالت بخير قال: يغفر الله لك. قالت: ولك.

ولما كان من آخر الليل خرج محمد بعائشة حتى أدخلـــها البصـــرة، فأنزلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية ابنة الحارث بن طلحـــة بن أبي طلحة أبن عبد العزى بن عثمان بن عبـــد الـــدار، وهـــي أم طلحـــة الطلحات بن عبد الله بن خلف.

"وكانت الواقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سـنة ٣٦ في قول الوقادي ".

مقتل الزبير بن العوام:

لما انهزم الناس يوم الجمل عن طلحة والزبير، ومضى الزبير رضى الله عنه حتى مر بعسكر الأحنف، فلما رآه وأخبر به قال: والله ما هذا بخيـلر، وقال للناس: من يأتينا بخبره؟ فقال عمرو بن جرموز لأصحابه: أنا، فاتبعـــه، فلما لحقه نظر إليه الزبير - وكان شديد الغضب - قال: ما وراءك؟ قـــال: إنما أردت أن أسألك، فقال غلام للزبير يدعي عطية كان معـــه: إنـــه معـــد،

فقال: ما يهولك من رجل؟ وحضرت الصلاة، فقال ابن جرموز: الصلاة، فقال الزبير: الصلاة، فنزلا، واستدبره أبن جرموز فطعنه من خلفه في جربان درعه، فقتله، وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه، وخلى عن الغلام، فدفنه بوادي السباع، ورجع إلى الناس بالخبر. فأما الأحنف فقال: والله ما أدري أحسنت أم أسأت؟ ثم أنحدر إلى علي وابن جرموز معه، فدخل عليه، فأخبره، فدعا بالسيف، فقال: سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وبعث بذلك إلى عائشة، ثم أقبل على الأحنف فقال: تربصت، فقال: ما كنت أراني إلا قد أحسنت، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فارفق فإن طريقك الذي سلكت بعيد، وأنت إلى غدا أحوج منك أمس، فأعرف إحساني واستصف مودتي لغد، ولا تقولن مثل هذا، فإني لم أزل لك ناصحا.

من انهزم يوم الجمل فاختفى ومضى في البلاد:

ومضى الزبير في صدر يوم الهزيمة راحلا نحو المدينة، فقتله ابن جرموز، وخرج عتبة بن أبي سفيان وعبد الرحمن ويحي ابنا الحكم يوم الهزيمة، قد شججوا في البلاد فلقوا عصمة بن ابير التيمي، فقال: هل لكم في الجوار؟ قالوا: من أنت؟ قال عصمة بن أبير. قالوا: نعم، قال: فأنتم في جواري إلى الحول، فمضى بهم، ثم حماهم وأقام عليهم حتى برئوا، ثم قال: اختاروا أحب بلد إليكم أبلغكموه، قالوا: الشام، فخرج بهم في أربعمائة راكب من تيم الرباب، حتى إذا وغلوا في بلاد كلب بدومة، قالوا: قد وفيت ذمتك وذممهم، وقضيت الذي عليك فأرجع، فرجع، وفي ذلك يقول الشاعر:

وفي ابن أبير والرماح شوارع بآل أبي العاصي وفاء مذكرا

وأما ابن عامر فإنه خرج أيضا مشججا، فتلقـــاه رجــل مــن بنـــي حرقوص، يدعى مريا، فدعاه للجوار، فقال نعم، فأجاره و أقام عليه؟ وقـــال: أي البلدان احب إليك؟ قال: دمشق. فخرج به في ركب من بنـــي حرقــوص حتى بلغوا به دمشق. وقال حارثة بن بدر - وكان مع عائشة، وأصيب فـــي الواقعة ابنه أو أخوه زراع.

أتاني من الأنباء أن أبن عامر أناخ والقي في دمشق المراسيا

وأوى مروان بن الحكم إلى بيت من عنزة يوم الهزيمة، فقـــال لـــهم: اعلموا مالك بن مسمع بمكاني، فأتوا مالكا فأخبروه بمكانه، فقال لأخيه مقاتل: كيف نصنع بهذا الرجل الذي قد بعث إلينا يعلمنا بمكانه؟ قال: ابعث ابن أخـــي فأجره، والتمسوا له الأمان من علي، فان آمنه فذاك الذي نحب، وان لم يؤمنه خرجنا به وبأسيافنا، فإن عرض له جالدنا دونه بأسيافنا، فإما أن نسلم، وإمـــا أن نهلك كراما. وقد استشار غيره من أهله من قبل في الذي استشـــار فيـــه مقاتلا، فنهاه، فأخذ برأي أخيه، وترك رأيهم، فأرسل إليه فأنزله داره، وعـــزم على منعه إن اضطر إلى ذلك، وقال: الموت دون الجوار وفاء، وحفظ لـــهم بنو مروان ذلك بعد، وانتفعوا به عندهم، وشرفوهم بذلك، وأوى عبد الله بـــن الزبير إلى دار رجل من الأزد يدعى وزيرا، وقال: إئت أم المؤمنين فأعلمـــها بمكاني، وإياك أن يطلع على هذا محمد بن أبي بكر، فأتى عائشة رضـــي الله عنها فأخبرها، فقالت: علي بمحمد، فقال: يا أم المؤمنين، إنه قـــد نـــهاني أن يعلم به محمد، فأرسلت إليه فقالت: إذهب مع هذا الرجل حتى تجيئنـــي بـــابن أختك، فانطلق معه، فدخل بالأزدي على ابن الزبير، قال: جئتـــك والله بمـــا كرهت، وأبت أم المؤمنين إلا ذلك. فخرج عبد الله ومحمد وهمـــا يتشـــاتمان، فذكر محمد عثمان فشتمه، وشتم عبد الله محمدا حتى انتهى إلى عائشـــة فـــي

دار عبد الله ابن خلف - وكان عبد الله بن خلف قبل يوم الجمل مع عائشة، وقتل عثمان أخوه مع علي - وأرسلت عائشة في طلب من كان جريحا فضمت منهم ناسا، وضمت مروان. فيمن ضمت، فكانوا في بيوت الدار.

وغشى الوجوه عائشة وعلي في عسكره، ودخل القعقاع بن عمرو على عائشة في أول من دخل، فسلم عليها، فقالت: إني رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدي وارتجزا بكذا، فهل تعرف كوفيك منهما؟ قال: نعم، ذاك الذي قال: "أعق أم نعلم"، وكذب والله، إنك لأبر أم نعلم، ولكن لم تطاعي، فقالت: والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وخرج فأتى عليا فأخبره أن عائشة سألته، ويحك من الرجلان؟ قال: ذلك أبو هالة الذي يقول:

* كيما أرى صاحبه عليا *

فقال: والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة، فكان قولهما واحد. وتسلل الجرحى في جوف الليل، ودخل البصرة من كان يطيق الانبعاث منهم، وسألت عائشة يومئذ عن عدة من الناس، منهم من كان معها، ومنهم من كان عليها، وقد غشيها الناس، وهي في دار عبد الله بن خلف، فكلما نعي لها منهم واحد قالت: يرحمه الله، فقال لها رجل من أصحابها: كيف ذلك؟ قالت: كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلان في الجنة. وفلان في الجنة، وقال علي بن أبي طالب يومئذ: إني لأجور ألا يكون أحد من هؤلاء نقى قلبه إلا أدخله الله الجنة.

قال علي: ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم آية أفرح له من قول الله عز وجل: "وما أصابكم من مصيبة فبما أيديكم ويعفو عن كثير"، فقال صلى الله عليه وسلم: "ما أصاب المسلم في الدنيا من مصيبة في نفسه فبذنب، وما يعفو الله عز وجل عنه أكثر، وما أصابه في الدنيا فهو كفارة له وعفو منه لا يعتد عليه فيه عقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عز وجل في الدنيا فقد عفا عنه، والله أعظم من أن يعود في عفوه".

دفن القتلى وتوجع علي عليهم:

وأقام علي بن أبي طالب في عسكره ثلاثة أيام لا يدخل البصرة، وندب الناس إلى موتاهم، فخرجوا إليهم فدفنوهم، فطاف علي معهم في القتلى، فلما أتى بكعب بن سور قال: زعمتم أنما خرج معهم السفهاء، وهذا الحبر قد ترون. وأتى على عبد الرحمن بن عتاب فقال: هذا يعسوب القوم – يقول الذي كانوا يطيفون به – يعني أنهم قد كانوا اجتمعوا عليه، ورضوا به لصلاتهم. وجعل علي كلما مر برجل فيه خير قال: زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء، هذا العابد المجتهد. وصلى على قتلاهم من أهل البصرة، وعلى قتلاهم من أهل الكوفة، وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء، فكانوا مدنيين ومكيين، ودفن علي الأطراف في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من شئ، ثم بعث به إلى مسجد البصرة، أن من عرف شيئا فليأخذه، إلا سلاحا كان في الخزائن عليه سمة السلطان، فإنه لما بقي لم يعرف، خذوا ما أجلبوا به عليكم من مال الله عز وجل، لا يحل لمسلم من مال المسلم المتوفى شئ، وإنما كان ذلك السلاح في أيديهم من غير تنفيل من السلطان.

عدد قتلى الجمل:

كان قتلى الجمل حول الجمل عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب علي، ونصفهم من أصحاب عائشة، من الأزد ألفان، ومن سائر اليمن خمسمائة، ومن مضر ألفان، وخمسمائة من قيس، وخمسمائة من تميم، وألف من بني ضبة، وخمسمائة من بكر بن وائل. وقيل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف وقتل من أهل البصرة في المعركة الثانية خمسة آلاف، فذلك عشرة آلاف قتيل من أهل البصرة، ومن أهل الكوفة خمسة آلاف. وقتل من بني عدي يومئذ سبعون شيخا، كلهم قد قرأ القرآن، سوى الشباب ومن لم يقرأ القرآن.

وقالت عائشة رضى الله عنها: ما زلت أرجو النصر حتى خفيت أصوات بني عدي.

دخول علي على عائشة ومعاقبته من أساء إليها:

ودخل على البصرة يوم الأثنين، فانتهى إلى المسجد فصلى فيه، ثم دخل البصرة، فأتاه الناس، ثم راح إلى عائشة على بغلته، فلما انتهى إلى دار عبد الله بن خلف وهي أعظم دار بالبصرة، وجد النساء يبكين على عبد الله وعثمان ابني خلف مع عائشة، وصفية ابنة الحارث مختمرة تبكي، فلما رأته قالت: يا علي، يا قاتل الأحبة يا مفرق الجمع، أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه. فلم يرد عليها شيئا، ولم يزل على حاله حتى دخل على عائشة، فلم يسلم عليها، وقعد عندها وقال لها: جبهتنا صفية، أما إني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم. فلما خرج علي أقبلت عليه الكلام، بغلته وقال: أما لهممت - وأشار إلى الأبواب من الدار - أن أفتح من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه - وكان أناس من الجرحى قد لجئوا إلى عائشة،

فأخبر علي بمكانهم عندها، فتغافل عنهم - فسكتت. فخرج علي، فقال رجـــل من الأزد. والله لا تفلتنا هذه المرأة. فغضب وقال: صه، لا تهتكن ســـترا ولا تدخلن دارا، ولا تهيجن امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسفهن أمراءكـــم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن، وإنهن لمشـــركات، وإن الرجل ليكافئ المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعـــده، فـــلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس. ومضى علي فلحق بـــه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، قام رجلان ممن لقيت على الباب، فتناولا مـــن هو أمض لك شتيمة من صفية. قال: ويحك، لعلها عائشة، قـــال: نعـــم، قـــام رجلان منهم على باب الدار فقال أحدهما:

* جزيت عنا أمنا عقوقا *

وقال الآخر:

* يا أمنا توبي فقد خطيت *

فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب، فأقبل بمن كان عليه، فأحالوا على رجلين فقال: اضرب أعناقهما، ثم قال لأنهكنهما عقوبة. فضربهما مائة مائـــة وأخرجهما من ثيابهما.

وهما رجلان من أزد الكوفة يقال لهما عجل وسعد ابنا عبد الله.

بيعة أهل البصرة عليا وقسمه ما في بيت المال عليهم :

بايع الأحنف من العشي لأنه كان خارجا هو وبنو سعد، ثـم دخلـوا جميعا البصرة، فبايع أهل البصرة على راياتهم، وبايع علي أهل البصرة حتـى الجرحى والمستأمنة فلما رجع مروان لحق بمعاوية. وقال قائلون: لم يـبرح المدينة حتى فرغ من صفين.

ولما فرغ علي من بيعة أهل البصرة نظر في بيت المال فـإذا فيـه ستمائة ألف وزيادة، فقسمها على من شهد معه [الواقعة]، فأصاب كل رجـل منهم خمسمائة خمسمائة، وقال: لكم إن أظفركم الله عز وجل بالشام مثلها إلـى اعطياتكم. وخاض في ذلك السبيئة، وطعنوا على علي من وراء وراء.

سيرة علي فيمن قاتل يوم الجمل :

كان من سيرة علي ألا يقتل مدبرا ولا يذفف على جريح، ولا يكشـف سترا، ولا يأخذ مالا، فقال قوم يومئذ: ما يحل لنا دمـاءهم، ويحـرم علينـا أموالهم؟ فقال علي: القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا، ونحن منه، ومـن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر، وإن لكم في خمسـه لغنـى، فيومئذ تكلمت الخوارج.

خروج عائشة من البصرة إلى مكة :

قصدت عائشة مكة فكان وجهها من البصـرة، وانصـرف مـروان والأسود ابن أبي البخترى إلى المدينة من الطريق، وأقامت عائشة بمكة إلـى الحج، ثم رجعت إلى المدينة.

كتابة علي إلى عامله بالكوفة :

وكتب علي بالفتح إلى عامله بالكوفة حين كتب في أمرها وهو يومئذ بمكة:

من عبد الله علي أمير المؤمنين. أما بعد، فإنا التقينا في النصف من جمادى الآخرة بالخريبة - فناء من أفنية البصرة - فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين، وقتل منا ومنهم قتلى كثيرة، وأصيب ممن أصيب منا ثمامة بن المثنى، وهند بن عمرو، وعلباء بن الهيثم، وسيحان وزيد ابنا صوحان، ومحدوج.

وكتب عبيد الله بن رافع. وكان الرسول زفر قيس إلى الكوفة بالبشارة في جمادى الآخرة.

وقد علم أهل المدينة بيوم الجمل يوم الخميس قبل أن تغرب الشمس من نسر مر بما حول المدينة، معه شئ متعلقه، فتأمله الناس فوقع، فإذا كف فيها خاتم، نقشه "عبد الرحمن بن عتاب"، وجفل من بين مكة والمدينة من أهل البصرة من قرب البصرة أو بعد، وقد علموا بالوقعة مما ينقل إليهم النسور من الأيدي والأقدام.

تجهيز علي عائشة وإرسالها إلى المدينة :

وجهز علي عائشة بكل شئ ينبغي لها من مركب أو زاد متاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وقال: تجهز يا محمد، فبلغها، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه، جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس، فخرجت على الناس وودعوها وودعتهم، قالت: يا بني، تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة، فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي على معتبتي من الأخيار. وقال علي: يا أيها الناس، صدقت والله وبرت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة.

وخرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ هـ، وشيعها علي أميالا، وسرح بنيه معها يوما.

[تمت نصوص رواية سيف بن عمر المتعلقة بمقتل عثمان ووقعة الجمل]

الفهرست

الموضوع	الصفحة
مصادر كتابة تاريخ العرب والإسلام	٩ ـ ١٤
بلاد العرب : الجغرافيا والسكان	١٥ ـ ٢٥
حضارات جنوب شبه جزيرة العرب	٢٦ ـ ٤١
ممالك شمال شبه جزيرة العرب	٤٢ ـ ٦٠
إقليم وسط شبه جزيرة العرب	٦٠ ـ ٩٩
نصوص هامة للقراءة	١٠٠ ـ ١٢٣
الفصل الثانى : السيرة النبوية	
الرسول عليه السلام قبل البعثة	١٢٧ ـ ١٥٠
الفترة المكية	١٥٠ ـ ١٨٨
الفترة المدنية	١٨٨ ـ ٢٥١
الباب الثالث : الخلفاء الراشدون	
عصر أبى بكر رضي الله عنه	٢٥٥ ـ ٢٧٧
عصر عمر رضي الله عنه	٢٧٨ ـ ٣٠٠
عصر عثمان رضي الله عنه	٣٠١ ـ ٣٢٣
عصر على رضي الله عنه	٣٢٤ ـ ٣٦٢
نص مهم للقراءة	٣٦٣ ـ ٣٧٣
الفهرست	٣٧٤